

سلسلة الفكر

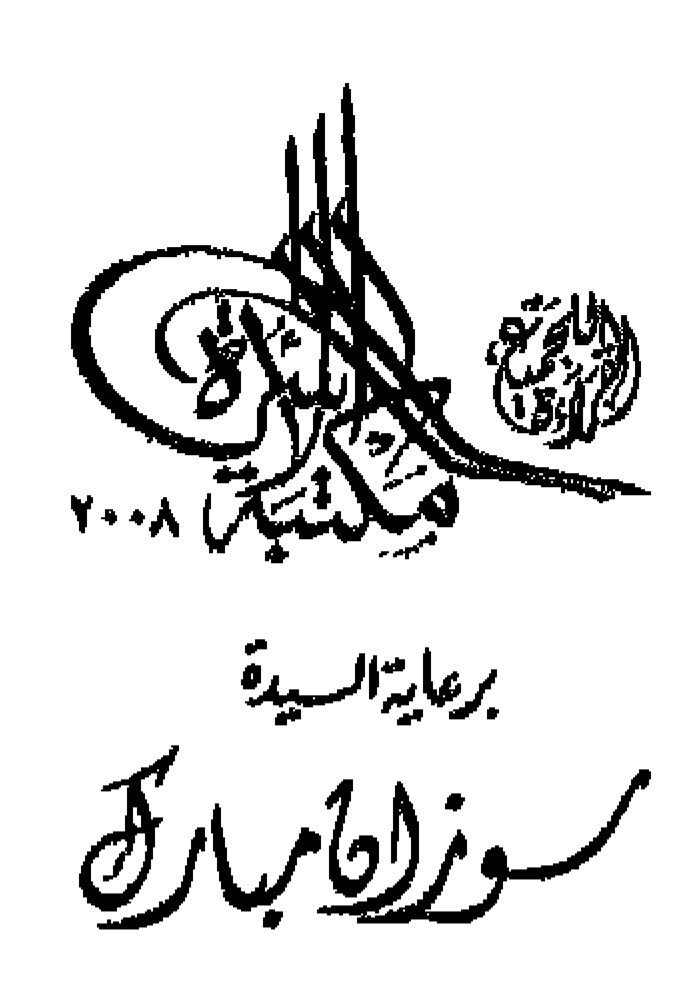
حُكَّامُ العَالَمِ الجُدُد

جون بيلچر

ترجمة: إسماعيل داود



حُكّام العالم الجُدد



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام
د . ناصر الأنصاري

تصميم الغلاف
د . إيناس حسني

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الجهات المشاركة
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
المجلس القومي للشباب
وزارة التنمية الإقتصادية

حُكّامُ العالمِ الجُدُد

جون بيلجر

ترجمة: اسماعيل داود



حكام العالم الجدد

لوحة الغلاف للفنان : محمد حسن

كإضافة جديدة لمكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن موضوع الكتاب.

وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث على هذا التعاون.

بيلجر ، جون

حكام العالم الجدد/ جون بيلجر؛ ترجمة: إسماعيل داود . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

٢٥٢ ص ؛ ٢٠ سم.

تدمك : ٧ - ٥١١ - ٤٢٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ ـ الاستعمار الجديد. ٢ - الامبريالية .

٣ - الطغيان . ٤ - الإرهاب .

أ - داود ، إسماعيل . (مترجم) .

ب - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٩٠٥ / ٢٠٠٨

I.S.B.N 978 - 977- 420 -511 - 7

ديوى ٣٢٥,٣

توطئة

منذ ثمانية عشر عامًا انطلق مهرجان القراءة للجميع على جناح فكرة أن الكتاب هو عماد المعرفة الرئيسى، والثقافة الرفيعة، وأن الكتاب ينفرد عن غيره من أدوات التثقيف ومصادر المعرفة بقدرته على تنمية الفكر وصنع العقول المستنيرة، وتكوين الشخصيات المتميزة، وفتح آفاق الاستنارة أمام الملايين، والإسهام فى تشكيل وجدان الأمة، وحفظ تراثها، والوصول إلى رؤى مستقبلية لنهضتها.

ولقد حرصت مكتبة الأسرة طوال أعوامها السابقة كرافد رئيسى للمهرجان على تحقيق الهدف النبيل من تأسيسها.. ذلك الهدف الذى تحدد فى طرح العبقرية الإبداعية والفكرية والعلمية للمجتمع المصرى المعاصر، وفتح نوافذ على الفكر والإبداع العالمى، وإقامة جسور بين الحضارات المختلفة، والتعرف على ثراء التاريخ الفرعونى والإسلامى، وأخيرًا تحفيز الأجيال الجديدة على القراءة حتى تصبح عادة، بل ضرورة ملحة تترسخ أهميتها فى الأذهان من خلال كتب عظيمة الفائدة، تباع بأسعار رمزية فى متناول الملايين.

ولأن وصول الكتاب إلى كل مكان فى مصر سيظل حلم السيدة الفاضلة سوزان مبارك، راعية القراءة للجميع. فلقد أعلنت هذا العام مبادرتها الجديدة بإهداء مليون كتاب مجانًا للمجتمع. ولأن مهرجان القراءة للجميع يتخذ شعارًا مختلفًا كل عام يتواءم مع الرسالة التى

يهدف إلى تحقيقها وتنوعها وتطورها عامًا بعد عام، فإن مكتبة الأسرة تتخذ توجهًا عامًا فى اختياراتها للكتب، يستهدف دائمًا تحقيق وعى عام متجدد يطور القوى الاجتماعية، ويقوم على منظومة قيم تتلخص فى تعميق دور العلم والتفكير العلمى، وتعزيز الديمقراطية، والتعددية وترسيخ قيمة المواطنة والانتماء والمشاركة والمسئولية، ودور مؤسسات المجتمع المدنى، وتأكيد قيمة التسامح وثقافة السلام، وترسيخ قيمة دور المرأة، وقيمة التجدد الثقافى والتفكير النقدى والحوار والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى، وإبراز تواصل الإبداع المصرى. ولقد تم استحداث قيمة جديدة هذا العام هى تعزيز تجليات الوطن وقضاياه، وذلك لمواجهة متغيرات خرائط الصراع المضاد، الذى يسعى إلى التفتيت بإشعال الفتن والانقسامات التى تحول الانتماء الوطنى إلى ولاءات لأعراق وعقائد ومذاهب، وفق تصنيفات قاطعة تعمل على تعبئة الناس وقولبتهم لكى تضعهم فى موقف التضاد بعضهم لبعض على سبيل الاستبعاد والاستعداء للنيل من سيادة الدولة الوطنية، وانتهاك دعمها للمواطنة والديمقراطية والمجتمع المدنى ومشروعية التعايش، ولذا ستظهر تجليات الوطن وقضاياه وتتجسد فى الإبداعات التى ستطرحها مكتبة الأسرة هذا العام.

لقد نهض صرح مكتبة الأسرة على أعمدة المكتبة العربية، وثراء تحفها الإبداعية والفكرية، واكتشاف الأقلام الموهوبة الشابة، فالتف الجميع حوله كواحد من أكبر المشاريع الثقافية فى تاريخ مصر الحديث، نأمل دائمًا أن يحقق أحلامه العظمى، وأن يساهم مساهمة فعلية فى نهضة المجتمع.

مكتبة الأسرة

تقديم

يتعرض هذا الكتاب لإشكاليات الهيمنة والنفوذ التى تتحكم فى العالم الراهن، وتسيطر على نمط العلاقات الدولية حيث لم تعد الإمبريالية التقليدية المتمثلة بالغزو وإخضاع الشعوب عسكريا هى النمط المتبع ولكنها أصبحت سيطرة تكنولوجية وشركات عابرة للقوميات وشعارات العولمة، ويأخذ أندونيسيا كنموذج حيث يشرح بالتفصيل كيف تدخلت المؤسسات المالية والدولية كصندوق النقد الدولى والبنك الدولى لصياغة برامج الإصلاح الاقتصادى بما يخدم مصالح واشنطن والغرب وضمان التحويلات المالية المعكوسة من الجنوب إلى الشمال، كما يبين التدخلات التى تمت عبر الشركات أو عبر المركزية الأمريكية لتغيير نظام الحكم بما يضمن لها استمرارية الهيمنة.

كما يتعرض الكتاب لمأساة حصار العراق قبل الغزو وآثاره على الشعب العراقى وسيطرة أمريكا على برنامج النفط مقابل الغذاء والتحكم فى البضائع والأدوية التى تدخل العراق.

ويتعرض الكتاب للحرب التى خاضتها الولايات المتحدة فى أفغانستان بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر تحت عنوان الحرب ضد الإرهاب مستخدمة الآلة الإعلامية الرهيبة لتلوين الحقائق بما يخدم هذه المصالح وتوزيع القوى والنفوذ فى العالم.

ثم يبين الكتاب الأهداف الحقيقية للهيمنة الأمريكية حيث تمتلك الولايات المتحدة نصف ثروات العالم فى حين يبلغ تعداد

سكانها ٦٪ من سكان العالم وأن ثراءها وقوتها وبقاءها يعتمد على الإبقاء والمحافظة على هذه الفجوة وهذا هدفها الاستراتيجى.

وقد صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٢ لمؤلفه جون بيلجر وهو صحفى ومنتج تليفزيونى أسترالى ومقيم فى بريطانيا ومعروف بآرائه المعارضة لكل ما يتعلق بسياسات القوى الغربية، وقام بترجمته إلى العربية إسماعيل داود، وتقدمه مكتبة الأسرة ضمن إصداراتها هذا العام عن طبعته العربية الأولى ٢٠٠٤.

مقدمة المترجم

«العولمة» شكل جديد للإمبريالية

يعرض هذا الكتاب ثلاثة مشاهد فحسب، تشكل الفصل الأول من مسرحية عبثية، مازال عرضها يجرى فى وقتنا الراهن وقد يستمر هذا العرض على مدى خمسين عامًا أو أكثر، وفقًا لتقدير أحد المؤلفين البارزين لمعالمها والمحركين لأحداثها..

هذه التراجيديا المهولة التى تجرى وقائعها على امتداد العالم كله، يمكن أن ترجع بداياتها إلى نهاية الحرب العالمية الثانية التى كانت إيذانًا بانتهاء الحقبة الاستعمارية بشكلها التقليدى القائم على الاحتلال المباشر بالقوة العسكرية، وبروز الولايات المتحدة الأمريكية، كقوة فتية عفية، خرجت من الحرب منتصرة، ممثلة وقائدة للرأسمالية العالمية الساعية إلى فرض هيمنتها على العالم، باستخدام كل الوسائل والأساليب التى تمكنها من تحقيق هذا الهدف، بما فى ذلك التدخل العسكرى، وإقامة الأنظمة، والتآمر لإسقاطها، وإغراقها فى الديون، وضرب اقتصادياتها الهشة.

وكان انهيار الاتحاد السوفيتى وتفتت كيانه، وسقوط أغلب

الأنظمة الوطنية التى حاولت مناوأة هذا التوجه نحو الهيمنة، بمثابة انتصار حاسم لهذه القوة الفتية العفية التى ظلت تعمل بصبر ودأب، لأكثر من نصف قرن، سعياً إلى تحقيق هذا الهدف، وكان هذا هو الوقت المناسب لإعلان البدء فى تنفيذ ما أطلق على «النظام العالمى الجديد»، أو ما عرف بعد ذلك باسم «العولمة».

وكما كانت المنطقة العربية والإسلامية هدفاً وساحة للاستعمار الامبراطورى المباشر، فقد شاءت لها الأقدار أن تكون أيضاً هدفاً وساحة للامبريالية المهيمنة بشكلها الجديد.. ويرجع ذلك إلى دواع أصبحت معروفة للكافة، يأتى فى مقدمتها ما تحتويه المنطقة من مواقع استراتيجية حاكمة، وثروات مهولة، وأسواق ممتدة، وأيد عاملة رخيصة وقانعة، كل هذه وغيرها كانت تشكل مغريات لا يمكن إغفالها من جانب القطب العالمى الأوحد الذى أصبح مهيمناً بلا منازع، متحالفًا مع الرأسمالية المتجاوزة لكل الحدود، والمنفلتة مع كل القيم التى يمكن أن تقيد حركتها أو تحد من جموحها.

وليس من المصادفة أن تكون ثلاثة بلدان عربية وإسلامية هى ساحة العرض للمشاهد الثلاثة التى يتضمنها الفصل الأول من هذه التراجيديا العبثية التى تدور أحداثها الآن أمامنا، ومازال العالم كله يتابعها وهو محبوس الأنفاس، ترقبًا وفزعًا.

كان «حكام العالم الجدد» فى إندونيسيا بين عامى ٦٥ - ١٩٦٦ يخططون ويعملون لإسقاط النظام الذى أقامه سوكارنو، لمجرد أنه أخذ موقفًا مناوئًا للهيمنة الخارجية - الأمريكية فى الأساس، وجاء نظام سوهارتو ليفتح المجال واسعاً للهيمنة والتحكم والفساد، وكان الثمن الفادح الذى دفعه الشعب الإندونيسى من دماء أبنائه وثروات بلاده.

وكان نفس حكام العالم الجدد وراء وصول نظام الحكم البعثى، وفى قلبه صدام حسين، إلى الاستيلاء على الحكم فى العراق، تصدياً للنظام القومى الناصرى. وبإقرار أحد أقطاب النظام - الذين انشقوا عليه فيما بعد - فإنه قد وصل إلى حكم العراق مستقلاً قاطرة تقودها المخابرات المركزية الأمريكية. والأهم من ذلك أن أمريكا، والمنظومة الغربية بوجه عام، كانت هى التى دعمت النظام البعثى الحاكم فى العراق، وأقامت ترسانته العسكرية، بما فيها أسلحة التدمير الشامل، وكانت هى التى دفعته، بتمويل خليجى، إلى خوض حربه الطويلة ضد الثورة الإيرانية، حتى تستنزف قوى الجانبين وثروات المنطقة بأسرها. وكان مطلوبًا بعد ذلك تدمير تلك القوة العسكرية التى تكونت خلال الحرب وتمرست بها، فكانت «المصيدة» التى نصبها حكام العالم الجدد لصدام، بدفعه إلى غزو الكويت، أو إغرائه به، أو التلويح له بإغماض الأعين لما سيقوم به.. ثم كان ما كان من تدمير القوة العسكرية العراقية، وفرض الحصار الخانق على العراق لأكثر من عشر سنوات. ومرة أخرى كان الشعب العراقى هو الذى دفع الثمن من دماء أبنائه ومقدرات بلاده، ومازال مهددًا بأن يدفع المزيد، وفى ظل التهديد بغزو أراضيه بدعوى إسقاط النظام الحاكم، من جانب نفس القوى التى أقامته وساندته، وانطلاقًا من قواعد نفس البلدان التى سبق لها أن دعمته ومولته.

وما حدث فى أفغانستان لا يختلف كثيرًا عما جرى فى العراق وفى غيرها، وهى أحداث «اللعبة العظمى» التى تشكل المشهد الثالث فى هذا الكتاب. ولم تكن أفغانستان هى الوحيدة التى

شهدت قيام نظام يسارى تقدمى كان يشكل أملاً لتحقيق النهضة فى ذلك البلد الفقير المتخلف. ولكن مثل هذا النظام لم يكن من الممكن التجاوز عن قيامه فى أفغانستان من جانب حكام العالم الجدد، بما لها من موقع فى وسط آسيا، وبإطلالها على الصين وعلى الاتحاد السوفيتى وجمهورياته القزوينية ذات المخزون النفطى الهائل. وكان حكام العالم الجدد وراء قيام ودعم حركة «المجاهدين» بمساندة من باكستان وتمويل من دول الخليج، وكانوا هم أنفسهم وراء قيام وتدريب وتمويل تنظيم القاعدة الذى تألف من المتطوعين العرب والمسلمين الذين توافدوا إلى أفغانستان تلبية لنداء «الجهاد» كما كانوا وراء قيام نظام طالبان وتمكينه من السيطرة على أفغانستان، ثم كان نفس الانقلاب ضد القاعدة وطالبان، وكان الغزو الوحشى الذى دفع ثمنه الشعب الأفغانى، ومازال.

ويركز الكتاب بحق على أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر لم تكن هى البداية لكل ما جرى على أثرها، وإنما كانت الذريعة التى اتخذها حكام العالم الجدد لشن حرب إرهابية على العالم كله بدعوى مكافحة الإرهاب، وتنفيذاً لمخطط كان يجرى تنفيذه بكل العمد والإصرار لفرض التسلط والهيمنة الإمبريالية الجديدة، وفى ظل العولمة وتحت رايتها.

ولو كان مؤلف الكتاب عربيًا أو مسلمًا لقلنا إن شهادته يمكن تجريحها بحكم انتمائه الوطنى أو الدينى، ولكنها شهادة تأتى من صحفى استرالى، يقيم فى لندن، ويعمل بها فى مجال الصحافة وإعداد الأفلام الوثائقية، وحازت أعماله على شهادات تقديرية

عديدة، وفى الوقت الذى تعيش فيه شعوبنا العربية والإسلامية حالة من الخدر والغيبوبة والشعور المطلق بالعجز، وتفتح دولنا العربية والإسلامية أراضيها وبحارها وأجواءها لتكون قواعد انطلاق للعدوان على إخوتنا فى الوطن والعقيدة، يقف مؤلف كتابنا مع ملايين غيره فى الغرب والشرق، لفضح ما يجرى من محاولات لفرض الهيمنة على العالم، ونهب ثرواته ومقدراته، والسيطرة على شعوبه، وتذويب ثقافاتها، وإخضاع إرادتها.

ومن المؤكد أن المشاهد الثلاثة التى سجلها هذا الكتاب لا تشكل سوى الفصل الأول من هذه التراجيديا العبثية التى لا يدرى أحد كيف ستتعاقب فصولها. هل سيتمكن حكام العالم الجدد من فرض الهيمنة على العالم، والمنطقة العربية فى مقدمته وعلى رأسه؟ هل سينتهى الأمر بانتصار القطب الأوحد، وفرض هيمنته المنفردة على الكون بأسره؟ هل ستكون هذه هى نهاية التاريخ، وانتصار الحضارة الغربية فى صراعها، لتكتسح أمامها كل ما أقامته شعوب العالم من حضارات على امتداد تاريخها؟ وهل سيكون هذا هو ختام المسرحية ونهايتها، أم أن قوى العالم ستلم شملها من جديد، لتواجه هذه القوة الطاغية الباغية، وتكون لحظة تحليق ذلك الطائر الجارح المفترس فى الذروة العليا من الفضاء هى ذاتها اللحظة التى تؤذن بسقوطه. وانسدال الستار عليه، وهو يعانى الهزيمة المريرة التى يلقاها - عادة - جميع الطغاة؟

إسماعيل داود

مقدمة المؤلف

عندما قال ديك تشينى نائب الرئيس الأمريكى إن «الحرب ضد الإرهاب» يمكن أن تستمر لخمسين عاماً أو أكثر، فإن كلمته قد أعادت إلى الأذهان ذلك العمل التنبؤى الرائع الذى كتبه جورج أورويل: ألف وتسعمائة وأربعة وثمانين. فيبدو، أنه ينبغى علينا أن نعيش تحت وطأة التهديد والتوهم بوجود حرب لا تنتهى، ليكون ذلك مبرراً للتحكم الاجتماعى المتزايد، وللقهر من جانب الدولة، فى الوقت الذى تواصل فيه القوة العظمى سعيها نحو بلوغ السيادة الكونية. فواشنطن قد أخذت مكان «إيرستريب» وأصبحت جميع المشكلات ناجمة عن وجود ذلك «العدو» أو «جولد شتاين» الشرير كما دعاه أورويل. ويمكن أن يكون هذا العدو هو أسامة بن لادن، أو من يأخذون مكانه من دول «محور الشر».

وفى الرواية، هناك ثلاثة شعارات تحكم المجتمع: الحرب هى السلام، الحرية هى العبودية، والجهل هو القوة، أما شعار «الحرب ضد الإرهاب» فيمكن أن يكون له بدوره معنى عكسى: الحرب هى الإرهاب. وأمضى الأسلحة فى هذه الحروب هى المعلومات المخادعة التى لا تختلف إلا فى الشكل عن تلك التى وصفها

أورويل، والتى تحيل إلى عالم النسيان ما هو غير مرغوب فى وجوده من الحقائق والإحساس التاريخى.. فالخلاف يمكن السماح به فى إطار الحدود «الاجتماعية» بما يدعم الوهم القائم بأن هناك «حرية» فى نقل المعلومات وإبداء الرأى.

إن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لم تؤد إلى تغيير كل شىء، ولكنها أدت إلى التسارع فى استمرارية الأحداث، ووفرت ذريعة غير عادية لإلحاق الدمار بالديمقراطية الاجتماعية. إن القضاء على إعلان الحقوق فى الولايات المتحدة، والتجاوز المتزايد لنظام المحاكمة بواسطة المحلفين فى بريطانيا، والتعدى على ذلك الكم الهائل من الحريات المدنية ذات الصلة، إنما تشكل جزءًا من التوجه إلى الانتقاص من الديمقراطية، لإقامة نظام انتخابى شكلى، أى وجود التنافس بين أحزاب لا يوجد تمايز بينها للوصول إلى الحكم فى دولة ذات أيديولوجية وحيدة Single ideology start.

ومن الأمور المركزية بالنسبة لهذه الدولة الأشبه بالمشروع التجارى Business start هو وجود المؤسسات الإعلامية العملاقة، التى أصبحت تستحوذ على نفوذ غير مسبوق، بامتلاكها للصحف، والتليفزيون، ونشر الكتب، وإنتاج الأفلام، وقواعد المعلومات. إنها تقدم عالمًا فعليًا يقوم على أساس من «الحاضر الأبدى» Eternal present على نحو ما أطلقت عليه مجلة تايم:

فالسياسات بواسطة الميديا، والحروب بواسطة الميديا، والعدل بواسطة الميديا، حتى الأحزان بواسطة الميديا «حالة الأميرة ديانا».

والاقتصاد الكونى «أو العالمى» global economy هو أهم

مشروعاتهم المطلوب الترويج لها إعلاميًا، والاقتصاد الكونى هو مصطلح أورويللى «نسبة إلى أورويل» حديث. فهو على السطح يتمثل فى التجارة ذات التمويل الآنى، والهواتف النقالة، وماكدونالدز، وستاربكس، والعطلات المحجوز لها على الإنترنت. وأسفل هذه القشرة البراقة، فهى تعنى عالماً يعيش غالبية البشر فيه دون أن يجروا اتصالاً هاتفيًا واحدًا، ويعيشون على ما هو أقل من دولارين فى اليوم، ويموت فيه ستة آلاف شخص يومياً من الإسهال، نظراً لأن معظمهم لا تصلهم المياه النقية.

فى هذا العالم، غير المرئى من جانب معظمنا - نحن الذين نعيش فى شمال العالم - هناك نظام متقدم للنهب، أجبر أكثر من تسعين دولة على تنفيذ برامج «التعديل الهيكلى» منذ الثمانينيات، لتوسع من الفجوة القائمة بين الغنى والفقر على نحو غير مسبوق على الإطلاق. وقد أطلق على هذا اسم «بناء الدولة» و«الحكم الجيد» من جانب «الرباعى» المهيمن على منظمة التجارة الدولية «الولايات المتحدة، أوروبا، كندا، واليابان»، و«ثلاثى» واشنطن «البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، والخزانة الأمريكية» الذى يهيمن حتى على أكثر الجوانب ضآلة فى السياسات الحكومية بالدول النامية. ويستمد هؤلاء نفوذهم من الديون غير المسددة، والتى تجبر أكثر الدول فقرًا على دفع مائة مليون دولار يوميًا للمقرضين الغربيين، والنتيجة هى عالم تتحكم فيه نخبة لا يتجاوز عددها البليون فى ثمانين فى المائة من ثروة البشرية بأسرها.

ويقوم بالترويج لذلك مؤسسات إعلامية عابرة للحدود، أمريكية وأوروبية، تمتلك أو تتولى إدارة المصادر الأساسية للمعلومات

والأخبار على مستوى العالم. لقد استطاعوا تحويل جانب كبير من «مجتمع المعلومات» إلى «عصر الميديا» حيث تسمح التكنولوجيا غير العادية بالتكرار الذى لا ينقطع للمعلومات «الآمنة» سياسيًا، والتى تكون متقبلة من جانب «بناة الأمة». وفى الغرب، تم تدريبنا على النظر إلى المجتمعات الأخرى وفقًا لما تحققه لنا، «نحن» من فائدة، أو ما تشكله من تهديد، وعلى النظر إلى الاختلافات «الثقافية» على أنها أكثر أهمية من القوى السياسية والاقتصادية التى نحكم من خلالها على أنفسنا. وهؤلاء الذين أتيحت لهم مصادر غير مسبوقة لفهم ذلك، ومن بينهم الكثيرون ممن يقومون بالتدريس والبحث فى الجامعات الكبرى، يكتمون ما يعرفون ولا يفصحون عنه فى العلن، وربما لم يكن هناك من قبل مثل ذلك الصمت.

وكتاب «حكام العالم الجدد» يهدف إلى شرح بعض جوانب هذا «النظام الجديد» ويؤكد أهمية كسر الصمت الذى تحتمى به القوة العظمى، وتدارى به ألاعيبها، خاصة «الحرب» الجارية.

ويبدأ الكتاب بفصل عن «التلميذ النموذج» ويروى القصة التى تحكى كيف أن «الاقتصاد العالمى» فى آسيا قد ولد من رحم حمام الدم الذى جاء بالجنرال سوهارتو إلى السلطة فى ٦٥ ـ ١٩٦٦ وهو يعرض وثائق تم الكشف عنها مؤخرًا، وتصف ذلك الاجتماع المشهود الذى عقد فى عام ١٩٦٧ بين الشخصيات المسئولة عن أكثر الشركات العالمية نفوذًا، والذى جرى خلاله تقسيم الاقتصاد الإندونيسى، قطاعًا إثر قطاع.

كان الأمر على نحو ما أخبرنى جيفرى ونترز، الأستاذ بجامعة نورثوسترن بشيكاغو: لقد قسموا الاقتصاد إلى خمسة قطاعات

مختلفة، التعدين فى جانب، والخدمات فى جانب، والصناعات الخفيفة فى جانب، والمصارف والمؤسسات المالية فى جانب.. وكانت هذه الشخصيات الكبيرة حول المائدة، تقول «لشعب سوهارتو» إن هذا هو ما نريد. هذا، وهذا، وهذا. وقد قاموا بالتخطيط الأساسى للقاعدة الأساسية القانونية للاستثمار فى إندونيسيا.

ونتيجة لذلك، تم تسليم كميات ضخمة من النحاس والذهب، ومن النيكل والبوكسيت إلى الشركات الأمريكية العابرة للقارات. واستولت مجموعة من الشركات الأمريكية واليابانية والفرنسية على غابات سومطرة الاستوائية، ومضت الأمور على هذا النحو. ولقد سألت أحد ممثلى سوهارتو فى اجتماع ١٩٦٧، وهو إميل سالم، عما إذا كان أحد قد أشار إلى نحو مليون شخص قد لقوا حتفهم بوسائل عنيفة للوصول بهذا «النظام العالمى» الجديد إلى إندونيسيا، وكانت إجابته: «لا، إن هذا لم يكن ضمن جدول الأعمال. فى ذلك الوقت لم يكن لدينا تلفاز».

إن أضخم مذبحة شهدها النصف الثانى من القرن العشرين لم تكن مصدراً للأخبار بقدر ما كانت مدعاة للاحتفاء. فالبلد الرابع فى العالم من حيث عدد السكان أصبح «لنا» وصعود سوهارتو إلى السلطة كان «أفضل أخبار للغرب على مدى أعوام» وجيمس رستون، عميد المعلقين الأمريكيين، أبلغ قُراءه فى صحيفة نيويورك تايمز أن أحداث إندونيسيا الدموية كانت «شعاع ضوء فى آسيا».

وفى جامعاتنا، تقبل الأكاديميون المختصون بالشئون الإندونيسية كذبة سوهارتو الكبرى حول أن وجود «انقلاب شيوعى» كان السبب فى ارتكاب أعمال القتل، فى الوقت الذى أشادت فيه الشركات

الغربية بما حققه نظامه من «استقرار». واستمر الصمت لما يزيد على ربع قرن، حتى كسرته صيحات ضحايا سوهارتو فى تيمور الشرقية، حيث ارتكبت هناك جريمة إبادة جماعية أخرى بمساندة من السلاح الغربى.

ويستند هذا الفصل إلى فيلمى الوثائقى «القادة الجدد للعالم» الذى عرض عام ٢٠٠١، واستقى منه عنوان الكتاب. وما يربط بين فصول الكتاب هو إعادة ذلك الاستعمار «القديم» وإعداة الاعتبار والاحترام إليه تحت مسميات «العولمة» و«الحرب ضد الإرهاب».

وفى بعض الأحيان يساء فهم هوية «الحكام الجدد» وينظر إليهم على أنهم الشركات العابرة لحدود الدول، التى غالبًا ما تكون أمريكية، والتى تهيمن على «التجارة الدولية». ومن المؤكد أن ضخامة هذه الشركات واتساع نطاق أعمالها يعدان من الأمور الجديدة، حيث تعد ميزانية شركة فورد موتور الآن أكثر ضخامة من اقتصاد دولة جنوب إفريقيا، كما تعد شركة جنرال موتورز أكثر ثراء من الدنمارك.

ورغم ذلك، فإن الفكرة السائدة على نطاق واسع بين النشطاء المناهضين للعولمة، والقائمة على أن الدولة قد «تقلص» دورها، هى فكرة بعيدة عن الصواب. وباعتباره اقتصاديًا روسيًا منشقًا، يشير بوريس كاجارلتسكى إلى: «إن العولمة لا تعنى إصابة الدولة بالعقم، ولكنها تعنى تخلى الدولة عن القيام بوظائفها الاجتماعية لكى تتولى وظائف قمعية بديلة، ولكى تتولى القضاء على الحريات الديمقراطية.

ويسعى الفصل المنشور تحت عنوان «اللعبة العظمى» إلى إلقاء الضوء على الوسائل التى تلجأ إليها هذه السلطة المتخفية للدولة لتوفير الظروف والامتيازات التى تحقق الحماية للأسواق الغربية، فى الوقت الذى تمكن فيه الشركات الغربية من التدخل حيث تريد فى أى مكان من العالم، على نحو ما فعلت فى إندونيسيا. فالسلطة المستمرة للدولة الإمبريالية فى عالم اليوم تجمع بين «اليد الخفية» وبين القبضة الحديدية لرأس المال المتنامى.

إن قدرة الآلة العسكرية الأمريكية على سحق الدول التى فرض عليها الفقر المدقع هى أمر مفروغ منه، بشرط عدم وجود قوات أمريكية على الأرض، واستبدالها بقوات محلية أو حليفة. وكان الاستثناء الوحيد لذلك فى فيتنام. فعلى الرغم من القاذفات بى - ٥٢، وقنابل النابالم، والكيماويات المبيدة، والتفوق العددى، لم تستطع القوات الأمريكية أن تجارى معرفة ومهارة شعب تهيأ لطرد الغزاة. وكان هذا هو الدرس الإمبريالى الذى تعلمه الأمريكيون.

ولذلك، فخلال غزو أفغانستان، لم يقتل هناك سوى حفنة من الأمريكيين. وذكر قادة «المجاهدين» بأن الطائرات بى - ٥٢ كانت تقصف قرى «أصغر من أن يظهر لها أثر على الخريطة»، مما أدى إلى مصرع أكثر من ثلاثمائة شخص من سكانها فى ليلة واحدة. ومن أسرة كانت تضم أربعين شخصًا، لم يبق على قيد الحياة سوى طفل صغير وجدته، حسبما ذكر ريتشارد لويد بارى فى صحيفة «أندبندنت». وبعيدًا عن كاميرات التلفاز، قتل ما لا يقل عن ٣٧٦٧ من المدنيين بواسطة القذائف الأمريكية فيما بين ٧ أكتوبر و١٠ ديسمبر، أى بمعدل اثنتين وستين حالة وفاة يوميًا من المدنيين

الأبرياء، وذلك وفقًا لإحدى الدراسات التى أجريت، وقد حدث هذا فى دولة تعادل آخر ميزانية لها ـ ٨٣ مليون دولار ـ عشر التكاليف الخاصة بتصنيع قاذفة واحدة من طراز بى ـ ٥٢.

وقد صور هذا من جانب الميديا الموالية باعتباره إثباتًا لصحة التوجه، وانتصارًا للمبادئ، وللخير على الشر، وتردد ذلك من جانب كاتبى الافتتاحيات والأعمدة الفارغين الذين دعوا هؤلاء الذين تحدوا هذه الدعايات إلى تقديم الاعتذار. وأثناء كتابة هذه السطور لم يتم إلقاء القبض علي عضو قيادي واحد من تنظيم القاعدة، بما في ذلك «الشيطان الأعظم» أسامة بن لادن الذي لم يتم القبض عليه. كما لم يصل إلى علم أحد أنه قد قتل. كما لم يتم الإمساك بالشيطان الثانوى الملا عمر زعيم طالبان. والواقع أن أيًا من هؤلاء الذين شاركوا بشكل مباشر فى هجوم الحادى عشر من سبتمبر على أمريكا لم يكن من الأفغان، بل كان معظمهم من السعوديين الذين تلقوا تدريبهم فى ألمانيا والولايات المتحدة، ولم يتم تقديم أى منهم إلى العدالة. ورغم ذلك فإن الآلاف من الناس الأبرياء الذين يعيشون فى القرى المتربة التى يتعذر رؤيتها قد وقعت عليها عقوبة الموت دون محاكمة، على الطريقة التكساسية، كما أن كثيرين آخرين سوف تتناثر أشلاؤهم خلال السنوات المقبلة بواسطة عشرات الآلاف من القنابل العنقودية التى لم تنفجر.

وزيادة على ذلك، فإن التغيير فى أفغانسان ذاتها يعد فى أدنى مستوياته، فالنساء لا يجرؤن حتى الآن على الخروج دون نقاب، كما تسود النزاعات الدموية بين الفئات المتصارعة. يقول وزير العدل الأفغانى الجديد فى النظام الذى أقامه الأمريكيون: «اعتاد

الطالبان أن يعرضوا جثة ضحيتهم أمام الناس أربعة أيام، أما نحن فلن نعلق الجثة إلا لفترة قصيرة، لنقل خمس عشرة دقيقة، بعد أن يتم الإعدام علناً».

وتصوير ذلك على أنه انتصار هو أشبه بالإشادة بالتفوق الذى حققته آلة الحرب الألمانية باعتباره دليلاً على صحة التوجه النازى.

وفى عصر الميديا، يعتبر الجهل هو القوة، فمجرد البحث عن الأسباب لأحداث ١١ سبتمبر يستدعى الاستنكار. فقد كتب دافيد ماكنايت، وهو صحفى وأكاديمى استرالى يقول: إن أناسًا مثل جون بيلجر، ونعوم تشومسكى يبدون وكأنهم يحاولون تبرئة مرتكبى هجوم ١١ سبتمبر من جريمتهم. وكتبت ردًا على ذلك فى صحيفة الجارديان أقول: «إن الحقيقة حول أحداث ١١ سبتمبر هى أنه قتل الآلاف من الأبرياء لا تجد له تبريرًا سواء فى أمريكا أو فى أى مكان آخر من العالم». فالنسبة لـ«ماكنايت» ومن يعتبر صوته صدى لهم، يعتبر قتل الآلاف من الأبرياء فى أفغانستان هو المعادل الكونى للغارة التى تشنها الشرطة على مكان يختبئ فيه المجرمون والتى تقع خلالها مواجهة عنيفة لا يمكن تفاديها للقبض على المجرمين.

والقول بأن الفلاحين الأفغان لهم نفس الحق فى الحياة مثلهم فى ذلك مثل أهالى نيويورك، هو مما لا ينبغى ذكره، باعتباره نوعًا من التجديف، أو البذاءة. والتدمير الوحشى لقراهم، فى الوقت الذى لا يوجد فيه أى من مقاتلى طالبان أو القاعدة، هو عملية «لا يمكن تفاديها». وبكلمات أخرى، فإن حياة 'البعض من البشر لها قيمة أكبر من حياة غيرهم، وقتل مجموعة من المدنيين يعد جريمة، فى حين أن قتل مجموعة أخرى منهم لا يعد كذلك. وهذه هى

الأكذوبة القديمة التى تشربها الإرهابيون، سواء منهم الذين يتبعون أسامة بن لادن أو جورج بوش.

كما أن التاريخ أيضًا قد جمع بين هؤلاء. ذلك أن «عملية الإعصار» Operation Cyclone التى نظمتها وكالة المخابرات المركزية C.I.A قد تم خلالها تدريب خمسة وثلاثين ألفًا من المتشددين الذين أصبحوا يشكلون طالبان والقاعدة. وكما ذكر جون كيلى فى كتابه ذى العنوان المحدد بشكل قاطع «الحرب غير المقدسة: أفغانستان وأمريكا والإرهاب الدولى» فإن حكومة رئيسة الوزراء مارجريت ثاتشر قد دعمت بكل الحماس حركة «الجهاد» الممولة أمريكيًا. وكان ضابط من المخابرات البريطانية «إم ـ ١٦» يتولى التنسيق من جانب كبير منها من مقره فى إسلام آباد، وقد أعطيت لأسامة بن لادن حرية التصرف المطلقة. وكان الثمن الذى تحمله دافع الضرائب الأمريكى هو أربعة بلايين دولار. وكان الواجب أن ينهض الصحفيون والأكاديميون بإبراز هذه الحقائق، ولكن هذا لم يحدث.

وفى ذروة قصف أفغانستان، وجهت صحيفة الأوبزرفر البريطانية الثناء إلى ناشرها ورئيس تحريرها العظيم دافيد استور، بمناسبة وفاته. وقالت الصحيفة فى معرض الثناء: إن استور بمعارضته للهجوم البريطانى على السويس عام ١٩٥٦ «ألقى باللائمة على الحكومة لارتكابها هذا العدوان، وباتخاذه لهذا الموقف حدد اتجاه الأوبزرفر كصحيفة حرة التفكير، لديها الاستعداد للسباحة عكس التيار الذى تمضى فيه المشاعر الشعبية» ولقد وصف استور العمل الذى قامت به الحكومة عندئذ بأنه

«مسعى لإعادة فرض استعمار القرن التاسع عشر بأكثر أشكاله فجاجة». لقد كتب عندئذ يقول: «يقال إن الأمم تتهيأ لها الحكومات التى تستحقها. دعونا نظهر أننا نستحق الأفضل». وعلقت الأوبزرفر بقولها: «إن ذلك الغنى فى اللغة، والتناغم فى المشاعر، مازال صداه يتردد إلى اليوم» وكادت هذه الكلمات تكون سيريالية، وبدت المفارقة صارخة. فقد كانت الأوبزرفر تقول هذا الكلام فى الوقت الذى كانت تؤيد فيه حكومة بلير فى أفغانستان.

وهذا الكتاب يواصل نفس التوجه الذى ظهر فى كتبى السابقة: الأبطال، والأصوات البعيدة، والأجندة الخفية، والذى يقارن بين الأعمال التى يقوم بها السياسيون فى الديمقراطيات الغربية وبين تلك التى يرتكبها الطغاة الإجراميون، وفيما يختص بالسبب والنتيجة، فإن الفارق الحاسم يتمثل فى تلك المسافة الفاصلة بين ارتكاب مذبحة وبين العمل لنشر تلك الدعاية الخبيثة التى تقول بأن الجريمة لا تعد جريمة إذا ما قمنا «نحن» بارتكابها. فليست جريمة أن يقتل أكثر من نصف مليون من المزارعين فى كمبوديا بإلقاء القنابل عليهم، بشكل سرى وغير قانونى، ليؤدى ذلك إلى ارتكاب جريمة إبادة جماعية آسيوية.

وليست جريمة أن يتسبب بيل كلينتون، وجورج بوش، وتونى بلير وأسلافه من المحافظين، فى إلحاق الوفاة فى العراق لعدد من الناس يزيد على عدد الذين قتلوا بواسطة جميع أسلحة الدمار الشامل فى التاريخ، وفقًا لما انتهت إليه دراسة أمريكية.

إن حصارهم الذى يكتسب طابع العصور الوسطى ضد اثنين وعشرين مليونًا، والذى يصل الآن إلى عامه الثانى عشر موضوع

الفصل المنشور بعنوان «دفع الثمن». والحقائق حول هذا الموضوع ليست موضع خلاف. وإن كانت نادرًا ما يتم نشرها. فهناك تقرير صادر من السكرتير العام للأمم المتحدة فى أكتوبر ٢٠٠١ يذكر أن الاعتراض من جانب الحكومتين الأمريكية والبريطانية على توريد مواد إنسانية بقيمة أربعة بلايين دولار هو السبب الرئيسى فيما يحدث فى العراق من معاناة مفرطة ومن وفيات. وصندوق الأمم المتحدة للطفولة «اليونسيف» يذكر أن كل شهر يشهد وفاة ما يصل إلى ستة آلاف طفل، يلقون حتفهم فى الأغلب نتيجة الحصار. ويبلغ ذلك العدد ضعف إجمالى حالات الوفيات التى وقعت فى برجى نيويورك، ويعيد إلى الأذهان بقوة التقييم المختلف للحياة وفقاً لاختلاف أصحابها: فضحايا برجى نيويورك هم من البشر، أما أطفال العراق فإنهم ليسوا بشراً.

ووقت كتابة هذه السطور، هناك احتمال قائم للهجوم على العراق من جانب الولايات المتحدة، ومن خلال استخدام قطاع من الصحافة الأمريكية والبريطانية لتكون «قنوات» لها، تمكنت المخابرات الأمريكية بنجاح من خلق ما كانت المخابرات الأمريكية C.I.A فى الهند الصينية تطلق عليه اسم «الوهم الأساسى» Master illusion، وهو فى هذه الحالة التهديد العراقى نتيجة امتلاك سلاح الدمار الشامل. وليس هناك برهان أو دليل قابل للتصديق على وجود مثل هذا التهديد الذى سبق أن أنكر وجوده سكوت ريتر، المفتش السابق على الأسلحة من جانب الأمم المتحدة.

ورغم ذلك كان «التهديد العراقى» يعد ركيزة محورية فى استراتيجية «الحرب الشاملة» التى تبنتها حكومة بوش عقب

الحادى عشر من سبتمبر. وتعليمات وزير الدفاع الأمريكى دونالد رامسفيلد إلى البنتاجون بـ «التفكير فيما لا يمكن أن يتطرق إليه الفكر» يمكن أن تدفع غير الأمريكيين، إلى أن يساورهم القلق من أن القوة العظمى الوحيدة فى العالم قد استولى على زمامها الأصوليون الذين يمكن أن يدفعهم للتعصب إلى ارتكاب مذبحة على نطاق يجعل من الطالبان بالنسبة لهم مجرد هواة.

إن «المجموعة النفطية» Oil Group فى واشنطن، والتى يقف على رأسها جورج بوش ونائبه ديك تشينى «جورج بوش الأب كما هو الحال مع تشينى وآخرين من أعضاء حكومته كانوا مستشارين فى مجموعة كارليلى التى تبدى المشورة لأسرة بن لادن»- هذه المجموعة النفطية يتزايد وقوعها تحت تأثير مجلس السياسة الدفاعية Defense policy Board (DPF)، والذى يعد هيئة شبه رسمية تتولى إبداء المشورة إلى رامسفيلد ونائبه بول ولفويتز. وهذه المجموعة المعروفة فى واشنطن باسم «عصبة ولفويتز» هى التى تشكل الاتجاه اليمينى المتطرف فى الحياة السياسية الأمريكية، وهى المسئولة عن إطلاق تلك الأفكار التى تقف وراء «الحرب ضد الإرهاب»، وخاصة فكرة الحرب «الشاملة».

وأحد «مفكرى» هذه المجموعة، وهو ريتشارد بيرلى، الذى كان أحد مخططى الحرب الباردة فى حكومة ريجان، قد عرض هذا التفسير: «ليس هناك مراحل. إن هذه هى حرب شاملة، نحن نحارب أعداء متنوعين، ويوجد هناك الكثيرون منهم. من الخطأ البالغ أن نمضى على نحو ما يقال الآن من أن علينا أن نذهب إلى أفغانستان أولاً، ثم نتصرف بعد ذلك مع العراق، وننظر حولنا

بعـدئذ لنرى كـيف تمضـى الأمـور.. إن مـا علينا أن نفـعله هو أن نخوض حربًا شاملة».

إن تعقب الجناة من مـرتكبى هجـوم الحـادى عشـر من سبتـمبـر لايكفى. إن «الإرهـاب» يتطلـب خوض حـرب لا نهـاية لها. وهـا قـد تم أخـيـراً وجـود بديل لـ«الـرعب الأحـمـر» يكون تبـريـراً لـذلك الـتوجـه الدائم للاستعداد للحـرب، والشعـور المستـمـر بالهلع، والعمل لإقامة الآلة الـعـسـكرية الأضـخـم منذ الـوجـود، وهـى البــرنامـج الوطنى للصـواريخ الدفـاعـيـة. إن هـذا البـرنامج، كـمـا يقـول قـائد سـلاح الفـضـاء الأمـريكى، سـوف يحـقق لأمـريكا «السيطرة المطلقـة بكل أطيافها» على مقدرات العالم.

وهـذا يعـنى الـسـيطـرة العـسكرية الكاملة، والـتى هـى أشـبـه فى أدبيـات البنتـاجـون بـالهيـمنة البـحـرية الأوروبيـة علـى نصـفـى الكرة الأرضـية الـشمـالى والشرقى فـى الـقرن الـتاسـع عشر. ولكن الأمر لا ينتـهى عند هـذا الحـد. فـهـذه الـكلمـات ذاتهـا تنطبق بالفـعل على مـجـالات أخـرى، وتتـجلى بوجـه خـاص فـى الـسيطرة علـى الحـيـاة الاقـتـصـادية، وفـى تشكيل، أو «الـتـحـريك الـداخلى» وفـقًـا لـتـعـبـيـر صحيفة نيويورك تايمز، للحكومات الأجنبية، وإعادة تعريف الاتجاه المخالف واعتباره من الأمور «ذات الارتباط بالأمن العالمى».

ولقـد تم الإفصـاح عن ذلك بشكل أكثر صـراحـة وفظاظة من ذى قبل، خاصـة من جانب مـجموعـة مختـارة من الكتاب فـى الصـحافة الأمـريكيـة. ففـى مـقـال بعنوان «الأحـادية هـى مفـتـاح نجـاحنـا» كتب تشارلز كراوتامر فى «الواشنطن بوست» يصف العالم فى الخمسين عـامًـا المقـبلة بأنه سـيكون عـالمـاً لا تتـوافـر له الحـمـاية من الهـجـوم

النووى أو التدمير البيئى لمواطنى أى قطر فيه، باستثناء الولايات المتحدة، عالم لا تغنى فيه «الديمقراطية» شيئًا إذا ما كانت فوائدها على تناقض مع «المصالح» الأمريكية، عالم يكون التعبير فيه عن توجه مناهض لهذه «المصالح» وصمة تسم الشخص بأنه إرهابى، وتبرر فرض الرقابة، وممارسة القهر، وارتكاب القتل. وكما لاحظ درو وايتورث فإن هذه المعتقدات لا تتميز عن تلك التى يعتنقها أسامة بن لادن والتى يجرى تنفيذها من جانب قلة من الرجال دون تفويض من أحد.

ونجد فى ذلك صدى لفكرة «ألفية الرايخ» وهى الفكرة التى تم الترويج لها لأول مرة بصياغة أمريكية فى الإعلان العدوانى الذى نشره هنرى لوسى عام ١٩٤١ فى مجلة «تايم» بعنوان «القرن الأمريكى». وفى الولايات المتحدة قام أكاديميون ذائعو الصيت مرة أخرى بنشر الأفكار التى تروج لها مجلة «ريدرز دايجست» عن الأوضاع فى العالم، وذلك على نحو ما فعل صامويل هنتنجتون فى كتابه «صراع الحضارات» وعلى نحو ما فعل مؤخرًا فيكتور دافيس هانسون فى كتابه: «لماذا انتصر الغرب» بما تضمنه من دعوة إلى «العسكرية المدنية» Civic militarism. وفى أى من هذه الدراسات التى أكدت فكرة التفوق «الثقافى» لا يوجد أى إقرار بأن الدوافع الإمبريالية للقرن الأمريكى قد دمرت أكثر الإنجازات الغربية عظمة، والقائمة على أساس من السياسات العلمانية التعددية، وسمحت بنشوء دوامة من الفوضى الناجمة عن العنف الأمريكى والمشاعر الدينية الثأرية، وذلك لملء الفجوات القائمة.

ويدعى هذا الكتاب أننا فى حاجة سريعة إلى الترياق الذى

نقضى به على أثر تلك الدعاية التى تجلب أخطارًا لا تقل عن تلك التى كانت تنجم عن الحرب الباردة. إننا فى حاجة إلى الوعى بذلك الأثر المميت لاستخدام المعايير المزدوجة، وأن القانون الدولى و«الجماعة الدولية» إنما هى حكر على من يمتلك القوة، وليست تعبيرًا عن الأغلبية. فالولايات المتحدة يمكن أن تشكل «ائتلافاً» لمهاجمة الدول، فى حين أن القرارات العديدة الصادرة من الجمعية العامة للأمم المتحدة، والداعية إلى تحقيق العدل فى فلسطين، لا تكاد تساوى قيمة الورق الذى كتبت عليه. ثم إننا فى حاجة إلى أن نعيد النظر فى الاستخدام العام لكلمة «نحن» واحتكارها من جانب القوة الأعظم. فإذا كان علينا «نحن» أن نحارب الإرهاب، فإن علينا «نحن» أن ندعوا الولايات المتحدة إلى التوقف عن ممارسة إرهابها فى الشرق الأوسط، وفى كولومبيا، وفى الأمكنة الأخرى من العالم. وعندئذ فقط يمكن لنا «نحن» أن نجعل العالم مكاناً أكثر سلامًا وأمنًا.

الفصل الأول

التلميذ النموذج

بالمائة مليون من سكانها، وبجزرها المتقوسة على امتداد ثلاثمائة ميل محتوية على أغنى مخزون من الموارد الطبيعية، فإن إندونيسيا هى الجائزة الكبرى فى جنوب شرق آسيا.

ريتشارد نيكسون ١٩٦٧

لدى الهبوط بالطائرة فى جاكرتا، لا يكون من الصعب أن نتخيل المدينة الممتدة أسفلنا كتجسيد لذلك الوصف الذى أطلقه البنك الدولى على إندونيسيا. «التلميذ النموذج للعولمة»، كانت الأخيرة من أكاليل الغار الكثيرة التى أضفاها عليها البنك. كان هذا منذ نحو أربع سنوات. وبعدها، وخلال أسابيع، كانت رؤوس الأموال العالمية قصيرة المدى قد هربت من البلد، وتهاوت سوق الأوراق المالية وقيمة العملة المحلية، ووصل عدد الأشخاص الذين أصبحوا يعيشون فى فقر مدقع إلى سبعين مليونًا. وفى العام التالى ١٩٩٨، أجبر الجنرال سوهارتو على التنحى، بعد ثلاثين عامًا من الحكم الدكتاتورى، وبعد أن استولى على ما يقدر بخمسة عشر بليون دولار كمكافأة تقاعد، وهو ما يعادل نحو ثلاثة عشر فى المائة من الديون الخارجية التى يعود معظمها إلى البنك الدولى.

ومن الجو، يبدو الطابع الصناعى للمدينة مثيرًا للانبهار، فالعاصمة جاكرتا تحوطها مجمعات واسعة، تتوافر لها الحماية، وحديثة نسبيًا، تعرف باسم مناطق تنمية الصادرات، أو EPZ اختصاراً لـ EXPORT PROCESSING ZONES وتضم هذه المجمعات

لمئات من المصانع التى تقوم بتصنيع منتجات الشركات الأجنبية: الملابس التى يشتريها الناس فى المحلات والمراكز التجارية فى بريطانيا وأمريكا الشمالية واستراليا، والأحذية الرياضية التى تحمل ماركات عالمية مثل نيكى، وأديداس، وريبوك، والتى يباع الزوج منها فى شارع اكسفورد بلندن بمبلغ يصل إلى مائة جنيه استرلينى.

وفى هذه المصانع يعمل الآلاف من العمال الذين يكسبون ما يعادل ٧٢ بنسًا، أو نحو دولار واحد فى اليوم. وهذا هو الحد الأدنى فى إندونيسيا، والذى يوفر، حسب ما تقول الحكومة، نصف تكاليف المعيشة، أى أنه الأجر الذى يكاد يسد الرمق، فالعمال فى مصانع نيكى يحصلون على نحو أربعة فى المائة من سعر التجزئة للحذاء الذى يقومون بتصنيعه، وهو مبلغ لا يكاد يكفى حتى لشراء رباط الحذاء. ورغم ذلك، فإن هؤلاء العمال يعتبرون أنفسهم محظوظين، ذلك أن لديهم وظائف، فـ «النجاح الاقتصادى الديناميكى المزدهر» «عبارة ثناء أخرى من البنك الدولى» قد ترك أكثر من ٣٦ مليونًا من الإندونيسيين يعانون البطالة.

وأثناء تصوير فيلمى الوثائقى «القادة الجدد للعالم» ومتظاهرًا بأننى تاجر للأزياء من لندن، أتيح لى القيام بجولة فى أحد هذه المصانع، حيث كان يتم تصنيع الثياب التى تحمل علامة «جاب» لتسويقها فى بريطانيا وأمريكا.

ووجدت هناك أكثر من ألف من العمال. أغلبهم من الفتيات، مكدسين معًا، تحت الأضواء المبهرة، وفى درجة حرارة تصل إلى الأربعين، وكانت أجهزة التكييف الوحيدة موجودة فى الطابق

الأعلى. حيث يوجد المشرفون التايوانيون. وما صدمنى كان ذلك الهلع الذى يسببه الوجود فى مكان مغلق، وذلك الانكباب المحموم على الإنتاج، والإرهاق والحزن الذى يخيم على المكان. كانت الوجوه صامتة، والعيون مرخية، والأطراف تتحرك بشكل آلى، لم يكن للنساء أى خيار بشأن الساعات التى ينبغى أن يعملن فيها، بما فى ذلك «الوردية الطويلة» ذات السمعة السيئة، والتى تمتد لست وثلاثين ساعة دون عودة إلى البيت. وكان التأكيد لى بأننى إذا رغبت فى إصدار أمر شراء عاجل التنفيذ، فإنه «لن تكون هناك مشكلة» ففى مثل هذه الحالة «نحن نطلب من العمال الاستمرار فى العمل لمدة أطول».

وقال لى العمال الذين التقيتهم بعد ذلك سرًا: «إذا كان مطلوبًا إنجاز طلبية من سراويل جاب، فلا يكون مسموحًا لنا بمغادرة المصنع. يكون علينا أن نمكث حتى يتم إنجاز المطلوب، أيًا كان الوقت المطلوب لذلك».

وإذا تمكنت من الذهاب إلى دورة المياه، فستكون محظوظًا، أما إذا رفض المشرف، فيكون عليك أن «تعملها فى سروالك» نحن نعامل كحيوانات؛ لأن علينا أن نكون فى العمل طوال الوقت دون أن نتفوه بكلمة».

قلت لهم: إن شركة جاب تتباهى بـ «مدونة السلوك» التى تحمى الحقوق «الأساسية» للعمال.

وكان ردهم: «نحن لم نر شيئًا من هذا، إن الأجانب من جاب يأتون إلى المصنع. ولكن كان كل ما يعنيهم هو السيطرة على جودة

النوعية، ومعدلات الإنتاج. إنهم لم يسألوا إطلاقًا عن أحوال العمال. إنهم لا يهتمون حتى بالنظر إلينا».

وعلى التصاق بالمصانع، مثل أنقاض عاصفة عاتية، تقبع معسكرات العمل التى يعيش فيها العمال. تجمعات مكدسة عبارة عن مهاجع «مبان مقسمة إلى غرف للنوم»، مبنية من نفايات الفحم، وألواح الصناديق الخشبية، ومغطاة بأسقف من الصاج المموج. وعلى غرار الغالبية من الجنس البشرى، يعيش هؤلاء الذين أفقدتهم العولمة إنسانيتهم، هؤلاء الذين لم يلمسوا أطايب الطعام التى يقدمها ماكدونالدز، ولم يستخدموا الإنترنت ولا الهاتف النقال، ولا تتوافر لهم القدرة على سد حاجتهم من البروتينات، ونادرًا ما يجرون اتصالاً هاتفيًا.. هؤلاء الذين لا تتوافر لهم مياه الشرب النقية، والذين تطفح عليهم المجارى المفتوحة بالمياه الآسنة، وخلف بيوتهم، تنبعث الروائح العطنة من القنوات التى حفرها المستعمرون السابقون، الهولنديون، نفس المحاولة المعهودة التى يغلب عليها الزهو والخيلاء، لنقل الأنماط الأوروبية إلى آسيا.

وكانت النتيجة هى كارثة بيئية حضرية تولد عنها انتشار البعوض، الذى يتسبب اليوم فى ظهور نوع من الحمى الفتاكة بين قاطنى المعسكرات العمالية، تعرف باسم «الحمى كاسرة الظهر». وعقب عدة زيارات قمت بها لهذه المناطق، كانت إصابتى بهذه الحمى، وخضعت لعلاج على مدى شهرين حتى تغلبت على هذه العدوى واستعدت عافيتى. أما بالنسبة للأطفال الصغار الذين يعيشون فى هذه المعسكرات، ويعانون نقص التغذية، فإن التعرض للإصابة بهذه الحمى يمكن أن يعنى الموت، ويعد ذلك من أمراض

العولمة، فلقد تعقب البعوض هؤلاء الذين هاجروا من الريف إلى المدن بحثًا عن العمل، وأقاموا فى تلك المعسكرات العمالية التى امتدت إلى جوار هذه القنوات. فلقد ترك الكثيرون قراهم إثر التوجه إلى زراعة المحاصيل النقدية، بناءً على نصيحة من البنك الدولى، الأمر الذى أدى بشكل متزايد إلى تقليص المساحة المزروعة بالمحاصيل الغذائية فى جانب كبير من إندونيسيا.

استطعت أن أمرق بصعوبة فى أحد الأزقة الفاصلة بين هذه المهاجع. كان أشبه بالفناء الخلفى لمغسلة، حيث كان مليئًا بالثياب المغسولة المنشورة على حبال بلاستيكية. كانت النظافة وأناقة الهندام اللذان يتميز بهما القاطنون لهذه الجحور أمرًا مثيرًا للدهشة. كانوا يشغلون غرفاً أشبه بالزنازين، لا تتوافر لها غالبًا نوافذ أو فتحات للتهوية، حيث يتوافق النوم وتناول الطعام فيها مع الإيقاع الصارم لنوبات العمل فى المصانع. وخلال فصل هبوب الرياح الموسمية، ترتفع مياه القنوات وتفيض، ويتم استخدام كميات أكبر من البلاستيك لحماية الممتلكات الثمينة، مثل المسجلات أو ملصقات فتيات التوابل «سبايس جيرلز» وتشى جيفارا. كنت أشبه بمن يخطو على طاسة قلى ساخنة، كان أطفال يتحلقون بشكل خطر حول نيران مشتعلة. شاهدت أسرة من خمسة أفراد يجلسون على بقعة صغيرة خضراء، يتطلعون غروب الشمس المختفية وراء غلالة من الضباب الأصفر الملوث. وعلى مقربة كانت تحل مجموعة من الخفافيش الصغيرة، وعلى البعد كانت تلوح هياكل ناطحات السحاب، التى أصبحت مهجورة. كانت لمحة غامضة تشكل مشهدًا لعالم «العولمة» ذلك العالم المجهول من جانب هؤلاء الذين لا يعرفون منه سوى جانبه الاستهلاكى.

كانت «مدونة السلوك» التى تقول شركة جاب - ومقرها فى سان فرانسيسكو - بأنها قد وزعتها على وكلائها تتضمن أن المهاجع بالعمال ينبغى أن تراعى فيها جميع القوانين والقواعد المتعلقة بالصحة والأمان، بما ذلك وسائل الحماية من الحريق، والوقاية الصحية، وكذلك الحماية من المخاطر، وتوفير وسائل الأمان من النواحى الكهربائية والميكانيكية والبنائية.. ولكن لأن هذه المهاجع العمالية ليست فى موقع المصانع ذاتها، فإن شركة جاب ووكلاءها ليسوا مسئولين عن مراعاة كل ذلك. وقد يتفكر المستهلكون فى الغرب فى عدم المسئولية هذه بينما هم يدفعون ثمن هذه الملابس العصرية التى قام بصنعها لهم أناس فى إمكانهم توفير المكان المناسب الذى يعيشون فيه بالأجور الضئيلة التى تدفع لهم.

وعلى بعد عشرة أميال من هذه المعسكرات، وعلى امتداد طريق تفرض الرسوم على عابريه، وتمتلكه ابنة سوهارتو «كان قد وزع مصادر الثروة فى البلاد بين أبنائه، كما اختص جنرالاته والمقربين منه بنصيب من ملكية البنوك والفنادق وقطاعات من الغابات» يقع المركز التجارى لمدينة جاكرتا. إن هذا - أو كان هذا - هو الوجه المقبول عالمياً للتلميذ المثالى.

فهناك توجد المراكز التسويقية «المولز» حيث تعرض المعاطف الجلدية «فيرساس» التى يبلغ ثمن الواحدة منها ألفى جنيه استرلينى، وتوجد معارض سيارات جاجوار، ومطاعم ماكدونالدز الفسيحة التى تغص بالأطفال السمان. ويعد فندق شانجرى - لا واحداً من أكثر الفنادق فخامة، وهناك تشهد أمسيات الآحاد من كل أسبوع أربع حفلات زفاف باهرة. ولقد شهدت واحداً من هذه

الحفلات والذى بلغت تكاليفه مائة وعشرون ألف دولار. لقد أقيم هذا الحفل فى قاعة الرقص الكبرى بالفندق، والتى تعتبر نسخة محلية من قاعة الرقص فى فندق وولدورف استوريا فى نيويورك، والتى تستكمل فخامتها بالشمعدانات والأقواس الذهبية.

كان الضيوف يرتدون أزياء أرمانى وفيرساس ويتقلدون المجوهرات الأصلية. ويلقون بالشيكات النقدية «النقوط» فى صندوق كبير. كان العروسان من أسرتين صينيتين ثريتين، على الرغم من أن اسميهما كانا جو وفرانسيسكا. «عندما استولى سوهارتو على السلطة، قام بحظر الأسماء والكتابات الصينية، حيث كان يبدو أنه يربط بين الصينيين وبين الشيوعية». كانت كعكة الزفاف من ثمانية طوابق، وحفر عليها بالماس الحرفان الأولان لاسمى العروسين. وكان ضمن المدعوين عدد من الأشخاص المقربين للطاغية المخلوع، كما كان حاضرًا أيضًا الممثل الرئيسى للبنك الدولى فى إندونيسيا، مارد بيرد، وهو من نيوزيلندا، والذى بدا عليه الاضطراب عندما سألته عما إذا كان مستمتعًا بالوقت الذى يمضيه هنا.

فما يؤكده البنك الدولى فى هذه الأيام هو أن مهمته فى إندونيسيا هى «الإقلال من الفقر» و«النهوض بمستوى الفقر». وكان البنك الدولى هو الذى قدم قرضًا بمبلغ ٨٦ مليون دولار، خصص لإقامة فندق شانجرى ـ لا، بدعوى أنه «سوف يسهم فى توفير وظائف منتظمة» ولكن عقب فترة قصيرة من حفل الزفاف الذى شهده بيرد، قام الفندق بفصل الغالبية من العمال بعد قيامهم بتنظيم إضراب احتجاجًا على انخفاض الأجور.

اللوحة المرسومة على الأفق لمركز جاكرتا التجارى كانت تشمل أبراجًا عالية، تشغل معظمها بنوك أصبح الكثير منها خاويًا، وأبراجًا أخرى لم يقدر لها أن تكتمل. فقبل عام ١٩٩٧ كان يوجد هنا عدد من البنوك يزيد على ما هو موجود فى أى مدينة أخرى على وجه الأرض، ولكن نصفها قد لحق به الإفلاس عندما تهاوى الاقتصاد «الديناميكى» تحت وطأة ما لحق به من فساد يتعذر تصديق المدى الذى وصل إليه.

فخلال السنوات الخمس والثلاثين من حكم سوهارتو الديكتاتورى، انهمر سيل من رأس المال «العالمى» على إندونيسيا. وقدم البنك الدولى أكثر من ثلاثين بليون دولار، وجه بعضها لتنفيذ برامج لها جدواها، مثل محو الأمية. ولكن أكثر من ستين مليون دولار قد وجهت إلى تنفيذ برنامج إعادة التوطين السيئ السمعة الذى استهدف إحكام سيطرة النظام على جزر الأرخبيل. فقد أرسل مهاجرون من كل أنحاء أندونيسيا إلى تيمور الشرقية، حيث سرعان ما قاموا بالسيطرة على اقتصادها، وفى عام ٢٠٠١ كانت المذبحة التى جرت فى كاليمانتان «بورنيو» ضد سكان جزيرة ماديورا الذين تم جلبهم بدعوى «تنمية» الإقليم، وفقًا لمشروع تبناه البنك الدولى. وفى أغسطس ١٩٩٧، كشف تقرير سرى داخلى للبنك الدولى، كتب فى جاكرتا، عن الفضيحة العظمى فى تاريخ «التنمية» حيث تضمن أن «مالا يقل عن نسبة تتراوح بين عشرين وثلاثين فى المائة من قروض البنك قد حولت من خلال الدفع بطرق غير رسمية إلى أعضاء الحكومة الإندونيسية والسياسيين».

وخلال فترة حكمه الدكتاتورى، لم يكن يمضى يوم دون أن يتلقى

الجنرال سوهارتو التهانى من أحد الساسة الغربيين على ما حققه من «استقرار» لخامس الدول من حيث التعداد السكانى فى العالم، وكان الساسة البريطانيون بوجه خاص هم الأكثر تقديرًا له، ابتداء من هارولد ويلسون وزير الخارجية، حتى ميشيل ستيوارت الذى كال المديح فى عام ١٩٦٦ لـ «السياسة الاقتصادية الرشيدة» للدكتاتور، وقال إن نظامه «ليس عدوانيًا»، أما مارجريت تاتشر فقد وصفت سوهارتو بأنه «واحد من أفضل أصدقائنا وأكثرهم جدارة».

وأشاد دوجلاس هيرد، وزير الخارجية فى حكومة جون ميجر، بمراعاة النظام لـ «القيم الآسيوية» «وهو التعبير الثقافى الذى يعنى فى حقيقته الافتقار إلى الديمقراطية والتعدى على حقوق الإنسان». وفى ١٩٩٧ كانت الرحلة الأولى لوزير الخارجية روبن كوك تشمل إندونيسيا، وهناك كانت مصافحته لسوهارتو بحرارة بالغة، ووصلت حرارة المصافحة إلى درجة أن الصورة التى التقطت لهما تم اختيارها، وهنا الغرابة، لتكون على صدر التقرير الذى تصدره وزارة الخارجية حول حقوق الإنسان فى العالم.

وكان الاستراليون أكثر تملقًا، انطلاقًا من مخاوفهم المركبة من جارهم الآسيوى، عن تخوف من انقضاضه عليهم ولو بقوة الجاذبية. كان رئيس الوزراء الاسترالى بوب هاوكى هو الذى امتدح سوهارتو قائلاً له: «نحن نعلم أن شعبك يكن لك الحب» أما خلفه، بول كيتنج، الذى ذكرت الصحف الاسترالية أنه يعتبر سوهارتو بمثابة الوالد، فإنه قد كال المديح للطاغية لنجاحه فى إقامة «مجتمع متسامح» وقيامه بإرساء «الاِستقرار» فى المنطقة. وفى ١٩٩٦ أعلن نائب رئيس الوزراء، تيم فيشر، أنه إذا أرادت المجلات

أن تقوم باختيار رجل العالم فى النصف الثانى من هذا القرن كان عليها ألا تتطلع إلى ما هو أبعد من جاكرتا.

وكان الجميع يعرفون، بطبيعة الحال، أن التقارير التى أصدرتها منظمة العفو الدولية «أمنستى» حول السجل المريع لسوهارتو فى مجال انتهاك حقوق الإنسان تكاد تملأ غرفة كاملة. كان روبن كوك على علم بالاستقصاء الموسع الذى أجرته لجنة الشئون الخارجية بالبرلمان الاسترالى والذى انتهى إلى أن قوات سوهارتو قد تسببت فى وفاة مالا يقل عن مائتى ألف من سكان تيمور الشرقية، أو ما يعادل ثلث عدد السكان.

وفى العام الأول لحكم حزب العمال الجديد، كانت بريطانيا هى أكبر مورد للسلاح إلى إندونيسيا، حيث كانت موافقة بلير على إبرام إحدى عشرة صفقة للسلاح مع إندونيسيا تحت غطاء «قانون الأسرار الرسمية» وإعلان كوك عن البعد «الأخلاقى» للسياسة الخارجية.

وكان هناك منطق معين لتبرير ذلك: فتجارة السلاح هى واحدة من النجاحات التى حققتها العولمة، وإندونيسيا باعتبارها «التلميذ المثالى» قد لعبت دورًا حيويًا.

وعندما سيطر اتجاه «الاقتصاد الكونى» «أى الرأسمالية غير المقيدة» على بريطانيا فى أوائل الثمانينيات أخذت مارجريت تاتشر فى تفكيك الكثير من الصناعات، فى الوقت الذى أبقت فيه على صناعة السلاح البريطانية لتكون الثانية من حيث التفوق بعد الولايات المتحدة. وقد تم تحقيق ذلك تحت غطاء من الدعم المغطى الذى يأخذ الشكل الروتينى المتبع لدعم وتحفيز «السوق الحرة».

فما يقارب نصف جميع المبالغ المخصصة للبحوث والتطوير توجه إلى مجال «الدفاع» كما تقوم وزارة التجارة والصناعة بتقديم عروض ميسرة لنظم العالم الثالث لتمكينها من شراء ما تطلبه من أسلحة متقدمة. ولم يكن يحول دون ذلك أن يكون للكثير من هذه الأنظمة سجلات مرعبة فى التعدى على حقوق الإنسان، أو كونها غارقة فى صراعات أهلية، أو على حافة خوض حرب مع جيرانها «الهند، وباكستان، وإيران، والعراق، وإسرائيل» وكانت إندونيسيا هى المستفيد الأكبر من مثل هذه التسهيلات، فخلال فترة اثنى عشر شهرًا كانت إدارة الضمانات الائتمانية التصديرية فى وزارة التجارة والصناعة قد وفرت لإندونيسيا تسهيلات للحصول على نحو بليون دولار لتمويل شراء المقاتلات - القاصفة من طراز هوك. وقد تم ذلك بدون علم من جانب دافع الضرائب البريطانى، ولكن صناعة السلاح هى التى جنت الأرباح، واستخدمت طائرات الهوك فى قصف القرى والجبال فى تيمور الشرقية.

●●●

قدت السيارة مخترقًا منطقة كراونج فى جاوه، حيث التقيت مزارعًا للأرز يدعى ساركوم. ومن الإنصاف أن نصف ساركوم بأنه تجسيد للثمانين فى المائة من البشر الذين يعتمدون على الزراعة لكسب عيشهم. وهو ليس من الفئة الأكثر فقرًا، فهو يعيش مع زوجته وبناته الثلاث فى بيت صغير، جدرانه من البامبو، وأرضيته مغطاة بالقرميد. ويقابلك داخل البيت سرير من البامبو، وكرسى، ومنضدة تستخدمها زوجته، كيوكاك، فى أعمال الخياطة، كوسيلة لزيادة الدخل.

فى العام الماضى، قدم صندوق النقد الدولى لحكومة ما بعد سوهارتو صفقة إنقاذ تمثلت فى عدة ملايين من الدولارات على شكل قروض. وتضمنت شروط هذه الصفقة إلغاء الرسوم الجمركية التى كانت مفروضة على المستودر من المواد الغذائية الأساسية. ونص خطاب النبات الصادر عن صندوق النقد الدولى على أن تكون «التجارة فى كل أنواع الأرز مفتوحة لعامة المستوردين والمصدرين»، أما الأسمدة المخصبة ومبيدان الآفات الزراعية فقد خسرت نسبة السبعين فى المائة التى كانت تقدم كدعم لخفض ثمنها.

وكان هذا يعنى أن يتعرض المزارعون مثل ساركوم للإفلاس، وأن يضطر أبناؤهم إلى هجرة القرى إلى المدن بحثًا عن عمل، وزيادة على ذلك، فإنها تعطى الضوء الأخضر لشركات المواد الغذائية الأمريكية العملاقة للتقدم إلى داخل إندونيسيا. والمعايير المزدوجة المتمثلة فى هذه الشروط تخنق وطأتها الأنفاس. فالأعمال التجارية الزراعية فى الغرب، خاصة فى الولايات المتحدة وأوروبا لم تحقق فوائضها التى ذاع صيتها، كما لم تحقق قوتها التصديرية إلا نتيجة فرض الرسوم الجمركية العالية على الواردات المماثلة، ومنح الدعومات المالية الداخلية الهائلة لها. وكانت النتيجة هى الوصول إلى احتكار المواد الغذائية الأساسية التى يقتات بها البشر.

يتباهى كبير المسئولين التنفيذيين فى شركة كارجيل، التى تسيطر على تجارة العالم فى مجال الحبوب الغذائية، عندما ننهض من مائدة الإفطار كل صباح، فإن أغلب ما تناولناه، من حبوب أو خبز أو قهوة أو سكر، وما إلى ذلك، قد مر عبر أيدى شركتنا.

والهدف الذى تسعى كارجيل إلى تحقيقه هو مضاعفة حجم أعمالها كل خمس أو سبع سنوات. وهذا هو ما يعرف باسم «التجارة الحرة».

«لقد أمضيت فى السجن أربعة عشر عامًا لكى أحول دون حدوث ذلك» كان هذا ما قاله ساركوم، ليواصل قائلاً: «إن جميع أصدقائى الذى نجوا من القتل قد دخلوا السجن، وكان هدفنا هو الحيلولة دون السيطرة علينا من جانب النفوذ المالى الضخم. ولا يعنينى ما يطلقونه الآن على تلك القوة المسيطرة - عولمة أو غيرها. إنها نفس القوة. إنه نفس التهديد الذى تتعرض له حياتنا».

وهذه الملاحظات التى أبداها ساركوم تفتح فصلاً فى تاريخ إندونيسيا المعاصر، يفضل الساسة ورجال الأعمال الغربيون أن يتناسوه، رغم أنهم كانوا بين المستفيدين الرئيسيين منه. كان ساركوم واحدًا من عشرات الآلاف الذين زج بهم فى السجون، عندما قام الجنرال سوهارتو، ذلك الانتهازى، بالاستيلاء على السلطة فى إندونيسيا خلال ٦٥ - ١٩٦٦ «عام الحياة فى مواجهة الخطر»، والذى انتهى بإقصاء الرئيس الوطنى أحمد سوكارنو، الذى تولى قيادة إندونيسيا منذ انتهاء الحكم الاستعمارى الهولندى. وتقدر أعداد هؤلاء الذين راحوا ضحايا للمذبحة المنظمة، التى وجهت أساسًا إلى أعضاء الحزب الشيوعى الإندونيسى PKI بين خمسمائة ألف وأكثر من مليون شخص.

كان ساركوم فى التاسعة عشرة من عمره عندما تم اقتياده إلى السجن. وهو يحاول أن يسجل فى كراسات مدرسية ذكرياته عن مشاهد الرعب التى مر بها. لقد عاش سنوات طويلة فى جزيرة

بورو، التى زج فيها بالآلاف من المسجونين، حيث لم يكن هناك فى البداية أى مأوى أو طعام أو شراب. وفى اليوم الذى قدمت فيه لرؤيته، كان قد جمع لى جماعة من أصدقائه لمقابلتهم: كانوا رجالاً تتراوح أعمارهم بين الستين والسبعين، من التابولز Tapols أو المساجين السياسيين الذين أطلق سراحهم عقب سقوط سوهارتو. كان اثنان منهم معلمين، والثالث موظفاً مدنياً، والآخر كان عضواً فى البرلمان. كان واحد منهم قد سجن لأنه رفض التصويت لصالح حزب سوهارتو «جولكار»، وكان البعض ينتمى إلى الحزب الشيوعى. قال لى المعلم أدون سوتريسنا: «إننا الشعب، الأمة، التى نسيها العالم، إنك إذا عرفت حقيقة ما حدث فى إندونيسيا. لكان فى إمكانك أن تدرك بوضوح إلى أين يقودون العالم فى يومنا الراهن».

وعلى بعد أميال قليلة من مزرعة ساركوم، هناك تلة من الأرض تنمو عليها أزهار الخردل، وتخلو من أى علامات، إنها مقبرة جماعية. فبعد خمسة وثلاثين عاماً من أعمال القتل، فإن أسر الضحايا، الذين يعتقد أنهم يعدون بالعشرات مازال الخوف يتملكهم، لدرجة أنهم لا يجرون على وضع شواهد على القبور. ورغم ذلك، ففى حقبة ما بعد سوهارتو، استطاع الكثير من الإندونيسيين أن يقهروا ذلك الخوف الذى حطم جيلاً بأكمله، وعلى امتداد البلاد، بدأت الأسر فى التنقيب عن بقايا أحبائهم المدفونة فى باطن الأرض، والذين غالباً ما تلوح أشباحهم فى أثناء الليل. وهناك من يزعم أنه يلمحهم أحياناً على أطراف حقول الأرز أو على شواطئ الأنهار. ومازال الشهود المسنون يتذكرون كيف

امتلأت الأنهار بالجثث التى تراكمت فيها مثل الكتل الخشبية، فمن قرية إلى أخرى كان الشبان يذبحون بلا سبب، ويستدل على مصرعهم بتلك الصفوف من أعضاء ذكورتهم المجتثة من أجسادهم.

لى صديق فى جاكرتا اسمه روى، وهناك من يدعونه دانييل. وهذان هما اثنان من الأسماء المستعارة الكثيرة التى انتحلها، والتى ساعدته على البقاء حياً. منذ ١٩٦٥ وهو ينتمى إلى جماعة من الثوار الذين اختفوا تحت الأرض خلال سنوات القهر الطويلة من حكم سوهارتو، تلك السنوات التى كان البنك الدولى يتولى فيها تلقين الدروس لـ «التلميذ المثالى»، وإن كان هؤلاء الثوار يبرزون فى الأوقات الحرجة ليقودوا طلائع حركة معارضة سرية ضد النظام. وقد قبض عليه وعذب لمرات عديدة.

يقول لى: لقد قدر لى البقاء لأنهم لم يستطيعوا إطلاقاً الكشف عن هويتى. فى إحدى المرات، صاح الشخص الذى كان يقوم بتعذيبى، وهو يُصر على أسنانه: «أخبرنا عن المكان الذى يوجد فيه دانييل!» وفى عام ١٩٩٨، كان له دوره فى نزول الطلبة إلى الشوارع، والذين كان لمواجهتهم الشجاعة للآلة العسكرية «المزودة بناقلات بريطانية لمكافحة الشغب» الدور الحاسم فى سقوط حكم الطاغية.

وقادنى روى إلى مدرسته الابتدائية، والتى بدأ فيها، بالنسبة له، كابوس حكم سوهارتو. لقد جلس فى صف دراسى خال، وأخذ يستعيد ذكرى ذلك اليوم من أكتوبر ١٩٦٥، عندما شاهد عصابة تقتحم المدرسة، وتقود ناظرها إلى الفناء، وتأخذ فى ضربه إلى أن لفظ أنفاسه. يقول روى: لقد كان رجلاً رائعاً: مهذباً وطيباً. كان يغنى لفصلنا، وكان يقرأ لى. لقد كان الشخص الذى كنت، كصبى،

أتطلع إلى أن أكون. إن صرخاته الآن تدوى فى أذنى، ولكننى ظللت لفترة طويلة، سنوات فى الواقع، وكل ما أتذكره هو خروجى هارباً من المدرسة، حيث ظللت أجرى وأجرى فى الشوارع. وعندما وجدونى فى المساء، كنت قد أصبت بالبكم. وعلى مدى عام كامل ظللت عاجزاً عن الكلام.

كان هناك شك فى أن ناظر المدرسة شيوعى. وكان مصرعه نموذجاً نمطياً للطريقة التى تم بها قتل عشرات الآلاف من المعلمين والطلبة والموظفين المدنيين والمزارعين. يقول تقرير لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، إنه قياساً على عدد القتلى، فإن المذابح التى وقعت تعد واحدة من أسوأ أحداث القتل الجماعى فى القرن العشرين. وكتب المؤرخ جابرييل كوكلو يقول: إن «الحل النهائى» للمشكلة الشيوعية «فى إندونيسيا تصل إلى مصاف الجرائم التى ارتكبها النازى».

ووفقاً لما ذكره بيتر دالى سكوت، المتخصص فى الشئون الآسيوية، فإن الساسة الغربيين، والدبلوماسيين، والصحفيين، والأكاديميين ممن لهم ارتباطات مميزة مع المخابرات المركزية الأمريكية C.I.A ربما كانوا المسئولون الأساسيون عن الخرافة القائلة بأن سوهارتو وآلته العسكرية هم الذين أنقذوا شرف الدولة من محاولة الانقلاب من جانب الحزب الشيوعى الإندونيسى Pki؛ حيث إن المذبحة التى تعرض لها قد قوبلت بالنفور التلقائى من جانب الشعب.

لقد اعتمد سوكارنو على الشيوعيين ليوازن بهم الجيش الذى كان، بحكم تدريبه على يد اليابانيين خلال الحرب العالمية الثانية،

يركن إلى الاعتقاد الذى صنعه لنفسه بأنه هو الحامى للأمة.
وعندما لقى ستة من الجنرالات العسكريين مصرعهم فى ٣٠ سبتمبر ١٩٦٥ ألقى سوهارتو باللوم على عاتق الحزب الشيوعى الإندونيسى، وكان هذا الادعاء هو الذى ساد الحملة الدعائية لنظامه، وكان أساساً للتقارير الوهمية، التى راجت فى الغرب، ومن بينها الرواية الشائعة «عام الحياة الخطرة» التى كتبها كريستوفر كوخ، والتى تصور الحزب الشيوعى الإندونيسى بأنه العدو الداخلى الذى «يسحق الأحلام القديمة التى تعد بمثابة الشريان الروحى للدولة».

والتعليق الذى كتبه أكاديمى استرالى بارز، وهو هينز أرندت، لم يكن استثناء. كتب يقول: «إن حكومة سوهارتو حريصة بكل الصدق والمثابرة على ألا تبدو كحكومة غير ديمقراطية وعسكرية ودكتاتورية: إنها حريصة على أن تعلم وتقنع، لا أن تتعامل بقسوة وخشونة مع أى شخص. وليس هناك ما يعيب فى أن إندونيسيا الآن تتوافر لها قيادة أكثر اعتدالاً بكثير، وأكثر تعقلاً، وأكثر براجماتية، من القيادة التى كانت قائمة لسنوات طويلة..».

وكما يشير سكوت بيرتشل، فإننا إذا أخذنا فى الاعتبار عدد المؤرخين الذين تناولوا هذا الموضوع. فسنجد أن هذا التناول التقليدى منتشر بين غالبيتهم بشكل ملحوظ. ويقتطف برتشل مقولة جريج شريدان. محرر الشئون الخارجية فى صحيفة «الاسترالى» والذى ظل إلى وقت متأخر فى عام ١٩٩٨ يمنح صك الغفران لسوهارتو، ويصفه بأنه «يبدو وحشاً فى مخيلة اليساريين».

وكانت صحيفة «الاسترالى» التى يمتلكها روبرت مردوخ، وهى

الوحيدة التى يجرى توزيعها على المستوى الوطنى، تقوم بدور مهم فى الترويج للدكتاتور الإندونيسى. وكثيراً ما قام شريدان بمهاجمة هؤلاء الذين يشيرون إلى تواطؤ سوهارتو مع ما يجرى من تعديات على حقوق الإنسان. وكانت أهداف هجماته تشمل لجنة الشئون الخارجية فى البرلمان الاسترالى، بسبب توصلها إلى أن مائتى ألف شخص على الأقل قد لقوا حتفهم فى تيمور الشرقية تحت وطأة الاحتلال العسكرى لنظام سوهارتو. وقد أبدى السخرية من الذين أدلوا بشهادتهم عن هذه المجازر. وكتب يقول: «الحقيقة هى أنه حتى الضحايا الحقيقيون غالباً ما يختلقون القصص».

وفى ذروة القهر الذى تعرضت له تيمور الشرقية كتب مراسل «الاسترالى» فى جاكرتا، باتريك وولترز، يقول بأنه «لم يتعرض أحد للاعتقال بدون اتخاذ الإجراءات القانونية السليمة» وعلى أى حال فلقد تم التأكيد له من جانب الحاكم الألعوبة بأن الموقف فيما يختص بحقوق الإنسان يعتبر جيداً جداً فى الوقت الراهن، أما رئيس التحرير، بول كيلى، فقد كان عضواً فى مجلس إدارة المؤسسة الاسترالية- الإندونيسية، وهى هيئة أنشأتها الحكومة الاسترالية لتنمية «المصالح المشتركة» بين كلا البلدين. وفى ١٩٩٤ كان كيلى فى جاكرتا إلى جانب سوهارتو، يقدم السفاح إلى عدد محترم من الصحفيين الاستراليين «لا يوجد هناك بديل لسوهارتو».. كان هذا ما صرح به كيلى قبل وقت قصير من الإطاحة نهائياً بالطاغية، لينتهى بذلك عهد ظلت صحيفته خلاله مستمرة فى وصف الطاغية بأنه «معتدل».

ومنذ سقوط سوهارتو، تجمع حشد من الأدلة الذى يكشف عن

مدى الاختلاق فيما قيل عن «النظام المعتدل» وعن «المذبحة الشيوعية» عام ٦٥ - ١٩٦٦ فالشهود الذين تحدثوا لأول مرة، والوثائق التى تم الكشف عنها، قد أوضحت بكل جلاء أن سوهارتو، الذى كان يتولى القيادة العسكرية فى جاكرتا، قد استغل فرصة نشوب صراع داخلى لكى يستولى على السلطة. فلو كان ما جرى «انقلاباً شيوعياً» لكان أمراً فريداً من نوعه: فلم يكن هناك شيوعى واحد من بين الضباط الذين وجه إليهم الاتهام بالتآمر! وليس هناك الآن سوى القليل من الشك فى أن سوهارتو والمتآمرين معه كانوا هم الذين أشعلوا فتيل المذبحة التى جرت لاحقاً، وأن أعضاء الحزب الشيوعى وكل من زج بهم فى هذه الأحداث كانوا هم الضحايا.

والأمر الذى يعد محل شك هو التواطؤ فى هذه الأحداث من جانب الحكومات الغربية، إضافة إلى الدور اللاحق الذى قامت به الجهات التجارية الغربية الضخمة. ويمكن القول فى واقع الأمر بأن جنين العولمة فى آسيا قد بدأ حياته فى رحم حمام الدم الإندونيسى.

بالنسبة للبريطانيين، كان هدفهم المباشر هو الحفاظ على مصالحهم المتبقية خلال فترة ما بعد الاحتلال فى ماليزيا، والتى كانت تتهددها «المواجهة» مع سوكارنو «المتقلب». فقد كان سوكارنو يهاجم إنشاء الاتحاد الماليزى فى ١٩٦٣ «ليضم ماليزيا وسنغافورة» ويقول بأنه يشكل «مؤامرة استعمارية - جديدة» لتدعيم المصالح التجارية البريطانية القائمة. وتكشف ملفات وزارة الخارجية البريطانية التى تم رفع الحظر عنها، عن أن الحق كان إلى جانب

سوكارنو، فهناك وثيقة صادرة فى ١٩٦٤ تدعو إلى «الدفاع» عن المصالح الغربية فى منطقة جنوب شرق آسيا، باعتبارها «المنتجة الأهم للعديد من السلع الأساسية. فالمنطقة تنتج نحو خمسة وأربعين فى المائة من القصدير، وخمسة وستين فى المائة من جوز الهند المجفف «الكوبرا» وثلاثة وعشرين فى المائة من خام الكروم وزيادة على ذلك، ووفقاً لمذكرة لوكالة المخابرات الأمريكية «سى.آى.إيه» فقد جرى، قبل ذلك بعامين، الاتفاق بين رئيس الوزراء البريطانى هارولد ماكميلان والرئيس الأمريكى جون كيندى على تصفية الرئيس سوكارنو. وفقاً لما يسمح به الموقف «الفرص المتاحة».

ويقول المؤلف المنتسب إلى الوكالة: «ليس من الواضح بالنسبة لى ما إذا كان القتل أو الإقصاء هو المقصود من كلمة التصفية».

كان سوكارنو شخصية تحظى بالشعبية، وهو مؤسس إندونيسيا الحديثة، كما شارك فى تأسيس حركة عدم الانحياز فى الدول النامية، والتى كان يأمل أن تشق لنفسها «الطريق الثالث» الأصيل بين مجالى نفوذ القوتين الأعظم. وفى عام ١٩٥٥ عقد سوكارنو المؤتمر الآسيوى - الإفريقى فى مدينة باندونج الواقعة على ربوة مرتفعة بجزيرة جاوة. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يلتقى فيها قادة العالم النامى، الذى يضم الغالبية من البشر، ليحددوا المصالح المشتركة فيما بينهم، وهو الأمر الذى أثار انزعاج القوى الغربية، خاصة أن الرؤية الخاصة بعدم الانحياز، وما تنطوى عليه من مثالية يمكن أن تؤدى إلى تعبئة قوة جماهيرية ماثلة يمكن أن تشكل تحدياً خطيراً للاستعمار الجديد «الكولونيالية الجديدة». والآمال

التى انطوى عليها هذا الاجتماع غير المسبوق يمكن أن نلمحها من خلال اللوحات الباهتة، والصور بالأبيض والأسود المعلقة فى متحف باندونج، وفى مدخل فندق سافورى الفخم الذى عقد فيه الاجتماع، الذى تم خلاله الإعلان عن هذه المبادئ:

١ـ احترام الحقوق الأساسية للإنسان، والمبادئ التى تضمنها ميثاق الأمم المتحدة.

٢ـ احترام سيادة وسلامة الأراضى لجميع الدول.

٣ـ الإقرار بالمساواة بين جميع شعوب العالم.

٤ـ فض المنازعات القائمة بالطرق السلمية.

ويمكن أن يكون سوكارنو ديمقراطياً ومثيراً للمشاعر «ديماجوجيًا»، ولفترة من الوقت، كانت إندونيسيا ديمقراطية برلمانية، ثم تحولت إلى ما أطلق عليه «ديمقراطية موجهة» ولقد قام بتشجيع الاتحادات النقابية التى ضمت جموع العمال والمزارعين، كما شجع الحركات النسوية والثقافية. وبين عامى ١٩٥٩ و١٩٦٥ انضم أكثر من خمسة عشر مليون شخص إلى الأحزاب السياسية، أو إلى المنظمات الجماهيرية التابعة لها، والتى تم تشجيعها على تحدى النفوذ البريطانى والأمريكى فى المنطقة. وبملايينه الثلاثة من الأعضاء، كان الحزب الشيوعى الإندونيسى هو الحزب الشيوعى الأكبر فى العالم خارج نطاق الاتحاد السوفيتى والصين. ووفقاً لما يقول المؤرخ الاسترالى هارولد كراوسن: «استطاع الحزب الشيوعي الإندونيسى أن يكسب تأييداً واسعاً، ليس باعتباره حزباً ثورياً، وإنما باعتباره تنظيماً يدافع عن مصالح الفقراء فى إطار

النظام القائم». وكانت هذه الشعبية هى التى أثارت الانزعاج لدى الأمريكيين، أكثر مما أثارتها أية انتفاضة مسلحة. فعلى غرار فيتنام فى الشمال، كان يمكن لإندونيسيا أن تتحول إلى الشيوعية.

وفى عام ١٩٩٠ كشفت الصحيفة الأمريكية المحققة كاثى كادين عن مدى التواطؤ السرى الأمريكى فى مذابح ٦٥ ـ ١٩٦٦ والتى تمكن سوهارتو من خلالها أن يستولى على السلطة. فبعد سلسلة من اللقاءات مع مسئولين أمريكيين سابقين، كتبت: «لقد قاموا بشكل منظم بتجميع قوائم شاملة بأسماء النشطين الشيوعيين. وقد قام الأمريكيون بتزويد الجيش الإندونيسى بما يصل إلى خمسة آلاف من أسماء هؤلاء، وقد قاموا بعد ذلك بشطب أسماء الذين تم قتلهم أو الزج بهم فى السجون. كان روبرت ماركنز الذى كان مسئولاً سياسياً فى القارة الأمريكية بجاكرتا أحد هؤلاء الذين أجريت مقابلات معهم. يقول: «لقد كانت هذه مساعدة كبيرة للجيش، ومن المحتمل أنهم قد قاموا بقتل عدد كبير من الناس، وربما تلطخت يداى بقدر كبير من الدماء، ولكن الأمر ليس سيئاً تماماً. هناك أوقات يتحتم عليك فيها أن تضرب بقوة فى اللحظة الحاسمة.

جوزيف لازار سكاى، نائب الرئيس المقيم لفرع المخابرات المركزية الأمريكية فى جاكرتا يؤكد أن التأكيدات الخاصة بعمليات القتل كانت تأتى مباشرة من مقر قيادة سوهارتو. يقول: «كنا نتلقى معلومات كاملة فى جاكرتا عن الذين تم القبض عليهم. كان لدى الجيش «قائمة بهؤلاء الذين سنطلق عليهم النار» تضم ما يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف شخص. ولم يكن يتوافر لديهم

الطرق اللازمة للقضاء عليهم جميعاً، كما أن بعض الأشخاص كان لهم أهميتهم بالنسبة للتحقيقات، إن القاعدة الأساسية «للحزب الشيوعى الإندونيسى» قد تم الفتك بها فى الحال. وكنا على علم بما يفعلون. أبلغنا سوهارتو ومستشاريه بأننا إذا أردنا الإبقاء عليهم أحياء، فإن علينا أن نتولى إطعامهم.

وحيث كانت واشنطن قد قامت فعلاً بتسليح وتزويد معظم الجيش بالمعدات، فإنها قد زودت قوات سوهارتو سراً بشبكة من الاتصالات الميدانية فى الوقت الذى كانت تجرى فيه عمليات القتل، وقد تم نقل هذه المعدات المتقدمة بواسطة طائرات السلاح الجوى الأمريكى المتمركزة فى الفلبين، وكانت الترددات العالية لهذه الشبكة تصل إلى وكالة المخابرات المركزية وإلى مجلس الأمن القومى الذى يقدم النصح للرئيس جونسون. ولم يكن ذلك ليسمح لجنرالات سوهارتو بتنسيق عمليات القتل فحسب، بل كان يتيح أيضاً للمراتب العليا فى الإدارة الأمريكية القدرة على التنصت، كما كان يمكن سوهارتو من إحكام إغلاق منافذ مناطق واسعة من الدولة، ورغم وجود فيلم أرشيفى عن حشد الناس فى شاحنات وسوقهم بعيداً، فإن هناك صورة واحدة مهتزة لإحدى المذابح، والتى تعد، حسب علمى، هى التسجيل المصور الوحيد لجريمة الإبادة الجماعية التى شهدتها آسيا.

كان السفير الأمريكى فى جاكرتا هو مارشال جرين، الذى كان معروفاً فى وزارة الخارجية الأمريكية بأنه «سيد الانقلابات» Coup master. وكان جرين قد وصل إلى جاكرتا قبل شهور فقط من هذه الأحداث، تصحبه سمعته بأنه كان العقل المدبر للإطاحة بالزعيم

الكورى سينجمان زى الذى كان الأمريكيون وراء إزاحته من السلطة. وعندما كانت عمليات القتل تجرى فى إندونيسيا، قامت السفارة الأمريكية بتوزيع كتيبات حول التنظيم الطلابى مكتوبة بالكورية والإنجليزية، على جبهة العمل الطلابى الإندونيسى KAMI التى كان قادتها يحظون برعاية وكالة المخابرات المركزية الأمريكية C.I.A.

وفى الخامس من أكتوبر ١٩٦٥، أبرق جرين إلى واشنطن حول الطريقة التى يمكن بها للولايات المتحدة «أن تشكل تطورات الأحداث لصالحنا».

وكانت الخطة تستند إلى تشويه سمعة الحزب الشيوعى الإندونيسى و«الحامى» له سوكارنو. فالحملة الدعائية ينبغى لها أن تستند إلى نشر قصة إجرام الحزب الشيوعى الإندونيسى وخيانته ووحشيته، وفى ذروة حمام الدم الذى شهدته إندونيسيا، كان تأكيد جرين للجنرال سوهارتو: «إن الولايات المتحدة تتعاطف بوجه عام مع ما يفعله الجيش، وتشعر بالإعجاب تجاهه». أما فيما يختص بعدد القتلى، فإن هاورد فيدر سبيل، خبير الشئون الإندونيسية فى مكتب المعلومات والبحوث بوزارة الخارجية عام ١٩٦٥، يقول: «لم يكن هناك أحد يهتم بعدد من يتم ذبحهم، ماداموا شيوعيين. لم يكن هناك من يشغل نفسه كثيراً بمثل هذا الأمر».

وكان الأمريكيون يعملون بتعاون وثيق مع البريطانيين: هؤلاء السادة ذوى الصيت الذائع، ومخترعى «البروباجندا السوداء» التى أعجب بها وطبقها جوزيف جوبلز فى الثلاثينيات. السير أندرو جيلشريست السفير البريطانى فى جاكرتا، أوضح موقفه فى برقية

بعث بها إلى وزارة الخارجية: «إننى لم أخف عنكم إطلاقاً اعتقادى بأن إطلاق زخات قليلة من الرصاص فى إندونيسيا يمكن أن يكون تمهيداً ضرورياً لإحداث تغيير مؤثر».

ومع الإعداد لما هو أكثر من «زخات قليلة من الرصاص» ومع عدم توافر دليل على وجود جرم من جانب الحزب الشيوعى الإندونيسى، فإن السفارة قد تقدمت بالنصح لمقر المخابرات البريطانية فى سنغافورة حول الخط الذى ينبغى اتباعه بهدف إضعاف الحزب الشيوعى الإندونيسى بشكل دائم!.

«إن المحاور الدعائية المناسبة يمكن أن تتمثل فى: إبراز وحشية الحزب الشيوعى الإندونيسى، على نحو ما ظهرت فى اغتيال الجنرالات، وابنة وزير الخارجية ناسوتيون، وقيام الحزب الشيوعى بأعمال التخريب فى إندونيسيا انطلاقاً من عمالته للشيوعيين فى الخارج.. ولكن التناول سوف يحتاج إلى الحذف، ومثال ذلك:

أ- أن جميع الأنشطة ينبغى أن تكون مجهولة المصدر، والالتزام بذلك بصرامة.

ب - إن المشاركة أو التعاون من جانب بريطانيا ينبغى إخفاؤه بكل الاهتمام.

وخلال أسبوعين، كان قد تم افتتاح إدارة للمعلومات والبحوث I.R.D فى سنغافورة، تابعة لوزارة الخارجية البريطانية. وكانت هذه الإدارة التى أحيطت بالسرية البالغة، تشكل وحدة دعاية فى الحرب الباردة، ويتولى رئاستها نورمان رايداواى، وهو واحد من أكبر الكذابين الخبراء فى حكومة صاحبة الجلالة.

وقد يسرى عن صحفيى هذه الأيام أن يقوموا بدراسة الدور الحيوى الذى لعبته البروباجندا الغربية فى ذلك الوقت، على نحو ما تفعل اليوم، فى تشكيل الأخبار. والواقع أن رايداواى وزملاءه قد وجهوا الصحافة بدرجة من الخبرة وصلت إلى حد تباهيه فى خطاب «سرى وشخصى» بعث به إلى جيلشريست، يقول فيه بأن القصة التى روج لها - بأن استمرار حكم سوكارنو سوف يؤدى إلى انقلاب شيوعى - «قد ذاعت حول العالم وراجت فى أرجائه» ووصف كيف أن صحفياً خبيراً من فليت ستريث قد وافق على «أن يعبر بدقة فى مقاله عن رؤيتك للأحداث.. وهو أن هذا كان انقلاباً عالج الأمور بالهوادة، ولم يلجأ إلى أساليب وحشية».

وكان رونالد تشاليس، مراسل هيئة الإذاعة البريطانية فى جنوب شرق آسيا، هدفاً خاصاً بالنسبة لـ رايداواى الذى كان يرى أن الرواية الرسمية للأحداث يمكن أن «تتردد على التو فى إندونيسيا من خلال الـ بى.بى.سى»، ولأنه قد منع من الدخول إلى إندونيسيا مع بقية الصحفيين الأجانب، فإنه لم يكن على علم بالمدى الذى بلغته هذه المذبحة. يقول: «لقد كان ذلك انتصاراً للدعاية الغربية». لقد زعمت مصادرى البريطانية بأنها لم تكن على علم بما يجرى هناك، ولكنهم كانوا يعرفون المخطط الذى يقوم الأمريكيون بتنفيذه. إن البوارج البريطانية قد صاحبت سفناً محملة بالقوات الإندونيسية إلى مضيق ملقا، حيث كانت متجهة إلى هناك للمشاركة فى هذه الجريمة المريعة للإبادة الجماعية. ولقد عرفنا بعد ذلك بوقت طويل أن السفارة الأمريكية كانت تقدم الأسماء، وتقوم بالتأشير على الذين يتم قتلهم من بينهم. كانت

هناك صفقة على نحو ما ترى. وبإقامة نظام سوهارتو، كان تغلغل صندوق النقد، والبنك الدوليين فى هذا النظام يشكل جانباً من هذه الصفقة. فسوكارنو قد طردهما بعيداً، وسوف يقوم سوهارتو الآن بإعادتهما ثانية. كانت هذه هى الصفقة».

وبعد أن أصبح سوكارنو مريضاً، ومجرداً من السلطة من الناحية الفعلية، وأوشك سوهارتو أن يعلن عن نفسه قائماً بأعمال الرئيس، نشرت الصحف الأمريكية تقارير عن الانقلاب المدعوم من جانب واشنطن، ليس باعتباره كارثة إنسانية فادحة، وإنما على أساس ما يحققه من المزايا الاقتصادية الجديدة.

لقد وصفت مجلة تايم المذابح التى جرت بأنها «أفضل أنباء للغرب من آسيا». وكان هناك عنوان فى صحيفة يو إس نيوز آند وورلد ريبورت يقول: «إندونيسيا الأمل.. حيث لم يكن هناك أمل». أما جيمس رستون المعلق الشهير فى صحيفة نيويورك تايمز فقد احتفى بما سماه «شعاع من الضوء فى آسيا»، وكتب عن الرواية التى شاعت عن عدم استخدام العنف. والتى كان واضحاً أنها قد أعطيت له. أما رئيس الوزراء الاسترالى، هارولد هولت، الذى كان فى زيارة للولايات المتحدة فقد قال معرباً عن الرضا: «عندما يتم التخلص مما يتراوح بين خمسمائة ألف ومليون من المتعاطفين مع الشيوعيين، ففى اعتقادى أنه يمكن القول بكل طمأنينة إنه قد حدث تحول فى التوجه».

والملاحظة التى أبداها هولت تعبر بدقة عن التواطؤ من جانب الخارجية الاسترالية والمؤسسة السياسية فى استراليا ضد جارها المقرب. فالسفارة الاسترالية فى جاكرتا قد وصفت المذابح التى

جرت هناك بأنها «عملية تطهير» والسفير الاسترالى شان قد أبلغ كانبيرا «عاصمة الحكومة الفيدرالية» أن الجيش الإندونيسى عازم مجدداً على التخلص من الشيوعيين، وأضاف أن الجنرالات قد تحدثوا بالرضا عن عرض راديو استراليا لمجرى الأحداث، والتى وصفها من جانبه بأنها «لم تكن أمينة إلى حد ما». وفى مقر رئاسة الوزراء تدارس المسئولون «اتخاذ أى إجراء لمساندة الجيش الإندونيسى.. بالشكل الذى يتوافق مع الموقف الداخلى».

فى فبراير ١٩٦٦ كتب السفير جيلشريست تقريراً عن مدى اتساع نطاق المذابح، مستنداً إلى الاكتشافات التى توصل إليها السفير السويدى الذى قام بجولة فى وسط شرق جزيرة جاوة برفقة زوجته الإندونيسية، حيث تمكن من الحديث إلى الناس بعيداً عن آذان المسئولين الحكوميين. وكتب جيلشريست إلى وزارة الخارجية يقول: «لقد تناقشت مع السفير قبل قيامه بجولته حول العدد المحتمل للقتلى، وقد وجد أن الرقم الذى طرحته، وهو أربعمائة ألف، لا يمكن تصديقه بأى حال. إن استقصاءاته قد أدت به إلى اعتبار أن هذا التقدير يعد منخفضاً إلى حد كبير. فقد أبلغه مدير بنك فى سورابايا كان يعمل معه عشرون موظفاً أن أربعة منهم قد قبض عليهم فى إحدى الليالى، وقطعت أعناقهم، كما أن ثلث الفنيين فى أحد مصانع النسيج قد تم قتلهم باعتبارهم أعضاء فى الحزب الشيوعى. وكانت أعمال القتل فى جزيرة بالى بشكل خاص أكثر وحشية. وفى بعض المناطق المعينة، كان هناك شعور بأنه لم يتم قتل العدد الكافى من الناس.

وفى جزيرة بالى كانت عملية «إعادة التوجه» التى وصفها رئيس

الوزراء الاسترالى هولت تعنى القتل الوحشى لما لا يقل عن ثمانين ألف شخص، رغم أن هذا يعتبر بوجه عام رقماً منخفضاً. والغربيون الكثيرون، الاستراليون فى معظمهم، الذين يستفيدون من الرحلات الجماعية الرخيصة إلى الجزيرة، قد يرد على خاطرهم أن هناك عدداً لا يحصى من الجثث المدفونة أسفل مرابض السيارات فى العديد من الفنادق السياحية الكبرى.

إن المؤلفة والناشطة البارزة كارميل بودياردجو، وهى سيدة إنجليزية متزوجة من سجين سياسى «تابول» وكانت هى ذاتها سجينة سياسية، قد عادت إلى إندونيسيا عام ٢٠٠٠، لتجد «أن الصدمة الناجمة عن أعمال القتل التى جرت من خمسة وثلاثين عاماً مازالت تمسك بخناق الكثير من الجماعات فى الجزيرة، وقد وصفت لقاء لها، فى دينباسار، مع خمسين شخصاً لم يسبق لهم الحديث عن تجربتهم، فى العلن. وكتبت تقول: «إن أحد الشهود الذى كان عمره عشرين عاماً فى ذلك الوقت أبلغنا فى هدوء كيف تم إلقاء القبض عليه، والزج به فى زنزانة كبيرة بواسطة العسكر. كان إجمالى عددهم اثنين وخمسين شخصاً، ينتمى معظمهم إلى تنظيمات جماهيرية فى القرى المجاورة. وفى كل عدة أيام، كان يتم اقتياد مجموعة من الرجال، وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم، حيث يتم إطلاق الرصاص عليهم. ولم يبق على قيد الحياة من بين المسجونين سوى شخصين فقط. وكان هناك شاهد آخر، وهو إندونيسى من أصل صينى، أدلى بشهادته حول قتل مائة وثلاثة أشخاص، وكان منهم شبان لا يتجاوزون الخامسة عشرة. وفى هذه الحالة، لم يكن يجرى اعتقال الأشخاص، بل كانوا يؤخذون من

بيوتهم ليتم قتلهم مباشرة، ويتم شطب أسمائهم من قوائم الاغتيالات».

وفى جاكرتا، ذهبت لرؤية هيرو أتموجو الذى كان يعمل ضابط طيران فى وقت الانقلاب، وأحد الآلاف، رغم بقائه على قيد الحياة، الذين دفعوا ثمناً غالياً لولائهم لسوكارنو. لقد أمضى خمسة عشر عاماً فى السجن، كان أغلبها فى زنزانة انفرادية. ولابد أن أضيف أنه يعد واحداً من أكثر الذين التقيت بهم قوة فى الشخصية، حيث كان خروجه من هذه المحنة مرفوع الرأس. قال لى: «لقد جرت محاكمتى بواسطة محكمة عسكرية خاصة. ولم يكن أمام المحكمة سوى إصدار أحد حكمين: إما السجن المؤبد أو الموت. وأبقت المحكمة على حياتى، وأمضيت فى السجن خمسة عشر عاماً. كانت زنزانتى الأولى من الصغر بحيث كان يصعب على أن أمدد جسمى فيها، ولم يكن فيها سوى فتحتين للتهوية. وكنت أشعر ببرودة قاسية، حيث كان الجو قارس البرودة ليلاً ونهاراً، نظراً لأن السجن كان مقاماً فى منطقة جبلية عالية فى باندونج. كان الهولنديون قد أقاموا هذا السجن، ليمضى فيه السجناء عقوبة لا يتجاوز اثنى عشر يوماً. ولكنهم كانوا يريدون قتلى بشكل بطىء. كانت المشكلة بالنسبة لى هى أننى أعتنق أفكاراً ومبادئ قائمة على العقل والحقوق الإنسانية، وكان هذا يحمينى دوماً من أن تحتوينى هذه الظلمة. أنت ترى أن ما يحدث لأشخاص مثلى هو أنه رغم المعاناة الجسدية والصحية، فإن الروح تزداد صلابة فى مواجهة التحدى. ولكن أعداءنا لم يفهموا ذلك».

وعندما كان هيرو فى السجن، كان يخفى «نجمة المقاومة» التى

كانت فى عهد سوكارنو أعلى مرتبة للشرف فى إندونيسيا، والتى تسلمها من الرئيس نفسه. وقد طلبت منه أن يرتدى هذا الوسام، حتى يمكن التقاط صورة له. وانتصب واقفاً بهيئة عسكرية وقد تقمط الشريط ذا اللونين الأحمر والأبيض، بشاربه الحليق، وعينيه الطيبتين. وجاءت ابنته ديوى إلى الغرفة، ووضع كل منهما يده حول خصر الآخر. عندما كان أبوها فى السجن، واجهت المقاطعة هى وطفلاها من جانب الجميع، كما لو كانت حشرة تلحق الضرر بمن يقترب منها. ولدى إطلاق سراحه، كان يصعب عليها الحديث إليه. ولكن الصدمة قد خفت الآن، ويبدو واضحاً إلى أى حد تكن له الحب والإعجاب.

قال لى: «فى أوائل الستينيات كان هناك ضغطاً قوياً على إندونيسيا لتفعل ما يريده الأمريكيون. لقد كان سوكارنو يريد أن يقيم معهم علاقات طيبة، ولكنه لم يكن يريد نظامهم الاقتصادى. وبالنسبة لأمريكا، فإن هذا ليس ممكناً على الإطلاق، ولذلك أصبح عدواً. وجميع الذين يرغبون فى وطن مستقل، له الحرية حتى فى ارتكاب أخطائه الخاصة، أصبحوا من الأعداء. لم يكونوا فى ذلك الوقت يطلقون على ذلك اسم «العولمة»، ولكنها هى الشىء ذاته. إذا ما قبلتها، فإنك تكون صديقاً لأمريكا. وإذا ما أخذت طريقاً آخر، صدرت لك التحذيرات، وإذا لم ترض بالانصياع، حلت عليك اللعنة. ولكن ها أنا قد عدت. إننى بخير إن لدى أسرتى.. إنهم لم يحققوا الانتصار».

رالف ماكجيهى، ضابط العمليات الكبير فى وكالة المخابرات المركزية C.I.A خلال الستينيات يصف حملة الرعب التى وقعت فى

إندونيسيا خلال ٦٥ ـ ١٩٦٦ بأنها «العملية النموذج» للانقلاب الذى أرادته أمريكا، وتخلصت به من سلفادور الليندى فى شيلى بعد ذلك بسبع سنوات وكتب يقول: «لقد صاغت الـ «سى آى إيه» وثيقة زعمت أنها تكشف عن مؤامرة يسارية لاغتيال القادة العسكريين التشيليين، تماماً على نحو ما حدث فى إندونيسيا عام ١٩٦٥». وقال: إن إندونيسيا كانت أيضاً النموذج لعملية العنقاء Operation phoenix فى فيتنام، حيث قامت فرق الموت التى توجهها أمريكا بقتل عدد يصل إلى خمسين ألف شخص. وقال لى مختتماً حديثه: «فى إمكانك أن تعود بجميع الأحداث الدموية الكبيرة من جانب واشنطن إلى الطريقة التى وصل سوهارتو من خلالها إلى السلطة. والنجاح الذى حققه هذا الأسلوب يعنى إمكان تكراره، مرة بعد مرة».

●●●

فى نوفمبر ١٩٦٧، وعقب الاستيلاء على «الجائزة الكبرى» كانت عملية توزيع الأسلاب. فتحت رعاية مؤسسة تايم ـ لايف عقد مؤتمر غير عادى فى جنيف، جرى خلاله، على مدى ثلاثة أيام، تنظيم استيلاء المؤسسات التجارية الدولية على إندونيسيا. كان المشاركون فى هذا المؤتمر يضمون أكثر الرأسماليين نفوذاً فى العالم، على غرار دافيد روكفلر. وكان هناك جميع الشركات العملاقة فى الغرب: شركات النفط والمصارف الكبرى وجنرال موتورز، وإمبريال كيميكال إندستريز، وبريتش ليلاند، وبريتش ـ أمريكان توباكو، وأمريكا إكسبريس، وسيمنس، وجوديير، وشركة الورق الدولية «إنترناشيونال بيبركوربوريشن»، والشركة الأمريكية

للصلب «يو. إس ستيل». وعلى الطاولة، كان هناك رجال سوهارتو الذين أطلق عليهم روكفلر اسم «فريق القمة الاقتصادى الإندونيسى».

كان «فريق القمة» بقيادة سلطان جوجاكرتا، هامنجكو بيونو الذى أغراه سوهارتو بالانضمام إليه وآدم مالك السياسى المخضرم، وأصبح هذا هو الثلاثى الذى يتولى حكم إندونيسيا. كان سوهارتو يدرك أنه فى حاجة إلى أمريكا لتكون ضامناً له، وفى أبريل ١٩٦٧ طلب من السلطان أن يضع خطة للأخذ بنظام «اقتصاد السوق» Market economy.

والواقع أن وضع هذه الخطة كان بإيعاز من مؤسسة فورد التى كان لها تاريخ طويل فى إندونيسيا، والتى كانت غالبًا ما تعمل من خلال منظمات تشكل واجهة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية «سى.آى.إيه»، مثل مركز الدراسات الدولية، ومؤسسة ستانفورد للأبحاث، والتى قامت بإرسال فريق إلى جاكرتا عقب وقوع الانقلاب مباشرة. وقام بصياغة هذه الخطة دافى كولى، الاقتصادى بجامعة هارفارد، والذى تم استدعاؤه للقيام بهذه المهمة من جانب الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، وهى فرع من وزارة الخارجية. وكان كولى قد فرغ للتو من إعادة صياغة القواعد المصرفية لكوريا الجنوبية وفقًا لمتطلبات واشنطن.

وفى جنيف كان فريق السلطان يعرف باسم «مافيا بيركلى»؛ حيث إن العديد من أعضائه كان قد حظى بمنح دراسية من الحكومة الأمريكية للدراسة فى جامعة كاليفورنيا فى بيركلى. لقد قدموا إلى هناك كمتوسلين، وتبعاً لذلك كان تضرعهم من أجل

الحصول على ما يبتغون. «يغنون طلباً لوجبة العشاء». وعرض السلطان وهو يعدد النقاط الأساسية المغرية بالشراء المتاحة فى بلده وشعبه: « .. الوفرة فى قوة العمل الرخيصة.. مخزون هائل من المصادر الطبيعية.. سوق واسع النطاق».

وعقب ذلك بثلاثة وثلاثين عاماً، كان لقائى بأحد أعضاء الفريق، وهو الدكتور إميل سالم. وسألته عما إذا كان هناك أحد ما فى مؤتمر جنيف قد اكتفى حتى بمجرد الإشارة إلى أن مليون شخص قد ماتوا فى سبيل أن تصل هذه الحكومة المرحبة برجال الأعمال إلى السلطة. وكانت إجابته: «لا .. إن مثل هذا الأمر لم يكن مدرجاً على جدول الأعمال. ثم إننى لم أعلم عن هذا إلا مؤخراً. تذكر أننى فى ذلك الوقت لم يكن لدى تلفاز، كما أن الهاتف لم يكن يعمل جيدًا».

وكانت دعوة المؤتمر إلى «المساعدة فى إعادة بناء أمة». وفى الصفحة الافتتاحية لبرنامج المؤتمر، كان هناك ثناء مفرط ومصطنع على الجنرال سوهارتو الذى وفقًا لما زعم «قد أفلت بالكاد من القتل أثناء الانقلاب الشيوعى». جيمس لينين، ذلك الرجل البدين الذى يرأس شركة تايم، والذى كانت خطاباته المتملقة لسوهارتو هى التى مهدت لانعقاد المؤتمر، ألقى فى الجلسة الافتتاحية خطاباً تضمن وصفاً تنبؤياً بما سوف تكون عليه العولمة. قال فى خطابه: «إننا نحاول خلق مناخ جديد، يمكن فيه للمشروعات الخاصة وللأقطار النامية أن تعمل معاً ... من أجل تحقيق الفائدة الأعظم للعالم الحر. هذا العالم الخاص بالمشروعات الدولية هو أكبر من الحكومات. إنه الشبكة غير

المقيدة من المشروعات التى تقوم بتشكيل المناخ الكونى بسرعة ثورية».

وفى اليوم الثانى، جرى تقطيع الاقتصاد الإندونيسى إلى قطاعات. «لقد تم تحقيق ذلك بطريقة مبهرة تماماً» كان هذا هو تعليق جيفرى ونترز، الأستاذ بجامعة نورث ويسترن، بولاية شيكاغو، والذى قام مع طالب الدكتوراة براد سمبسون، بدراسة أوراق المؤتمر. ويوضح ذلك بقوله: «لقد قسموا الاقتصاد إلى خمسة قطاعات مختلفة: فالتعدين يشكل أحد القطاعات، وقطاع الخدمات والصناعة الخفيفة قطاع آخر، وكذلك المصارف والمؤسسات المالية. وما فعله تشيس مانهاتن هو الجلوس مع أحد الوفود، وتحديد السياسات التى يمكن أن تكون مقبولة من جانبه ومن جانب المستثمرين الآخرين. كان هناك رجال الشركات الكبرى يلتفون حول الطاولة، قائلين إن هذا هو ما نريد: هذا، وهذا، وهذا. وعلى هذا النحو، وضعوا الأساس القانونى للاستثمار فى إندونيسيا. إننى لم أسمع من قبل عن موقف مثل هذا، حيث يجلس أصحاب رأس المال الكونى مع ممثلى دولة يفترض أنها مستقلة، ويقوم هؤلاء بفرض الشروط الخاصة بدخولهم هذه الدولة».

وحصلت شركة فرى بورت «الميناء الحر» على جبل من النحاس فى بابوا الغربية «هنرى كيسنجر هو حالياً أحد أعضاء مجلس إدارة الشركة). وحصل كونسورتيوم من الشركات الأمريكية والأوروبية على ثروات بابوا الغربية من النيكل. أما شركة الكووا العملاقة فقد حصلت على الجانب الأكبر من البوكسيت فى إندونيسيا. وحصلت مجموعة من الشركات الأمريكية واليابانية والفرنسية على الغابات الاستوائية فى سومطرة، وبابوا الغربية

وكاليمانتان. وأعد قانون جديد للاستثمارات الأجنبية، سارع سوهارتو إلى إصداره، يمنح عملية النهب هذه فترة إعفاء من الضرائب لا تقل عن خمس سنوات. وانتقلت السيطرة الحقيقية والسرية على الاقتصاد الإندونيسى إلى المجموعة الدولية- الحكومية لإندونيسيا IGGI والتى يتألف أعضاؤها الأساسيون من الولايات المتحدة، وكندا، وأوروبا، واستراليا، والعضوين الأكثر أهمية، وهما صندوق النقد، والبنك الدوليان.

وكتب الرئيس جونسون إلى جيمس لينين يزجى إليه التهنئة على «القصة الرائعة التى تجسد الفرصة السانحة، والوعد المنبعث» وحيت صحيفة وول ستريت هذا الفتح واحتفى التقرير الخاص لشركة كوبلى بهذا الإنجاز: «إن تدفق الأعمال التجارية الأمريكية قد تحول فى اتجاه الغرب. فهناك فى إندونيسيا يمكن للأفكار الأمريكية عميقة الجذور عن المشروعات الحرة، وعن عبقرية اليانكى، أن تجد أشكالاً جديدة للتعبير، وعلاوة على ذلك، فإن الأرباح الممكن تحقيقها يعجز عن تصورها الخيال».

تحت حكم سوكارنو، لم تكن إندونيسيا مدينة إلا بالقليل من الديون، فلقد قام بإقصاء البنك الدولى. والحد من نفوذ شركات النفط، وأبلغ الأمريكيين علانية بأن «يذهبوا إلى الجحيم» مع قروضهم. أما الآن، فقد توالت الديون الضخمة، وجاء أغلبها من البنك الدولى الذى كانت مهمته هى توجيه «التلميذ النموذج» نيابة عن عرابى «المجموعة الدولية ـ الحكومية لإندونيسيا» IGGI وقال أحد مسئولى البنك: إن إندونيسيا هى أفضل الأشياء التى صادفها العم سام منذ الحرب العالمية الثانية.

منذ عام ١٩٦٧، غرقت إندونيسيا فى دولارات البنك الدولى. وفى عام ١٩٩٥، قبل ثلاثة أعوام من سقوط سوهارتو، تولى رئاسة البنك جيمس ولفنسون، وهو مصرفى استثمارى، استرالى - أمريكى، على علاقة وثيقة مع حكومة الولايات المتحدة. ولأنه «مصلح» صريح، وأحياناً شرس، فإنه قد قام شخصياً بشن الهجوم ضد القلة من الصحفيين الذين كشفوا عن أن البنك قد سمح للملايين من الدولارات بأن تنفذ إلى جيوب رجال نظام سوهارتو.

وفى واشنطن، رتبت موعداً للقاء ولفنسون. وفى صباح اليوم المحدد للقاء، اتصل بى مساعده فى الفندق، وقال لى: «السيد ولفنسون يعرب عن أسفه، فإن عليه أن يحضر اجتماعاً مفاجئاً مع السفير البلغارى، لآسف، مع السفير الهولندى».

وسألته: «ما هو السبب الحقيقى»؟.

أجاب: «السبب الحقيقى؟.. إن صحيفة الجارديان فى لندن تنشر قصصًا مزعجة عن السيد ولفنسون، تقول بأن هناك حربًا داخلية تدور فى البنك. الرئيس غاضب للغاية. وقد أغلق باب مكتبه، وقرر ألا يتحدث إلى وسائل الإعلام. هل ترغب أن تقابل السيد ستيرن بدلاً منه؟».

وأجريت لقاء مع نيكولاس ستيرن، كبير الاقتصاديين فى البنك، وهو رجل فى غاية التواضع، وأستاذ سابق فى جامعة أكسفورد، وكان هو الذى بدأ الحملة الهادفة إلى رسم صورة جديدة للبنك كمؤسسة تستهدف النهوض بأحوال الفقراء.

وسألته أن يوضح كيف «خسر» البنك الدولى ما يصل إلى عشرة بلايين دولار فى إندونيسيا.

أجاب: إن هذا الرقم محض خيال.

- ولكن مصدره هو تقرير للبنك الدولى.

- نعم.. فى كثير من الأحيان، يكون علينا اللجوء إلى تخمين الأرقام.

- ولكن هناك جهات أخرى أيدت ذلك. إن الغرفة التجارية الأمريكية فى جاكرتا قد أبلغتنى بأن المبلغ لا يقل عن ثمانية بلايين دولار.

- دعنا لا نتعلق برقم واحد.

- ولماذا لا نفعل؟ إن المراقب العام للحسابات فى الحكومة الأمريكية قد تولى بحث هذا الأمر، وقد أبلغ مجلس الشيوخ الأمريكى أن المدير المحلى للبنك الدولى فى إندونيسيا قد تجاهل التقارير الداخلية التى توضح تفاصيل أعمال التستر والتجاوزات والاختلاسات؛ لأنه لم يكن راغباً فى إثارة غضب أسرة سوهارتو والمقربين منه.

- حسناً، إن هذه مسألة خطيرة، ولابد لنا أن نقر بأننا لا نعلم مقدار المبالغ «المفقودة» وهذه مشكلة. إن هذا خطأ، ولابد أن نقر بهذا، ولكن لابد لنا أيضاً أن نستمر فى التقدم نحو الأمام.. إننا نتطلع إلى تدعيم عملية اللامركزية، من خلال مجموعة من البرامج التى تستهدف دعم الأنشطة على مستوى القرية: بشق الطرق فى الريف، وتوفير خزانات المياه النقية. لقد قمت بزيارة مستوطنة للمجذومين، حيث وجدتهم يصنعون الطوب، وأشياء أخرى. وهكذا، فإننا نحاول أن نتعلم من تجربتنا الماضية، وأن نقدم العون لبلد يجتاز مرحلة تأقلم بالغة الصعوبة.

وسألته عن السبب الذى دفع بالبنك الدولى إلى الامتناع عن قول أى شىء على مدى ثلاثين عامًا عن نظام مدان بارتكاب أعمال قتل جماعية فى إندونيسيا وتيمور الشرقية. وكانت إجابته: «فى رأيى أنه قد كان هناك عدد من الأمور الخاطئة. وعلينا أن ندرك أنه...».

وهذا الندم الظاهر ليس المزاج الذى يقدر له البقاء ولو لتلك المسافة القصيرة التى نقطعها خلال النفق الذى يربط بين مقرى البنك وصندوق النقد الدوليين، حيث التقيت بالنائب الأول للمدير التنفيذى ستانلى فيشر وهو الاقتصادى الذى تلقى تنشئته فى جنوب إفريقيا، سألته عن السبب الذى يجعل الفقراء فى إندونيسيا يدفعون ثمن الأخطاء وأوجه الفساد التى ترتكبها الأنظمة المدعومة من جانب البنك وصندوق النقد الدوليين.

قال: «إننا مؤسسات مالية. والطريقة الوحيدة التى تمكننا من الاستمرار فى العمل هى القيام بإعادة سداد الديون. دعنى أشرح لك: إنك مديون، وأنا أيضاً مديون، ولن تتحسن أحوالى إذا ما سألت شخصاً ما بأن يأتى ليلغى ديونى؛ لأنه لن يكون فى إمكانى إطلاقاً الاقتراض ثانية.. إن الفكرة القائلة بأن الديون ينبغى إلغاؤها هى فكرة سيئة».

قلت إن لجنة الأمم المتحدة حول حقوق الإنسان قد ذكرت فى تقرير لها أنه «ينبغى لمؤسسات العولمة أن تنظر بشكل جدى إلى موضوع حقوق الإنسان. ذلك أن العولمة قد أدت إلى أنواع من عدم المساواة والتمييز» وأشار التقرير بالتحديد إلى أوضاع العمال فى إندونيسيا. فما هو ردك على ذلك؟

وكانت إجابته: «لقد حقق الاقتصاد الإندونيسى نمواً نتيجة اندماجه مع الاقتصاد العالمى.. إن المشكلة تكمن فى النظام الدكتاتورى، حيث لا يحصل الناس على البعض من حقوقهم الإنسانية».

- «أنت تقول بأن الناس لا يحصلون على البعض من حقوقهم. إن ثلث الأهالى فى تيمور الشرقية قد ماتوا أو قتلوا فى ظل نظام سوهارتو».

- «وماذا يدعوك إلى أن تتوجه إلى بهذا السؤال؟ هل تعتقد أننا ندعم نظام سوهارتو؟ لا تكن مثيراً للسخرية!.

- «حسناً، هل تحدثت بشىء ضد ما يجرى؟ هل فعل ذلك صندوق النقد الدولى؟».

- «إن صندوق النقد الدولى يناقش ما يتصل باقتصاد الدول..».

إن إندونيسيا التى لم تكن مدينة بشىء، وإنما كانت تتعرض لنهب ذهبها، ومعادنها الثمينة، وأخشابها وتوابلها، وغير ذلك من ثرواتها الطبيعية من جانب سادتها الإمبرياليين، الهولنديين، أصبح على كاهلها الآن أعباء من الديون التى يقدر إجماليها بمبلغ ٢٦٢ بليون دولار، وهو ما يعادل مائة وسبعين فى المائة من إجمالى إنتاجها المحلى، وليس هناك دين يماثل ذلك على مستوى العالم كله. إنه دين غير قابل للسداد على وجه الإطلاق. إنه يبدو فجوة بلا قاع.

والذين سوف يستمرون فى سداد هذه الديون، ويدفعون حياتهم مقابل ذلك فى بعض الأحيان، هم الناس العاديون. وقد التقيت مع

زاينال، الذى يبلغ الثامنة والعشرين، ومع زوجته فيرلوس، التى تبلغ الثانية والعشرين، وطفليهما الصغيرين، أبريان التى تبلغ الثالثة، ومحمد الذى لم يتجاوز الأشهر التسعة. كلا الطفلين يعانى مرضاً وراثياً فى الدم، وينبغى أن تجرى له عملية نقل دم مرة كل شهر. وكان هذا العلاج قد تأخر عن موعده لدى لقائى بهم، وظهر هذا واضحاً فى عيونهما الغائرة وبشرتهما التى يكسوها الاصفرار. وإذا مضت أسابيع أخرى بدون نقل دماء جديدة إلى الطفلين، فهذا يعنى وفاتهما.

كان زاينال يعمل فى مصنع لعلاقات الثياب، وكان راتبه الشهرى الذى لا يكاد يسد رمقه، والذى لا يتجاوز ما يعادل أربعين جنيهاً استرلينياً، يذهب نصفه كنفقات لعلاج طفليه، وتوفير الأدوية لهما. وتعيش الأسرة فى مجمع للعمال على الشاطئ الآخر من القناة التى تفصلهم عن المصنع. الهواء يبدو ساكناً، وتنبعث منه روائح كريهة، ولا ينقطع منه طنين البعوض. لقد قاموا مؤخراً ببيع مروحتهم الكهربائية الوحيدة، وتوقف الهاتف عن العمل، لقد خفضوا حصصهم من اللحم واللبن، وفى بعض الأيام لا يكون فى مقدورهم أن يوفروا لأطفالهم سوى الشاى المحلى بالسكر.

والذى وصل بهم إلى هذا المستوى من الفاقة، والذى وضعهم على الحافة بين الموت والحياة هو تلك الأسعار المتصاعدة للطعام والوقود. إن مجرد غلى المياه لتنقيتها يتكلف ما يعادل جنيهاً استرلينياً فى اليوم. وعندما وقع ستانلى فيشر منح قرض «إنقاذى» لإندونيسيا، تتضمن شروطه رفع الدعم عن الوقود، مثل البارافين، والمواد الغذائية الأساسية، خاصة الأرز، فإنه يكون قد ألزم زاينال

وغيره من الأسر الفقيرة بسداد القروض التى تراكمت على إندونيسيا، بواسطة نظام دكتاتورى فاسد ودموى، وبواسطة ذوى الحظوة من أصدقائه المقربين.

وكما قال فيشر، فإن الفكرة القائلة بأن الديون ينبغى إلغاؤها هى فكرة سيئة.. وأثناء كتابة هذه السطور، كان طفل زاينال الرضيع فى المستشفى، أقرب ما يكون إلى الموت.

الفصل الثانى

دفع الثمن

● نحن لا نسعى إلى تدمير العراق. نحن لا نسعى إلى إلحاق العقاب بالشعب العراقى بسبب قرارات وسياسات قادته.

الرئيس جورج بوش الأب

● نحن نعتقد أن الثمن المدفوع له المقابل الذى يستحقه.

مادلين أولبرايت، إجابة على سؤال عما إذا كانت وفاة نصف مليون طفل عراقى هى ثمن له المقابل الذى يستحقه.

● إنهم يعلمون أننا نمتلك بلدهم.. إننا نفرض عليهم الطريقة التى يعيشون ويتحدثون بها. وهذا هو الشىء العظيم بالنسبة لأمريكا فى الوقت الراهن.. إنه شىء طيب، خاصة عندما يكون هناك قدر كبير من النفط تشتد حاجتنا إليه.

اللواء وليام لونى، قائد القوات الجوية الأمريكية التى قامت بقصف العراق

أينما توجهت فى البصرة، المدينة العراقية الواقعة جنوباً، فلن تجد بها سوى الأترية. إنها تغطى تلك الطرق الطويلة الممتدة من أطراف الصحراء.

إنها تنفذ إلى عينيك وأنفك وحلقك، إنها ترتفع على شكل دوامات فى الأسواق وأفنية المدارس، لتنفذ إلى صدور الأطفال الذين يتقاذفون كرتهم المطاطية وتحمل لهم معها، حسبما يقول الدكتور جواد العلى «بذور الموت». والدكتور العلى هو طبيب متخصص فى السرطان يعمل فى مستشفى المدينة وزميل فى الكلية الملكية البريطانية للأطباء، له وجه طيب تكسوه التجاعيد، وكما هو حال ياقة قميصه، فإن معطفه الأبيض المبقع تبدو عليه الرثاثة بشكل واضح.

يقول الدكتور العلى: «قبل حرب الخليج لم يكن لدينا كل شهر سوى ثلاث أو أربع حالات مصابة بالسرطان، أما الآن فإن هناك ما يتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين مريضاً يموتون بسبب السرطان شهرياً، ويقتصر ذلك على القسم الذى يخصنى. إن الوفيات

الناجمة عن السرطان قد تزايدت بمقدار اثنى عشر ضعفاً. وتشير الدراسات التى أجريناها إلى أن ما يتراوح بين أربعين وثمانية وأربعين من بين السكان فى هذه المنطقة سوف يصابون بالسرطان خلال فترة خمس سنوات أو ما يليها على المدى الطويل، وهو ما يعادل نحو نصف السكان. إن أغلب أفراد أسرتى الخاصة قد أصيبوا الآن بالسرطان، ولم يكن لهذا المرض وجود بينهم من قبل. ونحن لا نعرف المصدر المحدد للتلوث، حيث لا تتاح لنا المعدات التى تمكننا من إجراء المسوح السليمة أو حتى قياس مستوى الزيادة فى الإشعاع النافذ إلى أجسامنا.. نحن نشك بقوة فى احتمال وجود اليورانيوم المنضب الذى كانت القوات الأمريكية والبريطانية تستخدمه فى حرب الخليج على امتداد جبهات القتال الجنوبية. وأيا كان السبب فإن ما يجرى هنا الآن هو شبيه بما حدث فى تشيرنوبيل. وهناك تأثيرات جينية تبدو جديدة بالنسبة لنا. نبات الفطر ينمو بأحجام ضخمة، والسمك الذى كان يتكاثر فى ما كان يعد من قبل نهراً جميلاً لم يعد صالحاً للأكل، وحتى عناقيد العنب فى حديقتى قد تغير تكوينها ولم يعد فى الإمكان تناولها».

وفى ممر العنبر التقيت الدكتورة جنان غالب حسين طبيبة الأطفال. فى وقت آخر كان يمكن وصفها بأنها شخصية تفيض بالحماس والبهجة، أما الآن فإنها هى الأخرى تبدو وكأن هما دائماً يكسو ملامحها. إنها وجه العراق ذاته «هذا هو على» قالت لى الدكتورة جنان وهى تتوقف لتمسك بيد طفل هزيل خمنت أنه فى الرابعة من عمره.

واستطردت الطبيبة: «إنه فى التاسعة ومصاب بسرطان الدم،

ليس فى مقدورنا علاجه، حيث لا يتوافر لنا سوى القليل من الأدوية. نحن نحصل على كمية من الأدوية تكفى لأسبوعين أو ثلاثة. ثم يتوقفون لأن شحنات الأدوية الواردة من الخارج قد توقفت. وما لم يكن هناك تواصل فى العلاج فإنه يصبح بلا جدوى. لا يمكننا حتى القيام بنقل الدم حيث لا يتوافر لدينا منه ما يكفى.

وعلى السرير المجاور كان هناك طفل يرقد بين ذراعى أمه المحجبة. وقالت عنه الطبيبة: «إنه يعانى الورم العصبى. إنه نوع من الورم نادر الحدوث. قبل عام ١٩٩١ لم نشهد سوى حالة واحدة من هذا الورم على مدى عامين. أما الآن فإن لدينا حالات كثيرة مصابة به». وكان هناك طفل آخر يثبت نظره على، وسألت عما حدث له فقالت: كان عنده ورم باطنى وقد أجرى عملية لاستئصاله، ولكنه إذا لم يتلق العلاج اللازم فإن الورم سيعود مرة أخرى. وليس لدينا سوى بعض الأدوية، ونحن فى انتظار وصول باقى ما يلزم له إنه يعانى الآن الفشل الكلوى ولذلك فإن مستقبله سيئ..».

.. الواقع أن مستقبل الجميع هنا سيئ. تحتفظ الدكتورة جنان حسين بألبوم يضم صورًا للأطفال الذين حاولت إنقاذهم دون أن تفلح جهودها. «هذا هو صالح» قالت لى بعد أن قلبت صفحات من الألبوم وهى تشير إلى صورة طفل يرتدى سترة زرقاء اللون ذى عينين متألقتين. واستطردت تقول: «كان يعانى تضخمًا فى الغدة الليمفاوية. وفى الغالب فإن نسبة الشفاء من هذا المرض يمكن أن تصل إلى خمسة وتسعين فى المائة، ولكن إذا لم تتوافر الأدوية تكون المضاعفات المؤدية إلى الوفاة. كان هذا الولد يتمتع بروح بالغة اللطف. ولكنه مات».

قلت لها ونحن نواصل السير: «لاحظت أنك تديرين وجهك نحو الحائط».

أجابت: «نعم إننى ذات طبيعة عاطفية. إننى طبيبة، وليس من المفترض أن أبكى أمام مرضاى، ولكننى أبكى كل يوم وأنا أرى أمامى مشاهد العذاب. إن فى الإمكان أن يعيش هؤلاء الأطفال. فى إمكانهم أن يعيشوا ويكبروا، وعندما ترى أمامك ابنك أو ابنتك وهما يواجهان الموت، فماذا يمكن أن يحدث لك؟».

سألتها: «ماذا تقولين لهؤلاء الغربيين الذين ينكرون وجود علاقة بين اليورانيوم المنضب وبين ما يحدث لهؤلاء الأطفال من تشوهات؟».

أجابت: «هذا ليس صحيحًا، وأى دليل يريدون أقوى مما يحدث بالفعل؟ إن هناك علاقة وثيقة بين التشوهات الخلقية وبين التعرض لإشعاعات اليورانيوم المنضب. قبل ١٩٩١ لم نكن نرى شيئًا مما نراه الآن».

وإذا لم تكن هناك علاقة بين الأمرين، فلماذا لم تكن مثل هذه الأشياء تحدث من قبل؟ معظم هؤلاء الأطفال ليس لأسرهم تاريخ مرضى بالسرطان. لقد درست ما حدث فى هيروشيما. إنه يكاد يكون مطابقًا لما يحدث هنا الآن. إن لدينا نسبة عالية من الأطفال الذين يولدون بتشوهات خلقية، كما أن هناك زيادة مماثلة فى الحالات المصابة بالأورام الخبيثة واللوكيميا والأورام المخية».

فى ظل الحصار الاقتصادى الذى فرضه مجلس الأمن بالأمم المتحدة عام ١٩٩٠ والذى جرى تصعيده فى العام التالى، جرى

حرمان العراق من توفير المعدات والخبرات اللازمة لإعادة تنقية ميادينها من الملوثات، بعكس ما جرى فى الكويت حيث تمت عمليات التنقية بها فى أعقاب حرب الخليج.

وكان الفيزيائى العسكرى الأمريكى الذى أشرف على عملية التنقية من التلوث فى الكويت هو البروفيسور دوج روكى الذى التقيت به فى لندن. لكنه اليوم أصبح هو ذاته ضحية يقول: «إن حالتى الآن هى نفس حالة أناس كثيرين فى جنوب العراق. إننى أحمل فى جسمى خمسة آلاف ضعف المستوى المقبول من الإشعاع. لم تكن هناك حالة من التلوث الإشعاعى سواء فى العراق أو الكويت، ولكن مع الاختبارات والتجهيزات التى جرت على العتاد الحربى فى السعودية، أصبح التلوث بإشعاع اليورانيوم يغطى كامل المنطقة. ويعتمد التأثير على مدى نفاذ هذا التأثير الإشعاعى إلى الشخص سواء بالاستنشاق أو عن طريق الطعام أو الشراب، أو من خلال جرح مفتوح. وما نراه الآن من المشاكل التنفسية والأورام السرطانية وأمراض الكلى إنما هو نتيجة مباشرة لنفاذ هذه المواد ذات السمية العالية. وما يثور من خلاف حول ما إذا كانت هذه المواد هى السبب فيما يحدث الآن أم لا، إنما هو خلاف مصطنع، فاعتلال صحتى شخصيًا هو خير شاهد فى هذه القضية».

وفى رأى البروفيسور روكى إن هناك مسألتين ملحتين يتحتم مواجهتهما من جانب هؤلاء الغربيين «الذين تتوافر لهم القدرة على الإحساس بالتمييز بين الصواب والخطأ». أولاهما هى القرار من جانب الولايات المتحدة وبريطانيا باستخدام سلاح التدمير الشامل مثل اليورانيوم المنضب. يقول: «فى حرب الخليج تم إطلاق ما يزيد

على ٣٠٠ طن، فالمقاتلة الجوية ١٠ـ A وورثوج «الخنزير الوحشى» تطلق ما يزيد على ٩٠٠ ألف طلقة، وكل طلقة واحدة هى عبارة عن ٣٠٠ جرام من اليورانيوم الصلب ٢٣٨ . وعندما تقوم دبابة بإطلاق قذائفها فإن كل طلقة تحتوى على ٤٥٠٠ جرام من اليورانيوم الصلب، وهذه الطلقات ليست مبطنة ولا مغطاة الأطراف. إنها يورانيوم صلب، وإضافة إلى ذلك فإن هناك من الدلائل ما يشير إلى أنه قد تم خلطها بالبلوتونيوم. إن ما حدث فى الخليج هو شكل من الحرب النووية.

أما المسألة الثانية فهى الحيلولة دون توفير العلاج الطبى للجنود الأمريكيين والبريطانيين وغيرهم من جنود الدول المتحالفة، ولعشرات الآلاف من الجنود العراقيين الذين تعرضوا للتلوث الإشعاعى. وفى ملتقيات دولية شاهدت مسئولين عراقيين يتوجهون إلى نظرائهم فى إدارة الدفاع «الأمريكية» ووزارة الدفاع «البريطانية» ويطلبون ويتوسلون من أجل المساعدة فى التنقية من التلوث الإشعاعى. ولم يهتم العراقيون باستخدام اليورانيوم المنضب، فلم يكن هذا هو سلاحهم. إنهم ببساطة لا يعرفون كيف يتخلصوا من آثاره الملوثة للبيئة.

لقد شاهدتهم وهم يعرضون مشكلتهم، ويصفون ما يحدث من وفيات وتشوهات مرعبة، وشاهدتهم وهم يقابلون بالصد . كان أمراً مثيراً للحزن.

وفى نيويورك قامت لجنة العقوبات التابعة للأمم المتحدة والتى يهيمن عليها الأمريكيون والبريطانيون بمنع أو تأخير وصول مجموعة من المعدات الطبية ذات الأهمية الحيوية والأدوية

العلاجية الكيماوية، بل وحتى الأدوية المخففة للألم. فى مصطلحات الحظر تعنى كلمة تمنع blocked أن المادة المعنية معترض عليها، وكلمة تعلق On hold تعنى أن المادة المعنية سيتم تأخير وصولها وربما منعها.

ولقد جلست فى بغداد بإحدى العيادات، حيث كانت الطبيبة الشابة المتخصصة فى علاج الأورام تستقبل الآباء وأطفالهم، كان الكثير من هؤلاء الأطفال تكتسى بشرتهم باللون الرمادى، ويظهر الصلع على رؤوسهم، وكان البعض منهم على شفا الموت. وعقب كل فحص ثان أو ثالث كانت الطبيبة تكتب بالإنجليزية «الدواء ليس متوافراً» وطلبت منها أن تسجل فى دفترى قائمة بالأدوية التى قام المستشفى بطلبها ولكنه لم يتلقاها، أو تلقاها بشكل متقطع، وشغلت القائمة التى سجلتها الطبيبة صفحة كاملة.

كنت أقوم بالتصوير اللازم لفيلمى التسجيلى عن العراق «دفع الثمن: قتل أطفال العراق»، وعندما عدت إلى لندن قدمت القائمة التى كتبتها الطبيبة العراقية إلى البروفيسور كارول سيكورا الذى كتب فى الصحيفة الطبية البريطانية «British Medical Journal» باعتباره رئيساً لبرنامج السرطان فى منظمة الصحة العالمية (WHO) إن المعدات المطلوبة للعلاج بالراديو والأدوية العلاجية الكيماوية ومسكنات الأوجاع، يجرى منعها بشكل منتظم من جانب المستشارين الأمريكيين والبريطانيين فى لجنة العقوبات، ويبدو أن هناك تصورات يغلب عليها السخف بأن هذه المواد يمكن تحويلها إلى أسلحة كيماوية وغيرها.

ولقد أبلغنى البروفيسور كارول سيكورا: «أن هذه الأدوية - كلها

تقريباً ـ متوافرة فى أى مستشفى بريطانى، وهى أدوية عادية تماماً وفقاص لجميع المقاييس. ولدى عودتى من العراق فى العام الماضى مع مجموعة من الخبراء، فإننى قد وضعت قائمة تضم سبعة عشر دواءً تعتبر ضرورية بشكل أساسى لعلاج السرطان. وقد أبلغنا الأمم المتحدة بأنه ليس هناك أى إمكانية لتحويل هذه الأدوية إلى عناصر للأسلحة الكيماوية، ولكننا لم نتلق أى رد، وأكثر الأمور التى شاهدتها فى العراق إثارة للألم هى الأطفال الذين يموتون نظراً لعدم وجود الأدوية العلاجية الكيماوية، وعدم توافر الأدوية المسكنة للأوجاع، ويبدو جنونياً أنه ليس فى استطاعتهم الحصول على المورفين، حيث إنه العلاج الأفضل بالنسبة لكل شخص يعانى أوجاع السرطان. وعندما كنت هناك لم يكن لديهم سوى زجاجة صغيرة من حبوب الإسبرين يطوفون بها على مائتى مريض يعانون الألم. وهم قد يتلقون دواءً معيناً مضاداً للسرطان. ولكنهم لا يتلقون عندئذ سوى الفتات القليل من الأدوية لعلاج هذا المرض أو ذاك. وبذلك لا يكون لديك أى قدر من التخطيط. إنه لأمر عجيب».

وذكرت له أن أحد الأطباء كان منزعجًا بشكل خاص لأن لجنة العقوبات بالأمم المتحدة قد حظرت الأكسيد النيتروجينى باعتباره «ذا استخدام مزدوج» رغم استخدامه فى أقسام الولادة القيصرية لوقف حالات النزيف، وضرورته فى مثل هذه الحالات لإنقاذ حياة الأم. وأجاب على ذلك قائلاً: «إننى لا أرى أى منطق فى منع هذه المادة. إننى لست خبيرًا فى مجال الأسلحة، ولكن الكميات المستخدمة ستكون ضئيلة إلى حد أنه حتى لو استطعت تجميع كل المتاح من الأدوية المخصصة للبلد بكامله فسيكون من الصعب أن تستخرج منها أى عناصر من الأسلحة الكيماوية.

وسألته عن الكيفية التى تلقت بها منظمة الصحة العالمية انتقاداته، فأجابنى قائلاً: «لقد أبلغونا بشكل محدد بعدم الحديث عن هذا الموضوع بعد ذلك، أو عن المسألة العراقية بوجه عام. «لقد كانت منظمة الصحة العالمية فى موقف محرج، وهى ليست بالمنظمة التى ترغب فى أن يزج بها فى مجال السياسة».

العمل الأبرز فى استوديو النحات محمد خانى هو تمثال ضخم للمسيح مصلوباً يقوم بنحته لكنيسة صعود العذراء فى بغداد. ولأنه النحات العراقى الأكثر شهرة فإنه يفتخر بأن الفاتيكان قد عهد إليه، وهو المسلم، بأن يقوم بنحت سلسلة مراحل صلب المسيح لتقام فى روما. ويقول إن ذلك يعد إقراراً ثقافياً بمكانة بلده، باعتباره امتداداً لحضارة بلاد ما بين النهرين، والتى تعد «مهد الحضارة الغربية». وعندما قمت بزيارته كانت موسيقى موزارت تنبعث من مسجل عتيق يقبع على ثلاجة تماثله فى القدم، وفى داخلها علبتان صغيرتان من البيرة. وقدم إلى إحدى العلبتين وهو يقول: «لنعش حياتنا». ولا مزيد من الأسف من فضلك.

وكان آخر أعماله هو تمثالاً بارتفاع عشرين قدمًا لامرأة وابنها من خلفها يجذب ساقيها ملحًا فى طلب الطعام. «إننى أراها كل صباح تقف فى طابور طويل بالمستشفى الذي يقع فى نهاية طريقى». لقد قام بعمل تمثال لطابور من النسوة يصور حالة انتظارهن. جميع الرؤوس محنية أمام باب مغلق بشكل دائم فى وجوههن. يقول محمد خانى: «إنه باب المستوصف، ولكنه أيضاً هو العالم الذى يبقى موصداً بواسطة هؤلاء الذين يحكمونه».

وفى اليوم التالى، رأيت الطابور نفسه للنسوة والأطفال فى

مستشفى المنصور للأطفال. وكان للانزعاج الذى يبديه أطباؤهم صدى مزعج. «إن الأطفال المصابين بالالتهاب السحائى يمكنهم الحياة إذا تعاطوا قدراً محدداً من المضاد الحيوى». كان هذا ما يؤكده الدكتور محمد محمود قبل أن يواصل قائلاً: «إن أربعة ملليجرامات من المضاد الحيوى يمكن أن تنقذ حياة إنسان، لكننا فى الأغلب لا' يسمح لنا بأكثر من ملليجرام واحد. هذه هى تعليمات المستشفى، ولكن الأطفال يموتون، حيث لا يسمح لنا بقطع لازمة للأجهزة المستخدمة فى فصل الصفائح الدموية.

وهناك فى المستشفى، بينما كنا نسير على امتداد طابور من المنتظرين، أتيح لرفيقى دنيس هاليداى أن يصادف حدثاً بالغ الغرابة، استعاد من خلاله اللقاء بشخصين يعرفهما. إن هذا الأيرلندى المهذب، الذى استقال فى العام السابق «١٩٩٨» من عمله كمنسق للإغاثة الإنسانية فى العراق احتجاجاً من جانبه على الآثار الناجمة عن الحصار على المدنيين قد عاد معى مرة أخرى إلى بغداد. وها هو الآن ونحن فى المستشفى يلمح رجلاً برفقة ابنته، ويتفجر الثلاثة بعبارات التحية المتبادلة.

صفاء! هكذا صاح دنيس وهو يسند ركبتيه على الأرض، ليمسك بيدى الفتاة ذات الأعوام التسعة. واتجه إلى بالحديث قائلاً: «جون! هذه صفاء ماجد وأبوها ماجد على. لقد التقيت صفاء منذ عامين فى هذا المستشفى، عندما كنت منسقاً لأعمال الأمم المتحدة فى العراق، وكانت الفتاة فى حالة بالغة السوء بسبب إصابتها باللوكيميا. ولا يستطيع المرء أن يجد حلاً لمشاكل الآلاف، ولكن فى إمكانه أن يحل مشاكل اثنين أو ثلاثة أو أربعة من الأطفال. ولقد

استطعت بمعاونة من منظمة الصحة العالمية أن أحضر الدواء اللازم، ملتزماً بالهدوء. وكان هذا الدواء كافياً لتوفير العلاج اللازم لهذه الفتاة الصغيرة على مدى عامين. انظر إليها اليوم إنها تبدو رائعة». ويقول والدها: إنها الآن تأتى إلى المستشفى مرة واحدة كل شهر. وأعتقد أنها قد كادت تشفى من اللوكيميا. «كانت صفاء واحدة من أربعة أطفال قدمت لهم المساعدة، ولكن للأسف ماتت منهم فتاتان».

- «ولماذا كانت الوفاة؟».

- «توفيتا لأن العلاج لم يكن متوافراً».

- و«لكنك عندما بدأت فى مساعدة هؤلاء الأطفال كنت ممثلاً للأمم المتحدة هنا».

- «هذا صحيح، ولكن من أجل مساعدتهم كان علىّ أن أعمل بشكل غير قانونى. كان على أن أخالف العقوبات الاقتصادية الصادرة عن الجهة التى أمثلها، أعنى عن مجلس الأمن الذى تقوده واشنطن ولندن».

لقد رأينا اليوم الشاهد على عملية القتل التى تقع مسئوليتها على عاتق أعضاء مجلس الأمن، خاصة بيل كلينتون وتونى بلير. ينبغى عليهما أن يكونا معنا هنا. وينبغى لهما أن يريا الأثر الناجم عن قراراتهما، وما يعنيه إحكامهما للحصار الاقتصادى على شعب العراق. لقد نحيت جانباً أكثر البنود أهمية فى ميثاق الأمم المتحدة وإعلان حقوق الإنسان. إننا نخوض حرباً من خلال الأمم المتحدة، ضد أطفال وشعب العراق، وهى حرب أسفرت عن نتائج يصعب

تصديقها: نتائج لا يمكن أن تتوقع رؤيتها فى حرب تجرى وفقاً لمواثيق جنيف، نحن فى هذه الحرب نستهدف المدنيين. والأسوأ من ذلك أننا نستهدف الأطفال من أمثال صفاء التى لم تكن قد ولدت بعد عندما ذهب العراق إلى الكويت. ماذا يعنى ذلك؟ إنه موقف ينم عن الوحشية بالنسبة للأمم المتحدة، وبالنسبة للعالم الغربى، وبالنسبة لنا جميعاً باعتبارنا مسئولين عن سياسات حكوماتنا وعن تنفيذها للعقوبات الاقتصادية على العراق».

لقد استقال دنيس هاليداى بعد أربعة وثلاثين عامًا من العمل فى الأمم المتحدة. كان يعمل عندئذ مساعدًا للسكرتير العام للأمم المتحدة، وله سجل عمل طويل ومتميز فى مجال تحقيق التنمية، أمضاها فى محاولة مساعدة الناس وليس إلحاق الضرر بهم. وكانت استقالته أول تعبير عام عن تمرد لا سابقة له فى الجهاز الإدارى للأمم المتحدة. كتب يقول: «إننى أقدم استقالتى؛ لأن سياسة فرض العقوبات الاقتصادية هى تعبير عن الإفلاس المطلق.. إننا نتجه إلى تدمير مجتمع بكامله. إن المسألة فى بساطة هى أن خمسة آلاف طفل يلقون حتفهم فى كل شهر. وأنا لا أرغب فى إدارة برنامج ينجم عن تنفيذه مثل هذه الأرقام».

ومنذ أن التقيت هاليداى، كان تأثرى البالغ بالمبدأ الذى استندت إليه كلماته المنتقاة بعناية، والتى لا تنطوي على أى قدر من الممالأة: «لقد كنت مكلفاً بتنفيذ سياسة تتوافق مع التعريف المحدد للإبادة الجماعية Genocide: سياسة قامت عن عمد بالقتل الفعلى لما يزيد على مليون شخص من الأطفال والبالغين.

نحن جميعاً نعلم أن النظام العراقى لا يدفع الثمن الناجم عن

فرض الحصار الاقتصادى، وعلى العكس من ذلك، فإن النظام قد تدعم مركزه نتيجة لذلك. إن الناس الضعاف هم الذين فقدوا أبناءهم أو والديهم بسبب النقص فى المياه النقية. والأمر الواضح هو أن مجلس الأمن قد أصبح الآن خارج نطاق السيطرة؛ لأن أعماله هنا تعد تدميرًا لميثاقه الخاص، ولإعلان حقوق الإنسان، ولاتفاقية جنيف. وسوف يقيم التاريخ مذبحة للمسئولين عن ذلك».

لقد استطاع هاليداى أن يكسر صمتًا جماعيًا طويلا كان يخيم على الأمم المتحدة. ففى ١٣ فبراير عام ٢٠٠٠ قام هانز فون سبونيك الذى خلفه كمنسق للشئون الإنسانية فى بغداد بتقديم استقالته بدوره. وكان - كما كان حال هاليداى - قد عمل فى الأمم المتحدة لأكثر من ثلاثين عامًا. لقد تساءل: «إلى متى ينبغى أن يتعرض الأهالى المدنيون فى العراق لمثل هذا العقاب على شىء لم يرتكبوه على الإطلاق؟. وعقب ذلك بيومين قامت جوتا بيراجاردت مديرة برنامج الغذاء العالمى فى العراق وهو جهاز آخر تابع للأمم المتحدة بتقديم استقالتها قائلة إنها بدورها لايمكنها أن تتحمل لمدى أطول مايجرى إلحاقه بالشعب العراقى.

وعندما التقيت فان سبونيك فى بغداد خلال أكتوبر ١٩٩٩ كان الهلع يبدو واضحًا خلف مظهره الخارجى المنضبط وبالغ التواضع. وعلى مثال هوليداى كان عمله هو إدارة مايسمى برنامج النفط مقابل الغذاء، والذى سمح للعراق بمقتضاه منذ عام ١٩٩٦ ببيع جانب من نفطه مقابل النقود التى تتجه مباشرة إلى حساب يسيطر عليه مجلس الأمن. ولا يستخدم نحو ثلث هذا المبلغ فى الأغراض الإنسانية وإنما فى دفع «النفقات» الخاصة بالأمم المتحدة وفى

سداد واحدة من أكثر دول العالم ثراء، ولدعاوى التعويضات من جانب الشركات النفطية وغيرها من المؤسسات متعددة الجنسيات. وينبغى على العراق بعدئذ أن يتقدم إلى السوق العالمى للحصول على احتياجاته من الغذاء والإمدادات الطبية وغيرها من الاحتياجات الإنسانية، ولابد من أن تتم الموافقة على كل تعاقد من جانب لجنة الأمم المتحدة للعقوبات الموجودة فى نيويورك.

●●●

عندما فرضت العقوبات على العراق فى أعقاب غزة للكويت فى أغسطس ١٩٩٠ تم فرض الحظر بشكل فعلى على جميع الواردات بما فى ذلك المواد الغذائية على مدى ثمانية أشهر، رغم أن قرار مجلس الأمن ٦٦١ الصادر فى أغسطس ١٩٩٠ قد نص صراحة على استثناء الأغذية والأدوية من الحظر، وعلى مدى عام رفضت الأمم المتحدة السماح للعراق بالحصول على أى موارد تتجاوز الاحتياجات النقدية المستنزفة التى كانت لديه. ونظرًا لأن العراق يكاد يستورد كل شىء فإن تأثير هذا الحظر كان مباشرًا ومدمرًا، وتضاعف أثره من جراء معركة القصف الجوى التى استهدفت تدمير البنية الأساسية المدنية.

وذكرت صحيفة واشنطن بوست: «إن المخططين العسكريين الأمريكيين يأملون أن يؤدى القصف الجوى إلى تعظيم الآثار الاقتصادية والسيكولوجية للعقوبات الدولية المفروضة على المجتمع العراقى..

وتحقيقًا لهذه الأهداف فإن تخريب البنيات والمصالح المدنية،

الذى كان الناطقون خلال الحرب يصفونه دوما بأنه قد جاء عرضًا Collateral. ولم يكن مقصودًا، لم يكن كذلك فعلاً فى بعض الأحيان. ويقول ضباط كبار بأن أفدح الخسائر المدنية لم تكن نتيجة القذائف التى أخطأت هدفها، وإنما بسبب القذائف المصوبة بدقة والتى ضربت أهدافها المقصودة على وجه التحديد: محطات توليد الطاقة ومصافى النفط وشبكات النقل. ومن بين التبريرات التى تم طرحها أن المدنيين العراقيين ليسوا بعيدين عن اللوم، وعن ذلك يقول ضابط جوى كبير: «إنهم يواصلون العيش هناك».

وفى تقرير له عن الآثار الكارثية للقصف، يصف السكرتير العام المساعد للأمم المتحدة مارتى أهيتسارى حالة المرافق الأساسية فى العراق فيقول: «إن العراق وعلى مدى فترة قادمة من الزمن قد ارتد إلى عصر ما قبل الصناعة، ولكن مع وجود جميع المعوقات الناجمة عن الاعتماد فى مجتمع مابعد الصناعة على الاستخدام واسع النطاق للطاقة والتكنولوجيا».

كوارث بالجملة

وانتهت دراسة قام بها فريق من جامعة هارفارد إلى أن العراق يتجه نحو كارثة فى مجال الصحة العامة مع وجود عشرات الآلاف من حالات الوفاة غالبيتهم من الأطفال مع نهاية عام ١٩٩١ فحسب. وقدر الفريق الذى كان يضم مهنيين وأكاديميين أمريكيين مستقلين، أنه خلال الأشهر الثمانية الأولى لفرض العقوبات التى حالت دون وصول شحنات الغذاء والدواء، كانت وفاة ٤٧ ألفًا من الأطفال الذين تقل أعمارهم عن الخامسة. ويبدو أن إدارة جورج بوش الأب هى التى هيأت للوصول إلى مثل هذه التقديرات

الكارثيـة. ورغم ذلك، وعلى نحـو مـاكتـب الدكتـور أريك هيـرنـج من جامعـة بريستـول والخبيـر فى مجـال العـقـوبات: «ظلت العـقـوبات الاقتصادية الشاملة تراوح مكانها، وصناع السياسة الذين ساندوا العـقـوبات لايمكنـهم القـول بأنهم لم يكونوا يعـرفـون مـاذا يـمكن أن يحـدث نتـيجـة لذلك، وأيًا كـان الهـدف السيـاسـى فـقـد كـان من الوحـشـيـة أن نحـول بين مجـتـمـع بكامله وبين الوسـائل الضـرورية للبقاء على الحياة».

وفى ١٩٩١ أقـر مجلس الأمن بمقـتضـى القـرار ٦٨٧ بأن الحظر المفروض سيتم رفعه إذا مـاتخلص العراق من أسلحة الدمار الشامل (وهـى الأسلحـة النووية والبـيـولوجـيـة والكيـمـاوية) ومن الصـواريخ البـاليـسـتـيـة ذات المدى الذى يتـجـاوز ١٥٠ كـيلو مـتـرًا. ووافق على الرقابة عليه من جانب اللجنة الخاصة للأمم المتحدة (يونيسكوم). وفى ١٩٩٨ ذكـرت يونيـسكوم فى تقـريـر لهـا أنه على الرغم من التعـويق العـراقـى فى بعض المناطق، فإن مـرحلة نزع السـلاح وفـقًا لمتطلبات مجلس الأمن يمكن أن تكون قد قاربت النهاية فى مجالات الصـواريخ والأسلحـة الكيمـاوية. وفى ١٥ ديسـمـبـر ١٩٩٨ تضـمن تقـرير أعدته وكالة الطاقة النووية الدولية إنها قد قامت بتصفية البرنامج العراقى للأسلحة النووية بفاعلية وكفاءة.

وقـد أبدى الموافـقـة على ذلك سكوت ريتـر الذى عمل على مـدى خمس سنوات كـمـفـتش عـالى المستوى فى يونيسكوم، وأكد لى ذلك بقوله: «مع بلوغ ١٩٩٨ كانت البنية الأساسية للأسلحة الكيماوية قد تم تفكيكهـا أو تدمـيـرهـا بالكامل، سـواء بواسطة يونيـسكوم أو بواسطة العـراق ذاته، بناء على تفويض من جانبنـا. كمـا أن برنامج

الأسلحة البيولوجية قد انتهى، حيث تمت تصفية جميع الوسائل ذات الأهمية المستخدمة فى إنتاجها. أما برنامج الأسلحة النووية فقد تمت تصفيته بالكامل، وبالنسبة لبرنامج الصواريخ الباليستية بعيدة المدى فقد تمت أيضًا تصفيته بالكامل. وإذا ما قدر لى القيام بتحديد حجم التهديد الذى يشكله العراق فسيكون قولى إنه صفر».

وعلى الرغم من أن الأغذية والأدوية قد تم استثنائها فنيًا من الحظر، فإن لجنة العقوبات كثيرًا ما اعترضت أو أخرت الطلبات الخاصة بأغذية الأطفال ومستلزمات الزراعة وأدوية القلب والسرطان، وخيام الأكسجين وأجهزة أشعة إكس. فهناك ١٦ جهازًا للقلب والرئة قد جرى تعليق الموافقة عليها بدعوى إنها تحتوى على رقائق الكمبيوتر. كما تم تعليق استيراد سيارات للإسعاف لأن المعدات الخاصة بها تشتمل على قوارير مفرغة، يجرى استخدامها للحفاظ على برودة المواد الطبية. وقد تم اعتبار القوارير المفرغة من جانب لجنة العقوبات أنها «ذات استخدام مزدوج» بمعنى إمكانية استخدامها فى تصنيع الأسلحة. ومواد التنظيف، مثل الكلورين، تم اعتبارها أيضًا ذات استخدام مزدوج، وكذلك الحال بالنسبة للجرافيت المستخدم فى أقلام الرصاص. ويبدو أن الأمر كان كذلك أيضًا بالنسبة للنقالات التى تكرر وضعها فى قائمة المعلقات، وحتى أكتوبر ٢٠٠١ كان هناك ١٠١٠ عقدًا لاستيراد المواد ذات الطابع الإنسانى والتى تبلغ قيمتها ٣.٨٥ بليون دولار، وقد جرى «تعليق» استيرادها من جانب لجنة العقوبات، ويشمل ذلك بعض المواد ذات العلاقة بالغذاء والصحة والمياه ودوراتها الصحية والزراعة والتعليم.

والغالبية من أعضاء مجلس الأمن يرغبون فى تخفيف العقوبات بشكل ملموس أو إلغائها، وقد وصفها الفرنسيون بأنها تنطوى على القسوة، كما أنها غير فعالة وخطرة. ومع ذلك فإن الهيمنة الأمريكية على مجلس الأمن قد وصلت إلى الحد الذى يمكن الممثلين الأمريكيين والبريطانيين فى لجنة العقوبات من القيام وحدهم بالاعتراض على العقود أو تعليق تنفيذها. ويدعى البريطانيون أن نسبة ماقاموا بتعليق تنفيذه من العقود الخاصة باستيراد المواد الإنسانية لايتجاوز واحدًا فى المائة. وهذه مغالطة لأنهم بعدم اعتراضهم إطلاقًا على العوائق التى يضعها الأمريكيون إنما يعطونها تأييدًا ضمنيًا. وزيادة على ذلك فإنه لايمكن إلغاء الاعتراض أو التعليق إلا من جانب عضو المجلس الذى أصدر الأمر بذلك.

ووصلت الاعتراضات إلى حد الفجاجة. مما دفع كوفى عنان سكرتير عام الأمم المتحدة، والمعين فعليًا من جانب الأمريكيين، إلى الشكوى من أن التعليقات والاعتراضات «أصبحت تعوق بشكل خطير التنفيذ الفعال لبرنامج النفط مقابل الغذاء». وحث عنان اللجنة على الموافقة على العقود الخاصة بالمياه والمرافق الصحية والكهرباء «بدون تأخير» نظرًا لأهميتها القصوى فى توفير الحياة الكريمة للشعب العراقى.

كما أن بينون سيفان المدير التنفيذى لمكتب الأمم المتحدة الخاص بالبرنامج العراقى قد هاجم المجلس لقيامه بتعليق استيراد قطع الغيار اللازمة لتسيير الصناعة النفطية المتهالكة فى العراق على ضخ النفط، سيترتب عليه انخفاض مماثل فى الأموال المخصصة لشراء الطعام والدواء.

وفى ١٩٩٩ قام مسئول كبير فى إدارة الرئيس الأمريكى كلينتون بإبلاغ صحيفة واشنطن بوست: كلما طال الوقت الذى نتمكن فيه من المراوغة فى مجلس الأمن، والإبقاء على الأمور فى حالة من الثبات، كان ذلك أفضل».

وفى بريطانيا قامت إدارة الجمارك بوقف إرسال طرود إلى أقارب عراقيين تحتوى على ملابس ولعب للأطفال. وكتب جون آشورت رئيس المكتبة البريطانية إلى عضو مجلس العموم هارى كوهين يقول: «بعد التشاور مع مكتب الشئون الخارجية استقر الرأى على أنه لن يكون فى الإمكان مواصلة إرسال الكتب إلى الطلبة العراقيين». وكانت المكتبة البريطانية قد سبق لها أن أخذت مكانة متميزة عندما أبلغت مترجمًا فى بغداد بأنه ليس من المسموح لها أن ترسل إليه نسخة من رواية «أوليسيس» التى كتبها جيمس جويس.

ولننتقل من التفاهة والجبن إلى المهزلة: فلقد تم منع محاولة لإرسال وثائق إلى العراق لإرشاد العراقيين حول حقوق الإنسان وحرية الصحافة، وجاء الاعتراض من جانب إدارة الصناعة والتجارة فى لندن، وكانت اللفافة، التى احتوت أيضًا على مواد إرشادية لتنظيم الأسرة ومكافحة الإيدز، مرسلة إلى جامعة الموصل، ولكن تم اعتراضها وإعادتها.

عندما كان دنيس هوليداى المسئول الأعلى للأمم المتحدة فى العراق، كانت خزانة عرض تنتصب فى ردهة مكتبه. كانت تحتوى على كيس من القمح وبعض من زيت الطعام المجمد وقطع من الصابون وقليل من الضروريات المنزلية الأخرى قال لى: «إنه مشهد

مثير للحزن.. إن هذه المعروضات تمثل الحصة الشهرية المسموح لنا بصرفها. وأنا من جانبى أضيف إليها الجبن لأرفع من قيمة محتواها من البروتين، ولكن الأمر ببساطة هو أنه لم يعد هناك ما يكفى من المبلغ المسموح لنا بالإنفاق منه والذى يأتى من المبلغ المسموح للعراق بالحصول عليه من عائدات نفطه».

وقد وصف لى هاليداى شحنات الغذاء بأنها «تدريب على الخداع» فالشحنة التى يدعى الأمريكيون بأنها توفر ٢٣٠٠ كالورى للفرد يوميا ربما لاتوفر له سوى ٢٠٠٠ كالورى أو أقل. والمواد المفتقدة تتمثل فى البروتين الحيوانى والأملاح والفيتامينات، وحيث إن الغالبية من العراقيين لاتتوافر لهم مصادر أخرى للدخل. فإن الطعام قد أصبح وسيلة للتبادل، إذ يتم بيعه للحصول على احتياجات ضرورية أخرى، مما يقلل بشكل أكبر من الكالورات التى يتم تحصيلها. فلابد لك من توفير الثياب والأحذية اللازمة لذهاب أطفالك إلى المدرسة. وستجد عندئذ أن هناك الأمهات اللاتى يعانين سوء التغذية ولايمكنهن الإرضاع، إضافة إلى المياه الملوثة التى يتناولنها. وإن هناك حاجة إلى الإنفاق على عمليات تنقية المياه وتوزيعها، وعلى توليد الطاقة الكهربية اللازمة لإعداد الطعام وتخزينه وتجميده، وعلى التعليم والزراعة.

أما هانز فون سبونيك الذى خلف هاليداى فيقدر أن برنامج النفط مقابل الغذاء يتيح لكل فرد مائة دولار للحياة بها على مدى عام. وهذا الرقم لابد له من أن يعاون أيضًا فى سداد نفقات البنية الأساسية للمجتمع بكامله وتكاليف الخدمات الأساسية الأخرى مثل الطاقة الكهربية والمياه. ويخبرنى فون سبونيك: «الأمر ببساطة

هو أنه لايمكن لشخص أن يحيا على مثل هذا المبلغ. وإلى هذا المبلغ الزهيد أضف أيضًا النقص فى المياه النقية والكهرباء التى ينقطع تيارها إلى اثنتين وعشرين ساعة يوميًا. ومايعانيه غالبية المرضى من عدم إمكان الحصول على العلاج، والمعاناة القاسية التى تواجه الشخص فى حياته اليومية، وستكون لديك عندئذ فكرة عن لمحة من الكابوس الذى يعيشه العراقيون. ولاتدع الأمور تختلط عليك، وتأكد من أن مايجرى إنما هو متعمد. إننى لم أكن راغبًا فى الماضى فى استخدام تعبير الإبادة الجماعية ولكن يبدو أنه لامفر الآن من استخدام هذا التعبير».

والخسارة فى الأرواح البشرية مثيرة للذهول. ففى دراسة أجراها صندوق الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف) تبين أنه بين عامى ١٩٩١ و١٩٩٨ كان هناك ٥٠٠ ألف حالة وفيات تزيد على المعدل المتوقع للوفيات بين الأطفال العراقيين تحت السنوات الخمس من العمر. وهذا، فى المتوسط، يعنى وجود ٥٢٠٠ حالة وفاة كان فى الإمكان إنقاذها فى كل شهر بين الأطفال الأقل من خمس سنوات. يقول هانز فون سبونيك إن نحو من ١٦٧ طفلاً عراقيًا يموت كل يوم، ويقول دنيس هاليداى: «إذا أضفت البالغين فمن المؤكد أن رقم الوفيات الآن يمكن أن يتجاوز المليون».

فى ١٩٩٩ قامت لجنة ذات طابع إنسانى شكلها مجلس الأمن لدراسة الوضع العراقى بإعداد تقرير تضمن أن العراق قد انحدر من الوفرة النسبية قبل عام ١٩٩١ إلى «الفقر الشامل». وانتقدت اللجنة برنامج النفط مقابل الغذاء باعتباره «غير كاف» لمعالجة الوضع الإنسانى «المتردى» و«الذى لايمكن التجاوز فى وصفه».

وأقدم أعضاء اللجنة على خطوة مشهودة، حين هاجموا مجلس الأمن وهو الجهة المتبنية لاجتماعهم، وتوجيه الاتهام بأن «الشعب العراقى لم يكن مقدرًا له أن يعانى مثل هذا الحرمان لولا وجود تلك الإجراءات طويلة المدى المفروضة عليه من جانب مجلس الأمن». ومرة أخرى تبين أن الأطفال هم الضحية الأساسية، حيث كان تصاعد معدل الوفيات بين الأطفال من واحد من أكثر المعدلات انخفاضًا فى العالم قبل ١٩٩٠ إلى المعدل الأعلى على الإطلاق.

وفى دراسة منفصلة أعدها ريتشارد جارفيلد المتخصص البارز فى علم الوبائيات بجامعة كولومبيا بولاية نيويورك، كان قوله: إن تزايد نسبة الوفيات بين الأطفال إلى ثلاثة أضعاف منذ عام ١٩٩٠ يشكل ظاهرة غير مسبوقة. كتب يقول: «لاتكاد توجد حالة موثقة لمثل هذا الارتفاع فى معدل الوفيات بين الأطفال الأقل من خمس سنوات فى العالم المعاصر».

ومن خلال استقراء هذه الإحصائيات استنتج الباحثان الأمريكيان جون ميلر وكارل ميولر «إن العقوبات الاقتصادية ربما تكون قد قضت على حياة أناس فى العراق يفوقون فى عددهم جميع الذين لقوا حتفهم بفعل جميع أسلحة الدمار الشامل على مدى التاريخ».

وفى ١٩٩٩ وقع سبعون عضوًا فى الكونجرس خطابًا بالغة الحدة موجهًا إلى الرئيس كلينتون يدعوه إلى رفع الحظر المفروض على شعب العراق ووضع نهاية لما أطلقوا عليه «القتل الجماعى» للأطفال المتنكر فى ثوب السياسة. وكانت إدارة كلينتون قد قدمت لهم بالفعل ردها على هذا الخطاب. ففى ١٩٩٦ وفى مقابلة سيئة

السمعة على البرنامج الخاص بالأحداث الأمريكية الجارية «ستون دقيقة» وجه سؤال إلى مادلين أولبرايت التى كانت عندئذ سفيرة لأمريكا لدى الأمم المتحدة: «لقد سمعنا أن نصف مليون طفل قد لاقوا حتفهم، فهل هذا الثمن المدفوع له المقابل الذى يستحقه؟» وكانت إجابة أولبرايت: «أعتقد أن هذا خيار بالغ الصعوبة، ولكن هذا الثمن نحن نعتقد أن له المقابل الذى يستحقه».

●●●

كانت رحلتى إلى العراق يغلب عليها الطابع السيريالى. مع هاليداى، ورفاقى فى فريق العمل التليفزيونى آلان لويرى وبريستون كلوثير، وجرانت روبرتس، أمضيت ست ساعات قلقة، على امتداد طريق هو أشبه بشريط من الحطام، كانت قطع من إطارات السيارات تنقذف فى اتجاهنا، مثل طيور سوداء عملاقة هاربة من زوابع الرمل والغبار. وعلى جانب الطريق كانت ترقد جثتان. كانتا لرجلين يرتديان حلتين وكأنهما مهيآن للدفن، وأذرعهما متيبسة إلى جنوبهما، وكانت هناك سيارة أجرة مقلوبة إلى جوارهما رأسًا على عقب. كان الرجلان يسيران فى اتجاه الحدود، ومع كل منهما حاجاته القليلة التى أصبحت الآن متناثرة بين الشجيرات الشوكية. كان واضحًا أن مكابح سيارة الأجرة قد تعطلت، فصدمتهما السيارة. ومزقت جسديهما. وقدم أهالى المنطقة من وسط الغبار ليقفوا إلى جوار الجثتين، بالنسبة لهم كان هذا مشهدًا عادى الوقوع على الطريق الوحيد الذى يستخدمه الداخلون إلى العراق والمغادرون له.

لم يكن الطريق من عمان فى الأردن إلى بغداد يعتبر فى أى

وقت شريانًا حيويًا، ومع ذلك فقد أصبح الآن معبرًا لمعظم التجارة المسموح بها للعراق ومنفذه إلى العالم الخارجي. كان المسريان الضيقان للطريق تزدحم عليهما ناقلات النفط التى تتحرك فى قافلة لاتبدو لها نهاية؛ والسيارات والباصات الكبيرة والصغيرة المزدحمة بركابها، تمرق خارجة وداخلة، فى مشهد هو أشبه برقصة الموت، المجزرة المحتم وقوعها على الطريق رسمت لوحة على جانبيه لناقلات محترقة، وباص مهشم مثل العلبة الصفيح، وسيارة مرسيدس لمسئول فى الأمم المتحدة مقلوبة على جنبها، بعد أن لقى حتفه فيها راكبها الذى كان فى وقت ما ذا مكانة مميزة.

وطبيعى أن مكابح سيارات الأجرة المتهالكة تتعطل فى كل مكان، ولكن احتمالات البقاء على الحياة هنا تضيق إلى حد كبير. فقطع الغيار اللازمة لهذه الطرز العتيقة من السيارات لم تعد متاحة الآن، والسائقون يمضون على الطريق نهارًا وليلاً مع القدر القليل من النوم. فمع تهاوى قيمة الدينار العراقى فعليًا إلى لا شىء، أصبح حتما عليهم أن يمضوا ذهابًا وإيابًا، من بغداد إلى عمان، ثم من عمان إلى بغداد، لأكبر عدد من المرات، وبأسرع مايمكن. وعندما يقتلون أو تتمزق أشلاؤهم مع راكبى سياراتهم، فإنهم بدورهم يتحولون جميعًا إلى ضحايا لأكثر أنواع الحظر الاقتصادى تعنتا فى الأزمنة المعاصرة.

كانت بغداد لاتكاد ترى وهى قابعة أسفل سحابة بيضاء من الملوثات. وامتدت أذرع غضة إلى نافذة الباص الذى نستقله: صبى يعرض إصبع موز مهترئًا، وصبية تقدم ساق زهرة وحيدة. ١٩٩٠ كان التسول لايكاد يكون معروفًا، وينظر إليه بالامتعاض؛ أما اليوم

فإن بغداد هى نسخة حضرية لما صورته راشيل كارسون فى «الربيع الصامت». لقد هاجرت الطيور، كما ذوت أشجار النخيل فى البلد الذى كان يعرف يومًا بأنه أرض التمور، حفنة من أصابع الموز مع كيس من التفاح الوارد من بيروت يساوى ثمنها راتب معلم لشهر كامل، وأصبح تناول الفاكهة مقصورًا على الأجانب والأغنياء.

الأغنياء، تجار السوق السوداء، عملاء النظام والمقربين المفضلون لديه، هؤلاء جميعًا لايتسنى رؤيتهم، باستثناء المرور عرضًا لسيارة مرسيدس من آخر طراز، ذات زجاج غامق يخفى ما وراءه، وهى تشق طريقها فى المدينة. وحيث صدرت الأوامر إلى أفراد النخبة بالتوارى عن الأنظار، فإن هؤلاء قد حصروا حركتهم فى نطاق شبكة من الأندية والمطاعم والعيادات المكدسة بالأدوية، ويجعل وجود هؤلاء من ادعاءات واشنطن ولندن بأن العقوبات تلحق الضرر بالنظام مجرد لغو فارغ.

وفندق الرشيد هو المكان الذى يمكن أن يلمح فيه جماعة صدام حسين. نظارات سوداء، وشوارب كثة مصبوغة، وأشباح متكاثرة. وتمر فى طريقك إلى داخل الفندق بنموذج للدعاية العراقية السوداء، حيث تجد صورة جدارية مركبة من الآجر، لجورج بوش الأب، وهى تشبه بشكل جيد، وعليها كلمات «جورج بوش مجرم حرب» ويجرى تلميع الوجه بصفة دائمة.

والتقيت هناك المدير المساعد الذى عمل بالفندق منذ الثمانينيات، والذى يوفر إحساسه بالسخرية المريرة من المعايير المزدوجة للغرب مصدرًا للمتعة.

يقول لى: «آه.. أنت صحفى من بريطانيا؟ هل تريد أن ترى أين كان يقيم المستر دوجلاس هيرد، والمستر ديفيد ميلون (هكذا) والمستر تونى نيوتن، وجميع الأعضاء الآخرين فى حكومة مسز ثاتشر.. هؤلاء السادة كانوا أصدقاءنا؛ كانوا أولياء نعمتنا».

وهذا هو تونى نيوتن، وزير التجارة فى حكومة مارجريت ثاتشر، والذى كان - خلال شهر من تسميم الأكراد بالغاز - يجلس على نفس الأريكة البيضاء، يعرض على صدام ائتمانات تصديرية بمقدار ٣٤٠ مليون جنيه إسترلينى من جيوب دافعى الضرائب البريطانيين. وهذا هو مرة أخرى، عقب ثلاثة أشهر، يجلس على نفس الأريكة، محتفلا بحقيقة أن العراق قد أصبح الآن ثالث أكثر الأسواق التى تستورد المعدات الميكانيكية من بريطانيا، والتى كان يتم تحويلها لتصنيع العديد من الأسلحة.

ووفقًا لما كشف عنه استقصاء لاحق أجراه السير ريتشارد سكوت، فإن هؤلاء الأشخاص البارزين الذين ظهرت صورهم فى «بغداد أوبزرفر» كانوا يعلمون أنهم يتعاملون مع الطاغية بشكل غير قانونى.

وودعنى مدير الفندق المساعد قائلاً: «أرجوك. بلغ تحياتى إلى المستر ميلون».

وإذا قرأنا بعناية، فإن التاريخ عادة يمكن أن يقدم لنا تفسيرًا لما يجرى من أحداث. فعلى بعد أميال قليلة من فندق الرشيد، توجد مقبرة يحوطها سور ذو قضبان حديدية، ومن خلفه صفوف من الصلبان الرخامية التى تتعذر رؤيتها مع ماتراكم عليها من طبقات

التـراب والرمـال. هذه هـى «المقبـرة البـريطانيـة» حيث دفن الجنود الذين قاتلوا الأتراك مع اقتراب نهاية الحرب العالمية الأولى.

تقـول لوحـة فى المقـبـرة: هنا بعث أو دفن جـثـمـان الضـبـاط والرجـال الـذين تم إفناهم بعـد وقـوعـهم أسـرى فى يـد الأتراك على أثر سقوط قـوط.. هؤلاء هم الذين برزوا خـلال الأوقات العصيبـة. الجندى ف. د . رينولدز، من سـلاح الجمال الإمبراطورى، كان عـمره تسـعـة عشـر عـامًـا، عندمـا قـتل فى ١١ أكتوبر ١٩١٨، والآن تهشم الصليب الخـاص به، والملازم ثـان فـريدريك إيفـور هيـسـيـجـر، من سـلاح المدفعية الميدانية الملكية، كـان فـى العشرين من عـمره عندمـا تعرض لإصابة قاتلة فى إبريل ١٩١٧، ولأنه كان الابن الأكبر للبارون الثـالث شلمـزفـورد، نائب الملك فى الهند، فإنـه قـد اسـتـأثر بمـقـبـرة خاصة، تنمو عليها الآن الأعشاب والنبات المتسلق.

ولم يكن مـن بين هـذه الشـواهـد مـاحفـر عليـه أن أحـدًا قـد مـات بهـدف «تأمين مـصـدر مـذهـل للقـوة الاسـتـراتيـجـيـة، وإحـدى أكـبـر الجوائز المادية فى تاريخ العالم» وكان هـذا هـو الوصف الذى أطلقته وزارة الخـارجيـة الأمـريكيـة فـى عـام ١٩٤٥ على حـقـول النفط فى الشرق الأوسط.

عقب اكتشاف النفط فى أواخر القرن التـاسـع عشـر، لم تضيع اقوى الأوروبيـة وقتًا، بل بادرت بوضع أيديها على «الجائزة الأكبر». ومع عـام ١٩١٨ شـهـدت هذه القـوى تلاشـى الأتراك العـثـمـانيـين، وقـامت باقـتسـام إمـبـراطوريتهم. وتحـول العـراق مع بقـيـة الأراضى العـربيـة إلى مـسـتـعـمـرات، رغم الـوعـود السـابقـة له بالحـصـول على سـوريا ولبـنان وشمـال العـراق؛ بينمـا اسـتـولت بريطـانيـا علـى بغـداد

والبصرة فى الجنوب. أما الأكراد الذين طالت معاناتهم، فقد تم الإبقاء عليهم فى منطقة منفصلة تحت السيطرة البريطانيين. وعندما قام الأكراد بانتفاضة، قام ونستون تشرتشل، وزير المستعمرات، متفكرًا: «إننى لا أفهم سر هذا التأفف من استخدام الغاز ضدهم. إننى أؤيد بقوة استخدام الغاز السام ضد القبائل غير المتحضرة».

وبعد أن نصبوا ملكًا ألعوبة على العراق، هو فيصل، أخذ البريطانيون فى القضاء على الحركة الاستقلالية، بدك القرى بالمدافع، وقصف المزارع بالقنابل الفوسفورية والقذائف المعدنية المصممة لتمزيق الماشية إلى أشلاء. وظل العراق، مصدر أعلى أنواع النفط العالمى جودة، مستعمرة بريطانية فى كل شىء، باستثناء الاسم،حتى غزو السويس عام ١٩٥٦.

وعقب ذلك بعامين، تمت الإطاحة بالنظام الملكى بواسطة أحد الوطنيين، وهو عبدالكريم قاسم، والذى سرعان ما تحول بدوره إلى ضحية لصراعات مدمرة.

وتبنى النظام الجديد شعارات اشتراكية وحدودية عربية، واتخذ إجراءات لتحقيق التعددية من ضمنها الأخذ بالنظام اللامركزى، والإقرار للأكراد بلغتهم وهويتهم الوطنية. ولكن شركة النفط العراقية، وهى الكونسورتيوم الأجنبى المستغل لنفط العراق، أصبحت فى مواجهة التهديد بخطر التأميم عام ١٩٦٣، وعندئذ بادرت القوة الإمبريالية الجديدة، الولايات المتحدة الأمريكية، إلى التخطيط لإنجاز ما وصفته وكالة مخابراتها المركزية بأنه «الانقلاب المفضل».

يقول جيمس جريتشفيلد، الذى كان عندئذ مديرًا للمخابرات المركزية الأمريكية فى الشرق الأوسط: «نحن نعتبر هذا انتصارًا عظيمًا» وهذا ما يوافق عليه على صالح سعدى، الأمين العام لحزب البعث، حين يقول: «لقد جئنا إلى السلطة فى قاطرة تقودها المخابرات المركزية الأمريكية». وكانت هى التى حرضت بعد ذلك على إطلاق الحكم الإرهابى الذى برز صدام حسين من خلاله، عندما وصل إلى قمة السلطة عام ١٩٧٩، لقد كان رجل أمريكا فى العراق، ويخبرنى سعيد أبو الريش المؤرخ لحياته، «إن هناك الكثير الذى ينبغى على صدام حسين أن يشكر المخابرات الأمريكية المركزية عليه. عليه أن يشكرها لأنها هى التى أوصلت حزب البعث إلى السلطة، ولتقديم العون له شخصيًا، ولتزويده بالمساعدات المالية خلال الحرب ضد إيران، ولتوفير الحماية له من الانقلابات الداخلية، لقد كانت العلاقة بينهما مستمرة منذ أوائل الستينيات حتى الآن، وهى علاقة تجمع بين الحب والكراهية».

وهكذا كان حماس أمريكا الدائم للعراق، أو لنقل امتنانها له، لقيامه بتوفير الحماية للدول العربية التابعة لها من انتشار فيروس الثورة الإيرانية، وحصل صدام حسين على كل شىء أراد، واستمر ذلك على الأغلب إلى ماقبل اليوم الذى قام فيه بغزو الكويت فى أغسطس ١٩٩٠. فعندما قام جون كيلى، مساعد وزير الخارجية الأمريكى، بزيارة بغداد فى ١٩٨٩، كان قوله لصدام: «إنك تمثل قوة اعتدال فى المنطقة، والولايات المتحدة لديها الرغبة فى توسيع نطاق العلاقات مع العراق» وكانت «قوة الاعتدال» هذه قد ادعت للتو خروجها منتصرة فى حربها ضد إيران، وهى الحرب التى نجم

عنها أكثر من مليون من الضحايا، بين قتيل وجريح، على كلا الجانبين.

وعندما قامت جماعات حقوق الإنسان بتقديم الأدلة على أن صدام حسين قد استخدم غاز الخردل وغاز الأعصاب ضد الجنود الإيرانيين، والمدنيين الأكراد، فإن وزارة الخارجية الأمريكية قد رفضت الإعلان عن إدانته. وعندما كان صدام حسين يهيئ قواته للهجوم على جارته الجنوبية، اكتشف مسئول بوزارة الطاقة الأمريكية أن مفاعلات نووية متقدمة يجرى شحنها إلى العراق. وعندما قام هذا المسئول بتنبيه رؤسائه إلى ذلك، تم نقله إلى وظيفة أخرى. «لقد كنا نعلم عن برنامجهم لإنتاج القنابل» هذا هو ما أكده عضو سابق فى إدارة بوش، ثم يضيف: «ولكن صدام كان حليفا لنا».

فى ١٩٩٢، كشف استقصاء للكونجرس الأمريكى عن أن الرئيس جورج بوش الأب وكبار مستشاريه قد أصدروا الأمر بتوفير الغطاء اللازم لإخفاء دعمهم السرى لصدام حسين، وشحنات الأسلحة غير القانونية التى كانت ترسل له من خلال الدول المستخدمة كطرف ثالث. كانت تكنولوجيا الصواريخ تشحن إلى جنوب إفريقيا وإلى شيلى، وعندئذ، ترسل «مباعة» إلى العراق، وخلال ذلك يجرى التغيير والمحو فى سجلات وزارة التجارة الأمريكية. (ويأتى ذلك على غرار الفضيحة التى تكشفت عبر الأطلنطى، والذى شهد شحن معدات تكنولوجية عسكرية بطريقة غير شرعية من بريطانيا إلى العراق، مع إثبات الأردن فى المستندات باعتباره «المستخدم الأخير»).

حتى الأسابيع التى سبقت الغزو العراقى للكويت كانت المخابرات المركزية الأمريكية مستمرة فى تزويد بغداد بفيض من المعلومات الاستخباراتية. ويقول هنرى جونزليز عضو الكونجرس ورئيس اللجنة المصرفية فى مجلس النواب: «إن بوش ومستشاريه كانوا هم الذين قاموا بتمويل وتهيئة وتسليح ذلك الوحش الذى اتجهوا عقب ذلك إلى ذبحه، وهم الآن يقومون بدفن الدلائل على ذلك».

فى عام ١٩٩٤ أثبت تقرير لمجلس الشيوخ الأمريكى عن القيام بنقل العناصر المستخدمة فى إنتاج الأسلحة البيولوجية إلى العراق: البوتيوليزم botulism الذى تم إنتاجه بشركة فى ميرلاند، وتمت إجازته من وزارة التجارة والموافقة عليه من جانب وزارة الخارجية. كما أن الجمرة الخبيثة Anthrax قد تم تزويد العراق بها عن طريق معامل بورتون داون Porton Down فى بريطانيا وهى مؤسسة حكومية. ويقول أحد المشاركين فى الاستقصاء بالكونجرس: «إن الأمر كله يتعلق بالنقود، يتعلق الأمر كله بالطمع. فالحكومة الأمريكية كانت تعرف، والحكومة البريطانية كانت تعرف. ولكن هل أبدى أحد اهتماما؟ لا. لقد كانت منافسة مع الألمان. هذه هى الطريقة التى تجرى بها التجارة فى الأسلحة.

وخلال استقصاء سكوت المماثل فى لندن حول فضيحة تزويد العراق بالسلاح، جرى استقدام تيم لاكستون، مراقب الحسابات فى لندن، لفحص مستندات شركة السلاح البريطانية أسترا **Astra** والتى استخدمتها حكومة ثاتشر سرًا وبشكل غير قانونى كقناة لتسريب الأسلحة إلى العراق. وكان لاكستون واحدًا من المراقبين القلائل الذين تابعوا الاستقصاء بكامله. وهو يعتقد بأنه لو كان

ملخص الدعوى الذى عرضه سير ريتشارد سكوت صريحًا وغير محدود، ولو أن كبار معاونى ثاتشر وموظفيها المدنيين قد أجبروا على الإدلاء بشهاداتهم تحت القسم. ولو تم ذلك أيضًا بالنسبة للكثيرين من الشهود ذوى الأهمية الذى لم يتم استدعاؤهم، فإن النتيجة كانت يمكن أن تكون بالغة الاختلاف عن مجرد الحرج الطارئ الذى تعرضت له حفنة من الوزراء. ويقول مؤكدًا ذلك: «إن المئات كان يمكن أن يواجهوا التحقيق الجنائى. بما فى ذلك شخصيات سياسية فى موقع القمة، وموظفون مدنيون ذوو مراتب بالغة الارتفاع فى وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووزارة التجارة... الشريحة الأعلى فى الحكومة».

تزويد علنى بالسلاح

فى وسط بغداد يرتفع نصب ضخم يملأ العين وهو إحياء لذكرى أو للاحتفاء بتلك الحرب التى دارت بين عامى ١٩٨٠ و١٩٩٠ بين العراق وإيران والتى بدأها صدام حسين بإيعاز من الأمريكيين الذين أرادوا استخدامه لتدمير خصمهم الجديد فى المنطقة وهو آية الله الخمينى. وقد صب هذا النصب لتمسك ذراعاه الأماميتان، والمشهور أنهما على شكل ذراعى صدام، بسيفين متقاطعين، رمزًا للانتصار. ولكن حين استعرض ماجرى فى هذه الحرب من مشاهد القسوة، لا أستطيع أن أتصور وجود مشاهد أخرى، فى أى مكان فى العالم، يمكن أن تعبر بشكل أفضل عن جرائم الحرب، وما يرتبط بها من جرائم الاتجار فى السلاح. لقد كانت أمريكا وبريطانيا تزودان كلا الجانبين بالسلاح الذى يقتتلان به.

●●●

كنا نقيم فى فندق فلسطين. الذى يقع على بعد مسافة قصيرة من فندق الرشيد . وكانت رائحة البترول نافذة بشكل مستمر فى أرجاء الفندق. وإذا ما استمر بقاؤك لفترة طويلة فى الداخل يكون شعورك بالغثيان. فلأن العقود الخاصة باستيراد المطهرات «معلقة» فى نيويورك فإن البترول، وهو هنا أكثر وفرة من الماء، يجرى استخدامه كبديل لها. وفى بهو الفندق هناك مكتب لشركة الخطوط الجوية العراقية، وهو مفتوح كل يوم، وتقبع بداخله موظفة تجلس خلف طاولة تبتسم وتوجه تحية الصباح إلى الضيوف العابرين. لم يكن لديها زبائن حيث لم يعد هناك وجود للخطوط الجوية العراقية التى لاقت حتفها مع فرض العقوبات. كان هناك اثنان من الطيارين يقفان فى الخارج إلى جانب سيارتى الأجرة اللتين يعملان عليهما، وكان آخرون يكنسون البهو الخارجى أو يبيعون الثياب المستعملة.

وفى غرفتى كان الجص يتساقط كل ليلة من السقف والجدران، والمياه تنزل من الصنبور بلون بنى، والفوطة الوحيدة التى أحضرتها الخادمة تبدو مثل التحفة المتوارثة. وعندما طلبت إحضار قهوة فى غرفتى ظل الخادم يحوم فى الخارج حتى انتهيت، وعاد ليستعيد الأطباق التى أصبح من الصعب الحصول عليها. «إننى حزين دومًا» قال لى بنبرة تقريرية. ففى خلال شهر سيكون قد وفر مايكفى من النقود يرسل به مع شخص متوجه إلى عمان لشراء حبوب لعلاج الصرع الذى يعانى أخوه نوباته.

إن الكآبة تلف جميع الناس. شعرت بذلك فى يوم سوق مسائى مفتوح فى بغداد حيث يعرض الناس ممتلكاتهم الحميمة للبيع،

ليشتروا بثمنها طعامًا ودواء. أجهزة التليفزيون من الأغراض الشائع عرضها للبيع، كانت امرأة مع طفليها يشاهدون كراسيهم المتنقلة تباع بدراهم زهيدة. ورجل كان يهوي تربية الحمام منذ صغره جاء ليعرض آخر حمامة لديه للبيع. وفى المرة التالية سيكون الدور على القفص.

كنت مع طاقم التليفزيون المرافق لى قد جئنا بدافع الفضول، ومع ذلك فقد كنا نقابل بالترحيب، أو كان الناس يلقوننا بالتوقير، كما هو حال منكسرى الخاطر. وعلى مدى ثلاثة أسابيع فى العراق كان تعرضى مرة واحدة لمشاعر الغضب من جانب شخص ما: «لماذا تقتلون الأطفال؟» صاح الرجل الذى كان يمضى فى الطريق «لماذا تقصفوننا؟ ماذا فعلنا بكم؟» واتجه المارة نحوه فى سرعة فى محاولة لتهدئته، وحوط أحدهم كتفه بذراعه فى تعاطف، بينما اتجه أحدهم وهو معلم ليقف إلى جانبى متحدثًا إلى: «نحن لانربط بين الشعب البريطانى وبين أعمال حكومته» قال لى ذلك ليبث فى الطمأنينة. فهؤلاء المسلمون الذين يعيشون فى بريطانيا والذين دفعهم الرعب إلى التخوف من مغادرة بيوتهم عقب قصف أفغانستان، لم يشعروا إلا بالقدر الضئيل من ذلك الأمان الشخصى الذى شعرت به أثناء وجودى بالعراق.

من خلال الأبواب الزجاجية لمكاتب اليونيسيف، صندوق الأمم المتحدة للطفولة فى بغداد، يمكنك أن تقرأ العبارة التالية عن الهدف الذى يعمل به: «قبل كل شىء حق الحياة والأمل والنمو والاحترام والكرامة والمساواة والعدل للنساء والأطفال»، ولحسن الحظ فإن الأطفال فى الشارع الخارجى بأطرافهم الهزيلة،

ووجـوههـم الطويلـة النحـيلة، ليس فى إمكانهم قـراءة الإنجليـزيـة، وربما لايستطيعون القراءة إطلاقًا.

«على حسب خبرتى فإن التغير الذى حدث على مدى مثل هذه الفتـرة القصيـرة هو أمـر لامـثيل له». كان هـذا مـاذكرته الدكـتورة أنوبامـا راو سـنج ممثلة اليـونيسـيف فى العـراق. وأوضـحت ذلك بقولها: «فى عام ١٩٨٩ كان معدل التعليم أكثر من تسعين فى المائة، وكـانت الغـرامـة تفـرض على الوالدين إذا لـم يرسلوا بـأبنائهـم إلى المدرسة. أمـا ظاهرة أطفـال الشـوارع فلم يكن يسمـع عن وجودهـا. كان العراق قد وصل إلى مـرحلة جعلتـه بين بعض أفضل الدول فى العـالم من حيث المؤشـرات الأسـاسـيـة التى نسـتـخـدمـهـا لقـيـاس الرفاهية الشاملة التى يتمتع بها الناس فى بلدة بمن فيهم الأطفال، أما الآن فـإنه قد هبط إلى القاع ليصبح بين العشرين فى المائة من دول العالم الأكثر فقرًا».

لقـد أخـذتنى الدكـتورة سنج إلى مـدرسـة ابتـدائيـة فى مـدينة صدام، حيث تعيش الغـالبيـة الأكـثـر فقـرًا فى بغداد واقـترينا من المدرسة ونحن نخوض فى طرق تفيض عليها ميـاه المجـارى. فنظام الصـرف الصـحى وتوزيع الميـاه قد تهـاوى منذ أن تعـرض للقـصف الجـوى فـى حـرب الخليـج. وقـادنا ناظـر المدرسـة على حـسون حـول البرك الموحلة التى كونتهـا مياه المجارى فى الفناء، وأشار إلى المدى الأعلى الذى ترتفع إليه المياه لتغطى الجدار وهو يقول: «فى الشتاء وعندمـا تصل المياه إلى هذا الحد فإننا لانجـد مفـرًا من مغـادرة المدرسـة. نحن نستـمر هنا لأطول فترة ممكنة. ولكن الأطفـال الذين لاتتـوافـر لهم مـقـاعـد للدراسة يكون عليهم الجلوس على قوالب من

الطوب. إننى أخشى انهيار المبنى». وبينما كنا نتحدث وصل إلى أسماعنا الصوت المدوى لغارة جوية يأتى إلينا من مسافة بعيدة.

أشكال مختلفة من المعاناة

قبيل الاحتفال بعيد الكريسماس لعام ١٩٩٩ قامت وزارة التجارة والصناعة فى لندن بفرض قيود على تصدير اللقاحات المطلوبة لوقاية الأطفال العراقيين من التعرض للإصابة بالدفتريا والحمى الصفراء. وقام الدكتور كيم هاولز بإبلاغ البرلمان بالسبب فى اتخاذ هذا الإجراء، إن اللقب الذى يحمله كوكيل وزارة لشئون المنافسة والاستهلاك يتناسب تمامًا مع إجابته الأورويلية «نسبة إلى الكاتب البريطانى أورويل»: «إن هناك إمكانية لاستخدام لقاحات الأطفال فى إنتاج أسلحة الدمار الشامل».

«إن الكثير من أنواع المعاناة لاتبدو ظاهرة للأنظار. هذا ماتذكره الدكتورة سنج، وتوضحه بقولها: إن هناك زيادة بنسبة ١٢٥ فى المائة فى عدد الأطفال الذين يحتاجون المساعدة للعلاج من مشاكل التخلف العقلى. وفى مجتمع يأخذ التعليم بجدية بالغة نجد أن أغلب البيوت قد تجردت من المواد المحفزة الأساسية مثل الكتب واللعب، لأن غالبية الأسر حتى يمكنها تدبير حياتها قد قامت ببيع كل شىء تمتلك باستثناء الضروريات التى لاغنى عنها. إن لدينا هنا جيلا كاملاً قد شب على الشعور بالعزلة الكاملة والإحساس بالعجز المطلق والافتقار إلى الأمل، إننى دومًا أفكر فى أبناء إخوتى وأخواتى، وأسأل نفسى: «هل أقبل أن يحدث ذلك لأفراد أسرتى» وإذا لم أكن أقبل أن يحدث ذلك لهم فمن غير المقبول أن يحدث لأطفال العراق. وليست هذه مجرد عواطف فارغة إنها من

المعتقدات الأساسية التى تضمنها ميثاق الأمم المتحدة لحقوق الطفل فى مادته الثانية، إنه مبدأ عدم التمييز. إن الأمر ببساطة هو ألا يفقد هؤلاء الأطفال حقهم فى الحياة.

ومن المشاهد المألوفة أن تجد طلاب المدارس والكليات يتوافدون إلى أسواق الأغراض المستعملة لبيع كتبهم، وليس ذلك بسبب الاستغناء عنها، وإنما للحاجة الماسة إلى ثمنها الهزيل. وإلى هذه الأسواق يتوافد المعلمون والمهنيون لبيع مجلداتهم الثمينة من كتب الفن والتاريخ، والمجلدة فى بغداد منذ سنوات الثلاثينيات، وكتب طبية فى علم التوليد والأشعة، وأعداد من الجريدة الطبية البريطانية، والطبعتين الأولى والثانية من «فى انتظار جودو» و«الشمس تشرق أيضًا»، بل إن هناك «سياسة الإسكان فى بريطانيا لعام ١٩٥٨».

تقدم منى رجل رث الهيئة ذو شارب رمادى مقصوص، ليقول لى: «أحتاج إلى الذهاب جنوبًا لرؤية أختى المريضة، أرجو أن تعطينى خمسة وعشرين دينارًا «مايعادل بنسًا واحدًا». وأعطيته المبلغ الذى تناوله شاكرًا وهو يومئ برأسه، ثم مضى بخطى سريعة. وقال لى معلم: لقد بعت كل كتاب لدى، حتى القرآن والقاموس. وقال طالب هندسة فى التاسعة عشرة من عمره: لقد بعت كل أقلامى، لم أبق إلا على واحد فقط».

لمحت أن وفيليستى أريثنوت كتابا بعنوان «السلام منهمر من السماء» وحملقنا فى هذه الكلمة المنطوية على سخرية كئيبة، واشترينا الكتاب. إن المحنة المرعبة التى يعيشها هذا المجتمع قد جعلت حتى من مجموعة شعرية تغلب عليها العاطفية الطفولية

تبدو قادرة على إثارة المشاعر:

السلام ينهمر من السماء

يهبط إلىَّ عبر الهواء

غناء الطيور يخرج بى من نشوتى

ليذكرنى بواقع الحياة.

لقد أمضت فيليستى أريثنوت العقد الأخير من السنوات وهى تحاول تنبيه العالم الخارجى إلى معاناة الشعب العراقى. وبين وقت وآخر كانت تخاطر بقطع الطريق المرعب من عمان دون أن تصدر عنها أى شكوى مما تلاقيه من صعاب، وتستمد الحافز دومًا من شجاعة هؤلاء العراقيين الذين صادفتهم، وخاصة الأطفال منهم. (اقرأ ما وجهته من ثناء إلى جاسم فى نعيها له «الشاعر الصغير» وصحيفة نيو أنترناشيونالست» نوفمبر ١٩٩٨). وعندما بدأت رحلتى من الأردن مع فيليستى وهاليداى (وكلاهما أيرلندى) كانت تلف رسغها المكسور برباط ضاغط، وكان التعرض لكل حفرة فى الطريق يسبب لها ألما تحاول مداراته بإبداء المرح، كانت تذكرنى بمغامرة صحفية إنسانية أخرى هى مارثا جيلهورن: كانت تشرب وتضحك وتبدى سخطها البالغ على الظلم والنفاق، وتهتم بالضعفاء وتكتب بأسلوب جميل.

طلبت من فيليستى أن تعد بحثًا «خاصًا» بالفيلم التسجيلى الذى كنت أعد له «دفع الثمن». واتجهنا جنوب مدينة الموصل فى الشمال ووصلنا إلى موقع كان مشهدًا لعملية تدمير منذ ستة شهور، حيث كانت فيليستى موجودة هناك عندئذ وعلى امتداد منطقة مفتوحة

ومترية من الأرض كانت لاتزال هناك أجزاء من سيارة لنقل المياه «تانكر» وشظايا صاروخ وحذاء وصوف وبقايا خراف، قالت فيليستى: «لقد وجدت المنطقة بكاملها مغطاة بالخراف الميتة، كان هناك أيضًا كلبا حراسة نافقان وأمتعة شخصية. كان من الواضح أنها خسائر ناجمة من عملية قصف. كانت ناقلة المياه تخترقها ثقوب القذائف فى أماكن عديدة. وأبلغنى الأهالى المحليون بأن هذا قد حدث فى يوم جمعة. كان يقطن المنطقة أسرة من الرعاة. تتألف من الجد والأب وأربعة من الأبناء. وسمع الأهالى هدير الطائرة وانفجارات القنابل وسارعوا إلى المنطقة التى تعرضت للقصف، حيث أخذوا يواصلون البحث من الصباح الباكر حتى حلول الظلام فى محاولة للكشف عن جثث الضحايا للمبادرة بدفنها على وجه السرعة وفقًا للطقوس الإسلامية».

وأمكننا التوصل إلى حسين جرسيس شقيق الراعى الضحية. ووافق على أن يلتقينا فى المقبرة التى دفن بها أباه وأخوه وأبناؤه الأربعة. وحضر إلى المكان يستقل سيارة نقل «تويوتا» مع أرملة أخيه الراعى. كان وجهها مغطى، وظهرها محنيًا من الحزن، وكانت تمسك يد ابنها الصغير المتبقى لها. وجلس الجميع إلى جانب نصب من الطين يعلو مقبرة الأعزاء الراحلين. وانفجرت الأرملة فى البكاء. وعندما تقدمت فيليستى إليها فى محاولة للمواساة والاعتذار عن المذبحة التى وقعت، نهضت الأرملة الموشحة بالسواد لتواجهها قائلة: «أريد أن أتكلم مع الطيار الذى قتل أبنائى الأربعة».

إن شقيق زوج الأرملة يعمل بدوره راعيًا للأغنام. وبعد أن أدى الصلاة على روح أخيه إلى جانب مقبرته اتجه إلينا قائلا: «عندما

قدمت لرؤية أخى وأسرتى كانت الطائرات تحلق فوق رءوسنا. ولم أكن قد وصلت إلى الطريق المؤدى إلى المنطقة عندما تم إطلاق القذيفة الرابعة. وكان الصاروخان الآخران هما اللذين أصابا أسرتى. فى ذلك الوقت لم أستطع إدراك مايجرى حولى. كانت النيران مشتعلة فى الناقلة. كانت ناقلة كبيرة ولكنها أصبحت ممزقة إلى أشلاء. لم يتبق منها سوى لوحة الأرقام والإطارات التى ترون. رأينا ثلاث جثث ولكن الباقين كانوا مجرد أشلاء جثث محترقة، كان هناك أيضًا الأغنام. ومع الصاروخ الأخير، شاهدت أجسام الأغنام تتناثر فى الهواء. لقد أدى انفجار الصاروخ إلى اشتعال النيران فى منطقة تبلغ مائة متر مربع. اشتعل كل ما فيها بالكامل. وفى عملية القصف الأخيرة، كانت الطائرات تحلق على بعد مسافة بالغة الانخفاض. عندئذ تم إطلاق قذيفتين فى ذات الوقت، وكانت المحصلة هى مصرع ستة أشخاص. والدي الذى كان يبلغ من العمر سبعين عامًا، وأخى الذى كان عمره خمسة وثلاثين عامًا، وقتل معهما الأطفال الأربعة. كان أصغرهم، واسمه سلطان، فى الخامسة من العمر، ولم يكن قد تم قبوله بعد فى المدرسة. كان يخاطبنى قائلاً: «عم. إننى سألتحق بالمدرسة فى العام القادم» ولكن مشيئة الله لم تدعه يفعل ذلك، إنا لله وإنا إليه راجعون.

وبعد مقتل قطيع الأغنام لم يعد لدى الأسرة أى مصدر للرزق. وعرضت على الرجل نقودًا، ولكنه رفض، وطلب منى أن أتوجه معه إلى بيته لتناول شىء من الطعام.

وتم استقصاء ظروف وقوع هذا الهجوم من جانب هانز فون سبونيك كبير مسئولى الأمم المتحدة فى العراق والذى اتجه من

بغداد إلى هناك لهذا الغرض. لم يكن هناك فى المنطقة المجاورة مايمكن أن يوحى بأنه منشآت عسكرية يمكن أن يكون القصف قد استهدفها. فالوادى يبدو مقفرًا خاليًا من الأشجار وممتدًا ومهجورًا. وسجل فون سبونيك ما توصل إليه فى وثيقة سرية داخلية حملت عنوان: «الضربات الجوية على العراق من ٢٨ ديسمبر ١٩٩٨ إلى ٣١ مايو ١٩٩٩» أعدها القسم الأمنى للأمم المتحدة (UNOHCI) ولقد تم إعداد عشرات التقارير لوصف هجمات مماثلة على القرى وعلى مرفأ للصيادين يقع قرب مخزن لبرنامج الغذاء العالمى. وكانت أوامره إلى قوافل الإغاثة التابعة للأمم المتحدة بالتوقف عن الحركة لعدة ساعات فى المساء حتى لا تتعرض للهجمات التى كانت كثيرًا ماتقع فى هذا الوقت.

وعندما عادت إلى لندن بعد أن شهدت الدلائل على ارتكاب هذه المذبحة، اتصلت فيليستى هاتفيًا بوزير الدفاع قائلة: «لقد عدت توا من الموصل. أنتم تقصفون هناك قطعان الأغنام، وأنا أتساءل عما إذا كان لديك تعليق». وكانت إجابة المسئول: «نحن نحتفظ لأنفسنا بالحق فى اتخاذ إجراءات عنيفة إذا كان هناك مايمكن أن يهددنا».

مضينا إلى ماوراء التلال الداكنة الصفرة الواقعة خلف الموصل، على طول طريق تحفه المخاطر صوب دير يعود تاريخ بنائه إلى القرن الرابع، وينتصب عاليًا مطلاً على الأودية المحيطة به. فى هذه البقعة دفن القديس ماثيو، وإليها يتوافد المسيحيون العراقيون بالمئات للصلاة فى ضريحه. وفى نهايات الأسبوع يصبح الدير مزارًا شعبيًا. هناك التقيت أسرة مؤلفة من عشرين شخصًا، أصغرهم طفل فى الثانية من عمره، وأسنهم شيخ فى الثامنة

والستين، وأبلغونى أن لهم أقارب يعيشون فى استراليا. وقمت بالتقاط صور لهم أرسلت إليهم فيما بعد نسخًا منها، كما أرسلت نسخًا إلى فرعهم الاسترالى فى ضواحى سيدنى.

وتحدث هؤلاء العراقيون المسيحيون عن عمليات القصف، وتساءلوا عن السبب الذى يدعوا إلى ذلك وهم يهزون رءوسهم أسفًا ويمسكون بأيدى أطفالهم الصغار ليظلوا قريبين منهم. وقال لى أحد القسس: لقد انتهى ماكان هؤلاء الناس يعيشونه من سلامة وسلام. وفى العام الماضى صعد العشرات من الناس إلى المرتفعات لمشاهدة كسوف الشمس، وهى الظاهرة التى تكون هنا أكثر وضوحًا من أى مكان آخر فى العالم، ولكنهم تعرضوا للقصف من جانب الطائرات. هل كانت طائرات أمريكية أو بريطانية؟ لا أدرى. قيل لنا إن عشرة أشخاص قد لقوا حتفهم بسبب هذا القصف. فى كل يوم نسمع أصوات. القصف فماذا يهاجمون؟!.

●●●

تقوم المقاتلات الأمريكية والبريطانية بعملياتها فى الأراضى العراقية فوق ما أعلنت حكومتاهما من جانبهما أنه «مناطق محظورة الطيران». وتعنى ذلك أنهما وحدهما مع حلفائهما يمكن لهم الطيران فوقها. وتقع المناطق المعنية فى الشمال حول الموصل على الحدود مع تركيا وابتداء من جنوب بغداد حتى الحدود مع الكويت. وتصر الحكومتان الأمريكية والبريطانية على أن الطيران فوق هذه المناطق يعد «قانونيا» مدعيتين أن ذلك جانب من قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٨ وأن القرار يدعم مثل هذا الإجراء.

وهناك قدر كبير من الضبابية حول هذا الأمر، وهى نفس الضبابية التى تتسم بها بيانات الخارجية البريطانية عندما تواجه التحدى. فليس هناك فى قرارات مجلس الأمن ما يشير إلى مناطق يحظر فيها الطيران، الأمر الذى يعنى أن مثل هذا الإجراء لا يستند إلى أى أساس فى القانون الدولى. وللتأكد من ذلك توجهت إلى باريس لسؤال الدكتور بطرس بطرس غالى الذى كان يشغل منصب الأمين العام للأمم المتحدة عام ١٩٩٢. وأجاب قائلاً بأن موضوع المناطق التى يحظر الطيران فوقها لم يطرح أساسًا للمناقشة وبالتالى لم تتم مناقشته ولم يدر حوله ولا كلمة واحدة. ليس هناك ما يوفر أى شرعية للدول التى ترسل بطائراتها المقاتلة للهجوم على العراق.

سألته: هل معنى ذلك أن الطيران فوق هذه المناطق غير قانونى؟

وكانت إجابته: نعم، إنه غير قانونى.

إن اتساع نطاق القصف فى المناطق المحظور فيها الطيران يبدو مثيرًا للدهشة. فخلال الشهور الثمانية عشرة التى سبقت ١٤ يناير ١٩٩٩ كانت المقاتلات الجوية الأمريكية التابعة للقوات الجوية والأسطول تقوم بستة وثلاثين ألف طلعة فوق الأراضى العراقية، كان من بينها أربعة وعشرون ألف مهمة قتالية. وخلال عام ١٩٩٩ قامت المقاتلات الجوية الأمريكية والبريطانية بإسقاط أكثر من ١٨٠٠ قنبلة، وشمل القصف ٤٥٠ هدفًا. ويقدر حجم التكلفة التى تحملها دافعو الضرائب البريطانيون لشن هذه الهجمات أكثر من ٨٠٠ مليون جنيه إسترلينى.

كادت عمليات القصف أن تكون يومية. إنها المعركة الجوية الأنجلو أمريكية الأطول منذ الحرب العالمية الثانية، ورغم ذلك فقد تم تجاهلها إلى أبعد الحدود من جانب وسائل الإعلام البريطانية والأمريكية. وفى إقرار نادر الحدوث ذكرت صحيفة نيويورك تايمز: «أن الطائرات الحربية الأمريكية قد قامت بطريقة منتظمة، وبدون أن يجرى من الناحية الفعلية أى نقاش عام، بشن الهجوم على العراق. لقد قام الطيارون بشن غارات هناك تعادل ثلثى الغارات التى شنها طيارو حلف الأطلسى على يوجوسلافيا على مدى الساعة طوال سبعة وعشرين يومًا».

والغرض من المناطق المحظور فيها الطيران، وفقا لما تذكره الحكومتان البريطانية والأمريكية، هو توفير الحماية للأكراد فى الشمال والشيعة فى الجنوب من قوات صدام حسين. ويذكر تونى بلير أن الطائرات المقاتلة تؤدى دورًا إنسانيًا بالغ الأهمية سيتيح للأقليات الأمل فى الحرية والحق فى تقرير مصيرهم. ولكن التاريخ السرى يكذب مثل هذه العبارات الفضفاضة من جانب بلير. فعندما طرد صدام حسين من الكويت عام ١٩٩١، فوجئ جنرالاته بإبلاغهم من جانب المنتصرين بأن فى إمكانهم الاحتفاظ بطائرات الهليكوبتر المقاتلة الخاصة بهم. وقام قائد القوات البريطانية الجنرال سير بيتر دى بلبير بالدفاع عن هذا القرار بالمنطق الغريب التالى: «كان العراقيون يتولون مسئولية الحفاظ على القانون والنظام؟ وليس فى إمكانك إدارة شئون البلاد دون أن يتاح لك استخدام طائرات الهليكوبتر». القانون والنظام هما نفس القانون والنظام اللذان وافقا على قتل خمسة آلاف من الأكراد فى حلبجة باستخدام الغازات السامة؟

ملاحظة عابرة من جانب رئيس الوزراء البريطانى السابق جون ميجر تقدم إشارة تساعد على الإجابة على السؤال. يقول ميجر: «لا أتذكر أننا قد طلبنا من الأكراد أن يقوموا بإثارة هذه الانتفاضة من جانبهم».

أهمية بالغة

إن تركيا تشكل أهمية بالغة بالنسبة لـ «النظام العالمى» الأمريكى، وحيث تطل تركيا على حقول النفط فى الشرق وجمهوريات آسيا الوسطى (السوفيتية سابقًا) فإنها قد أصبحت عضوًا فى حلف شمال الأطلسى، ومتلقية لأسلحة أمريكية تقدر قيمتها ببلايين الدولارات، وهى توفر قاعدة للقاذفات المقاتلة الأمريكية والبريطانية. وتنظر واشنطن إلى الانتفاضة التى يخوضها الأكراد منذ مدى طويل بقيادة حزب العمال الكردستانى باعتبارها خطرًا يهدد «استقرار» النظام التركى شبه الفاشى. وفى أعقاب حرب الخليج كان آخر مايرغب الأمريكيون فى وقوعه هو تدفق عشرات الآلاف من اللاجئين الأكراد إلى تركيا ليشكل وجودهم دعمًا للصراع الذى يخوضه الأكراد المحليون ضد النظام الحاكم فى أنقرة. وانعكست هذه المخاوف فى قرار مجلس الأمن ٦٨٨ الذى حذر من «تدفق كاسح للاجئين فى اتجاه وعبر الحدود الدولية.. وهو الأمر الذى يهدد السلام والأمن فى المنطقة».

ومايشكله اللاجئون من تهديد كان فى حقيقة الأمر هو قدرة تركيا على الاستمرار فى إنكار الحقوق الإنسانية للأكراد داخل حدودهم. وجاءت منطقة حظر الطيران فى الشمال لتقدم الحل. ومنذ عام ١٩٩٢ وفرت هذه المناطق غطاء للاقتحامات التركية

المتكررة للأراضى العراقية. وبين عامى ١٩٩٥ و١٩٩٧ قام مايصل إلى خمسين ألفا من القوات التركية مدعومة بالدبابات والقاذفات المقاتلة وطائرات الهليكوبتر القاصفة بإحتلال قطاعات من «الملاذ الآمن» الكردى بدعوى أنها قواعد لشن الهجمات من جانب حزب العمال الكردى. وفى ديسمبر ٢٠٠٠ عادت القوات التركية لتروع القرى الكردية وتقتل المدنيين. ولم تصدر كلمة واحدة عن الولايات المتحدة وبريطانيا، كما لم تصدر كلمة واحدة عن مجلس الأمن. والأكثر من ذلك هو أن الأمريكيين والبريطانيين قد تواطأوا مع هذه الهجمات، عندما أوقفوا طلعاتهم الجوية للسماح للأتراك بارتكاب أعمال القتل. وواقع الحال يشهد بأن وسائل الإعلام الغربية لم تتناول مثل هذه الأمور.

فى مارس ٢٠٠١ قام طيارو القوات الملكية الجوية الذين يجوبون أجواء منطقة حظر الطيران الشمالية بالاحتجاج لأول مرة على دورهم فى قصف العراق. وبشكل أبعد مايكون عن «المهمة الإنسانية بالغة الأهمية» التى تحدث عنها تونى بلير كانت شكوى هؤلاء الطيارين من الأوامر المتكررة الصادرة إليهم بالعودة إلى قواعد انطلاقهم فى تركيا للسماح للقوات الجوية التركية بقصف الأكراد فى العراق، وهم ذات الشعب المقصود منهم توفير «الحماية» له. وتحدث هؤلاء الطيارون على أساس من عدم الكشف عن المصدر إلى الدكتور أريك هيرنج المتخصص فى موضوع العقوبات على العراق فى جامعة بريستول، وقالوا إنه فى الوقت الذى كان الأتراك يرغبون فى قصف الأكراد فى العراق كانت طائرات القوات الجوية الملكية يتم استدعاؤها للعودة إلى قواعدها، وكان يطلب من الطاقم

الأرضى إغلاق أجهزة الرادار التى يعملون عليها بحيث لاتظهر عليها الأهداف التركية. وذكر طيار بريطانى أنه قد شهد الدمار الذى لحق بالقرى الكردية نتيجة لهذه الهجمات عندما عاود التحليق فوق المنطقة. ويقول دكتور هيرنج: «لقد كانوا غير سعداء بما يرون خاصة أنه لم يكن هناك أى تفسير رسمى لما يجرى».

فى أكتوبر ٢٠٠٠ ذكرت صحيفة واشنطن بوست: «فى أكثر من مرة كان الطيارون الأمريكيون الذين يقودون طائراتهم يتلقون رسائل لاسلكية تعنى أن مهمة تركية خاصة تتجه إلى داخل العراق. وعقب تلقى هذه الأوامر المتفق على دلالتها كان الأمريكيون يعودون بطائراتهم إلى تركيا». يقول الطيار مايك هورن: «كنت ترى الطائرات التركية إف - ١٤ وإف - ١٦ محملة إلى آخرها بالعتاد العسكرى ثم تعود عقب نصف ساعة وقد أفرغت كل حمولتها».

ويستعيد ذكرياته قائلا: «عندما كان الأمريكيون يعاودون الطيران فى الفضاء الجوى العراقى كانوا يرون القرى المحترقة، تشتغل فيها النيران، ويتصاعد منها الدخان الكثيف».

●●●

خلال حرب الخليج قام الرئيس جورج بوش الأب «بدعوة الجيش العراقى والشعب العراقى إلى أن يأخذوا الأمور فى أيديهم، ويجبروا صدام حسين على اعتزال السلطة». وفى مارس ١٩٩١ استجابت الأغلبية الشيعية فى جنوب العراق إلى دعوة بوش، وقامت بتنظيم انتفاضة. وفى البداية حقق هؤلاء نجاحًا كبيرًا إلى حد أنه خلال يومين فقط تهاوى حكم صدام حسين فى جنوب

العراق، وامتدت هذه الانتفاضة إلى البصرة ثانى أكبر المدن العراقية. وبدا كما لو أن بداية جديدة قد أصبحت فى متناول يد الشعب العراقى، ولكن العشيقة القديمة للطاغية فى واشنطن تدخلت فى الوقت المناسب.

يبلغنى سعيد أبو الريس: «لقد وجدت عناصر المعارضة نفسها فى مواجهة الولايات المتحدة التى كانت تقدم الدعم لصدام حسين ضدهم. لقد منع الأمريكيون الثوار بشكل فعلى من الوصول إلى مخازن السلاح؛ ورفضوا توفير مأوى لهم؛ ووفروا للحرس الجمهوري الخاص بصدام حسين حتى يقوموا بالهجوم على الثوار. فعل الأمريكيون كل شىء باستثناء القتال إلى جانبه».

وفى كتابهما «من بين الركام: بعث صدام حسين» وصف الكاتبان أندرو وباتريك كوكبيرن الهلع الذى أصاب أحد قادة الثوار وهو برتبة عقيد، عندما شاهد طائرات الهليكوبتر الأمريكية تحلق فوق رأسه، فى حين كان طاقم طائرات الهليكوبتر العراقية الحكومية يصب الكيروسين فوق طوابير اللاجئين الهاربين، ليتم بعد ذلك إلقاء قذائف اللهب لإشعال النار فيهم. يقول هذا الضابط: «لقد رأيت بعينى الطائرات الأمريكية وهى تحلق فوق طائرات الهليكوبتر.. كنا نتوقع منهم أن يقدموا لنا المساعدة، ولكننا وجدناهم يشهدون عملية إفنائنا، كانوا يلتقطون صورًا، وكانوا يعملون على وجه الدقة بكل مايجرى».

وفى الناصرية، قامت القوات الأمريكية بمنع القوات من الاستيلاء على البنادق والذخيرة من مخازن العتاد العسكرى. وكتب أندرو وباتريك كوكبيرن يقولان: «لقد كشف الثوار العراقيون للقائد

الأمريكى عن هويتهم وعن السبب الذى جاءوا من أجله، ولكنهم لم يلقوا استقبالا وديًا. لقد غاب الضابط الأمريكى عشر دقائق، وعاد بعد ذلك بادعاء غريب هو أنه قد فقد الاتصال مع قيادته. واقترح عليهم باقتضاب أن يحاولوا الوصول إلى القوات الفرنسية على بعد ثمانين ميلا فى اتجاه الغرب».

وتمكن الثوار من العثور على كولونيل فرنسى كانت لديه رغبة فى المساعدة، ولكنه عندما أراد الاجتماع مع الجنرال شوارزكوف القائد العسكرى الأمريكى كان إبلاغه بعدم إمكان ذلك. وكانت الثورة مقضيًا عليها بالفشل، نتيجة لضياع ذلك الوقت بكل ماله من أهمية بالغة. وكانت البصرة هى أولى المدن التى سقطت فى يد قوات صدام حسين. استولت الدبابات على الطريق الرئيسى، وقضت على مراكز المقاومة. «كان فى إمكانك أن ترى الكلاب وهى تنهش الجثث الملقاة فى الطرق».

وفى الشمال قام الأكراد بدورهم بتنظيم انتفاضة: إنها الثورة التى قال جون ميجر إنه «لم يطلب إطلاقًا القيام بها». وقام الحرس الجمهورى التابع لصدام حسين، والذى أبقى عليه الجنرال شوارزكوف عن قصد، بالدخول إلى مدينة السلمانية الكردية، وتمكن من إخماد المقاومة الكردية، وتمكن صدام حسين من البقاء فى الوقت الذى كانت قواته فى ظروف حرجة. ففى الوقت الذى كانت فيه هذه القوات تحتفل بانتصارها كانت الذخيرة قد نفدت منها.

وعقب ذلك بخمس سنوات عندما بعث صدام حسين بدباباته لإخماد ثورة مدينة كردية أخرى هى مدينة أربيل، حلقت الطائرات الأمريكية فوق المدينة لمدة عشرين دقيقة، ثم واصلت الطيران

بعيدًا، وعملت عناصر المخابرات المركزية الأمريكية التى كانت بين الأكراد للهرب بعيدًا إلى ملجأ آمن، فى حين تم تطويق وإعدام ستة وتسعين عضوًا فى المجلس الوطنى العراقى الذى شكلته المخابرات المركزية الأمريكية. ووفقًا لما يقوله أحمد الجلبى عضو المجلس فإن التأييد الأمريكى الضمنى للنظام كان «العامل الأكثر تأثيرًا فى القدرة على إخماد الانتفاضة. لقد كانوا هم الذين مكنوا صدام من إعادة تجميع قواته وإطلاق هجوم مضاد ضد الشعب لتوفر له القدرة الضاربة المدمرة».

لماذا كان ذلك؟

إن مايخشاه الأمريكيون هو أن يقيم الأكراد دولة خاصة بهم، والتى ربما كانت اشتراكية وديمقراطية؛ وأن يتجه الشّيعة إلى إقامة «تحالف إسلامى» مع إيران. ومالا يرغب فيه الأمريكيون لهؤلاء هو «أن يأخذوا أمورهم فى أيديهم». والصحفى التليفزيونى الأمريكى بيتر جيننجز يصور الأمر على هذا النحو: «أن الولايات المتحدة لاتريد لصدام حسين أن يذهب. كل مايريده الأمريكيون هو ألا يمسك الشعب العراقى بزمام السلطة». وهذا هو الرأى الذى يلتقى معه برنت سكوكروفت مستشار الأمن القومى للرئيس الأمريكى الأسبق جورج بوش الأب. لقد قال فى ١٩٩٧: «إننا بكل وضوح كنا نفضل أن يكون هناك انقلاب. إن هذا الأمر ليس موضعًا للتساؤل» أما توماس فريدمان، المعلق بصحيفة نيويورك تايمز والذى يعد كلب حراسة على السياسة الخارجية الأمريكية، فقد كان أكثر اقترابًا من التعبير عن المطلوب. إن ماتريده واشنطن، وفقًا لما يقول: «هو عصبة عراقية حاكمة، ذات قبضة حديدية، وينظر إليها على أنها أفضل كل ما فى العالم». والنتيجة الواضحة لهذا كله هى

أن الأمريكيين يريدون صدام حسين يكون أقرب إلى ذلك الذى كان قبل ١٩٩١، وينفذ كل ما يطلب منه.

كتب إريك هيرنج: «ربما كان أكثر مايثير التقزز فى الشأن السياسى كله هو أن صانعى القرارات الأمريكيين والبريطانيين قد قاموا باستغلال المشاعر الإنسانية الشعبية لخدمة الأغراض النفعية للسياسة الواقع realpolitik، فليس لديهم الراغبة فى أن تمسك الأغلبية الشيعية بزمام السيطرة، ولا فى أن يحصل الأكراد على الاستقلال. إن سياستهم هى الإبقاء على هذه العناصر قوية إلى الدرجة التى تمكنها من إثارة المتاعب لصدام حسين، مع ضمان أن يكون صدام حسين فى مركز القوة الذى يمكنه من قهرها. إن هذا هو النهج الذى ينحدر مباشرة من السياسة الاستعمارية البريطانية التى استمرت منذ الحرب العالمية الأولى فصاعدًا حتى الآن، كوسيلة للسيطرة على النفط العراقى.. «فرق لكى تحكم، كانت - ومازالت - هى السياسة».

فى عام ١٩٩٩ واجهت الولايات المتحدة «معضلة حقيقية» فى العراق على نحو ماذكرت صحيفة وول ستريت جورنال. «بعد ثمانى سنوات من فرض وجود منطقة محظور فيها الطيران فى شمال وجنوب العراق، لم يعد هناك سوى القليل من الأهداف العسكرية. يقول مسئول أمريكى تعبيرًا عن احتجاجه «لقد وصلنا إلى آخر المدى.. مازالت هناك بعض الأشياء ولكنها ليست كثيرة».

صواريخ فى كل مكان

مازال هناك الأطفال. ففى الوقت الذى ذكرت فيه هذه العبارة، كان ستة من الأطفال العراقيين يقتلون عندما انطلق صاروخ

أمريكى ليضرب حى الجمهورية الذى يعد أكثر المناطق السكنية فى البصرة فقرًا. وبلغ عدد المصابين من جراء القصف ستة وثلاثين. تعرض عدد منهم للإصابة بجروح خطيرة و«أضرار مصاحبة» كان هذا ماعقب به البنتاجون. واتجهت إلى الشارع الذى أصابه الصاروخ فى ساعات الصباح الباكر، لقد تابع الصاروخ خط البيوت ليدمرها الواحد إثر الآخر، لقد أعيد بناؤها الآن، بينما رحلت أسر عديدة إلى مناطق أخرى. رأيت شخصًا يجلس على عتبة بيته، ومع ابنه الصغير. قال لى إنه فقد ابنتين، الأولى فى الثامنة والثانية فى العاشرة. كان وجهه يعبر عن حزن عميق وصدمة لاتحتمل: «لقد ماتتا وهما نائمتان»، وسألته عما إذا كان لديه صور لهما، فأجابنى بالنفى. سألت آخرين عن صور لأبنائهم، ولكنهم كانوا يهزون رءوسهم كما لو كان السؤال يبدو غريبًا لهم. فمن الطبيعى أن الفقراء من الناس ليس لديهم كاميرات للتصوير. وسألتنى النسوة الواقفات فى طابور الانتظار بالمستشفى أن ألتقط صورًا لهن ولأطفالهن.

وفى فندق شيراتون بالبصرة، والذى يبدو واسعًا، متهالكًا، ويكاد يكون خاليًا، هناك محل فى بهو الفندق مازال مفتوحًا يمتلكه نبيل المصور الذى يتعيش من تحميض وطبع الأفلام التى يلتقطها السياح. «لم يعد هناك سياح الآن» يقول نبيل، «ولكنى أعتمد على حفلات الزفاف القليلة التى مازالت تقام، وعندما ضرب الصاروخ حى الجمهورية ذهبت إلى هناك فى الصباح التالى ومعى آلة التصوير». وعلمت منه أنه التقط صورًا للأختين اللتين قابلت والدهما. كانتا فى ثياب النوم وترتدى إحداهما شريطًا فى شعرها.

كانت جثتا الفتاتين مدفونتين وسط أنقاض بيتهما فى المكان الذى تعرضتا فيه للقصف أثناء نومهما على سريرهما. وعرضت الصورتين فى فيلمى التسجيلى «دفع الثمن» ومازالتا تلحان على خاطرى.

●●●

طرت إلى واشنطن بأمل رؤية وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت لسؤالها حول ماذكرته من أن الثمن المدفوع له المقابل الذى يستحقه. ولكن تعذرت للأسف مقابلتها ووافق المتحدث باسمها على إجراء المقابلة وهو جيمس روبن وكيل الخارجية المساعد. إنه رجل فى منتصف الثلاثينات، يبدو واثقا من نفسه، وله أيديولوجيته الخاصة. إن روبن نموذج «الطبيب المزيف» الذى ظهر فى حقبة مابعد الحرب الباردة، إنه الدعائى المحترف الذى يمكنه أيضًا أن يكون صريحًا إلى حد مثير للاهتمام. فعندما أقصى بطرس غالى الأمين العام للأمم المتحدة من منصبه، وكانت مادلين أولبرايت تقف فعليا وراء هذا الإقصاء لأنه لم يكن مرنا بما يكفى، كان روبن هو الذى أبلغ وسائل الإعلام بقوله: «إن الدكتور بطرس غالى لم يكن قادرًا على إدراك أهمية التعاون مع القوة الأولى فى العالم».

وأجريت المقابلة بوزارة الخارجية الأمريكية فى غرفة مزينة بأعلام وصور تعود إلى حرب الاستقلال. وتحدث برايس فلويد، مساعد روبن، وهو رجل يلازمه القلق متذرًا من طبيعة الأسئلة التى أعددتها، حول مدة اللقاء مع روبن. وساد التوتر. وعندما وصل روبن كان من الواضح أنه يفضل أن يقدم للصحافة مايطلق عليه

اسم «العروض». وكان الكثير مما قاله لايستند فى الواقع إلى أساس ثابت.

ومثال ذلك «أننا (الولايات المتحدة الأمريكية) قد خصصنا ماقيمته بلايين الدولارات من الأغذية والأدوية للشعب العراقى»، والواقع أن الولايات المتحدة لم تقدم دولارًا واحدًا: فجميع المساعدات الإنسانية يتم دفع ثمنها بواسطة الحكومة العراقية من العائدات النفطية المصرح بها من مجلس الأمن. وقال إن السياسة الأمريكية هى «أن العقوبات ليست مقصودة لذاتها ولكن لمنع نظام صدام حسين من الحصول على الأموال التى تمكنه من إعادة بناء آلته العسكرية المجنونة.. إن العقوبات التى فرضناها قد جعلت من المؤكد أن صدام حسين لن يجد منفذًا إلى بلايين الدولارات من العملات الصعبة التى تمكنه من إعادة بناء آلته العسكرية المجنونة.. لبناء قدرات جديدة لإنتاج أسلحة كيماوية وقدرات جديدة لإنتاج أسلحة بيولوجية».

وسألته: «ألا ترى أنه من المثير للسخرية أن الولايات المتحدة قد ساعدت صدام حسين على مدى سنوات طويلة للحصول على أسلحة الدمار الشامل تلك لاستخدامها ضد جيرانه؟

كانت إجابته: «لا. لا أجد فى ذلك مايثير السخرية. إن النظام العراقى هو المسئول.. إنه هو الذى يتحمل المسئولية.. الولايات المتحدة لم تقم بتسميم الأكراد».

قلت له: «إن أساس مخزون صدام حسين من الأسلحة البيولوجية قد تم تزويده به من جانب أمريكان تايب كلتشر

كوليكشن «وهى الشركة التى يقع مقرها قريبًا من هنا فى روكفيل بولاية ماريلاند».

أجاب: «أنا متأكد من أنه قد تمت مساءلتهم فى هذا الشأن».

قلت: «لا.. لقد حصلوا على موافقة وزارة التجارة».

قال: «إن توحى بأننا قد وافقنا على بيع أسلحة كيماوية إلى العراق هو أمر سخيف».

أجبت: «هذا صحيح. إن جلسات الاستماع فى مجلس الشيوخ عام ١٩٩٤ قد ذكر فيها أن هذه الشركة قد حصلت على موافقة وزارة التجارة لبيع عناصر بيولوجية إلى صدام حسين، وجميع المستندات محفوظة فى مكتبة الكونجرس».

سألنى: «هل توحى بأن شيئًا من هذا النوع كان هدفًا مقصودًا من جانب الولايات المتحدة».

أجبته: «إن هذا هو ماحدث فعلا. وما أشير إليه فحسب هو أنه من المثير للسخرية أن تقوم الولايات المتحدة بتقديم مثل هذا الدعم إلى هذا الدكتاتور، وتقوم الآن بفرض حظر تنجم عنه معاناة لايلحق به منها شىء، وإنما يتضرر منها الأهالى المدنيون».

قال: «المعاناة ليست نتيجة خطأ من جانبنا. إن لديهم كميات كبيرة متوافرة من الغذاء والدواء، ولكنهم يقومون بوضعها فى المخازن ولايتم توزيعها».

قلت له: «إن كبير منسقى الأمم المتحدة ينكر ذلك. يقول إن ٨٨ فى المائة من جميع الإمدادات الإنسانية يتم توزيعها خلال أسبوع من وصولها إلى الدولة. ويقول تقرير لمدير مكتب الأمم المتحدة

المختص بشئون العراق فى نيويورك إن ٧٦ فى المائة من المواد الطبية يتم توزيعها، ويتم الاحتفاظ بالباقى كاحتياطى إضافى، وذلك وفقًا لتوجيهات منظمة الصحة العالمية».

رد علىَّ قائلاً: «إذا ألقيت نظرة فاحصة على هذا التقرير فسترى أن هناك أمثلة لقيام الحكومة العراقية باستيراد أغذية وأدوية دون القيام بتوزيعها».

أجبته: «إن إمدادات من المواد الغذائية للعراق تتجاوز قيمتها ٧٣ مليون دولار محتجزة الآن فى نيويورك بواسطة حكومتك. وإذا كان ما تقوله صحيحًا، فلماذا قام كوفى عنان سكرتير عام الأمم المتحدة مؤخرًا بانتقاد الولايات المتحدة لتعليق وصول ماقيمته ٧٠٠ ملوين دولار من الإمدادات الإنسانية؟».

وكانت إجابته: «يمكنك أن تسأله».. ومضى يحتج بأن تقريرًا لصندوق الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف) قد أثبت أنه حيثما تولت الحكومة العراقية مسئولية التوزيع فى جنوب البلاد، فإن اللوم لارتفاع معدل وفيات الأطفال إنما يقع على عاتقها. وأشرت من جانبى إلى أن هذا التقرير قد تضمن العكس، حيث ذكر «أن الفارق فى معدلات الوفيات بين الشمال والجنوب لايمكن إرجاعه إلى الطريقة التى يجرى بها تنفيذ جهود الإغاثة».

وعلق على قولى: «إذا كنت تريد أن تلقى خطابا ففى إمكاننا أن نتبادل المقاعد».

أجبته: «لا أعتقد أن مسئولا كبيرًا فى وزارة الخارجية يمكن أن يتحدث بهذه الطريقة».

رد على: «دعنى إذن أستمع إلى خطابك».

سألته: «لماذا حرفت تفسير اليونيسيف».

أجابنى: «إن تحليلنا يستند إلى مجموعة واسعة التنوع من المصادر وليس على مجرد تقرير اليونيسيف».

قلت له: «إن كبير موظفى الأمم المتحدة فى العراق هانز فون سبونيك قد ناشد الولايات المتحدة وبريطانيا أن تسمحا بوصول الإمدادات. قال لهما: لاتحاربا معركتكما ضد صدام حسين على حساب الأهالى المدنيين».

علق قائلاً: «إن المستر فون سبونيك يتناول موضوعات تتجاوز حدود اختصاصاته».

أجبته: «إنه يتحدث عن الموقف من الناحية الإنسانية. وهو كبير موظفى الأمم المتحدة المسئولين عن مراعاة تنفيذ النواحى الإنسانية فى العراق».

وسألته: «ياسيد روبين بأى منطق يمكن أن يؤخذ شعب بكامله كرهينة بجريرة دكتاتور متوحش، ولمجرد أن سوء حظهم قد أوقعهم ليعيشوا تحت حكم هذا النظام الوحشى؟».

أجابنى: «انظر.. فى العالم الواقعى لابد من أن تكون هناك اختيارات واقعية. وفى رأينا أن السماح لصدام حسين بالحصول دون قيود على مئات البلايين من الدولارات الناتجة عن العائدات النفطية يشكل خطورة فادحة وواضحة وماثلة على العالم. وعلينا أن نوازن بين أسفنا العميق للمعاناة القاسية التى يعيشها شعب العراق وبين المخاطر الأمنية الوطنية التى يمكن أن يعرض صدام

حسين العالم لها إذا لم تقيد حركته بواسطة نظام العقوبات وسياسة الاحتواء».

وسألته عما إذا كان هذا الخيار الذى وضعه هو ما لخصته مادلين أولبرايت عندما سئلت عما إذا كانت وفاة نصف مليون طفل هى ثمناً له المقابل الذى يستحق.

أجابنى قائلاً: «إن هذا المقتطف قد أخرج عن سياقه بشكل خطير».

وناولته نص المقابلة التى أجرتها مادلين أولبرايت وكانت كلماتها متماشية مع السياق.

علق قائلاً: «حسناً إننا لانوافق على رقم النصف مليون».

أجبته: «إنه من واقع إحصائيات منظمة الصحة العالمية» (وهو ماتدعمه إحصاءات اليونيسيف).

قال: «إننا لانقبل بهذه الطريقة فى استخلاص الأمور. مانتقبله هو أنه عند الاختيار لوضع السياسة يختار المرء عادة من بين خيارين كلاهما سيئ، ولسوء الحظ فإن الآثار الناجمة عن العقوبات كانت أكثر مما كنا نأمل فيه».

سألته: «لماذا تقوم الولايات المتحدة بقصف المدنيين فى العراق؟».

أجاب: «إن طائراتنا هناك تمنع صدام حسين من أن يصب الجحيم على شعبه. وإذا لم يكن يطلق النيران على طائراتنا لما كانت هناك حاجة من جانبنا لقصف المواقع التى تطلق منها الصواريخ أرض - جو».

قلت له: «إن طائراتكم تقصف الرعاة وأطفالهم وغنمهم. إن هذا ماتضمنه تقرير للأمم المتحدة».

أجابنى: «إن هذا التقرير يستند فى الأساس إلى مصادر عراقية. إن الدعاية العراقية تفعل أى شىء لتشويه مايجرى».

قلت له: «لقد ذهبت إلى العراق لتقصى مايجرى ووجدت أن ذلك هو الحقيقة».

أجابنى: «حسنًا. إننى لا أعرف الحقائق، وأنا لست خبيرًا عسكريًا. يجب أن تتحدث بذلك إلى البنتاجون».

سألته: «هل سبق لك زيارة العراق؟».

أجابنى: «لا، لا أعتقد أننى سأكون موضع ترحيب هناك».

عدت أسأله: ما الذى يجعلك تتحدث بمثل هذا التأكد عما يجرى هناك؟.

أجاب: «لقد تحدثت إلى الكثير من الناس. ما ينبغى أن تفهمه هو أن صدام حسين قد قام بغزو دولة أخرى. إن المسألة تتعلق بمخالفة العراق لقاعدة أساسية فى النظام الدولى. إن عليهم أن يدفعوا الثمن المقابل لذلك».

سألته: «من الذى يجب أن يدفع الثمن؟».

أجابنى: «نحن نحاول أن نخفض الثمن الذى يدفعه الشعب العراقى. الذى ينبغى أن تفهمه هو أن هناك عالمًا واقعيًا، وهناك عالم مثالى».

عدت أسأله: «هل من الإفراط فى المثالية أن أسأل عمن يجب

أن يدفع الثمن فى العراق؟ نحن لا نتحدث عن صدام حسين وإنما عن الأبرياء. هل من الإفراط فى المثالية أن أسأل عمن يجب أن يدفع الثمن عن المحارق الجماعية (الهولوكست) وعما حدث فى تيمور الشرقية وعن الأحداث الوحشية التى تجري حول العالم؟».

قال: «حسنا إننى أجد إساءة شخصية فى فكرة المقارنة بين الهولوكست وبين مايجرى فى العراق».

أجبته: «إنها تعرف بدورها على أنها هولوكست».

قال: «حسنًا. إن المقارنة بين آثار العقوبات وبين الهولوكست هى إساءة لهؤلاء الذين ماتوا فى هذه المحارق الجماعية».

سألته: «ألا تعتقد أن وفاة نصف مليون طفل تستحق مثل هذا الوصف؟».

أجاب: «لقد كان هذا الأمر موضع دراسة».

●●●

وواصلت الطيران إلى نيويورك لإجراء لقاء مع كوفى عنان سكرتير عام الأمم المتحدة، وبدا لى رجلا حييًا بشكل غريب، يتحدث بصوت منخفض حتى لا يكاد يسمع.

قلت له: «باعتبارك السكرتير العام للأمم المتحدة التى تتولى فرض هذا الحصار على العراق، ماذا تقول لآباء وأمهات هؤلاء الأطفال الذين يلاقون الموت؟ وكانت إجابته هى أن مجلس الأمن يبحث فى فرض «عقوبات ذكية» يقصد بها أن «تستهدف القادة، وليس كوسيلة فظة لإلحاق الضرر بالأطفال».

قلت له: «إن الأمم المتحدة قد أنشئت لمساعدة الناس وليس الإضرار بهم. فأجاب: أرجو ألا تحكم علينا بناء على مايجرى فى العراق».

وسرت عبر مبنى الأمم المتحدة إلى مكتب بيتر فان وولسام مندوب هولندا لدى الأمم المتحدة ورئيس لجنة العقوبات. وماشد انتباهى فى هذا الدبلوماسى الذى يتولى سلطات تتصل بموت وحياة ٢٢ مليونا من البشر فى النصف الآخر من العالم، هو ماينطوى عليه تفكيره فى ذات الوقت من أفكار متناقضة بشكل كلى، شأن جميع السياسيين الليبراليين فى الغرب. فهو من ناحية يتحدث عن العراق كما لو أن كل شخص هناك هو صدام حسين، وهو من ناحية أخرى يبدو على قناعة بأن غالبية العراقيين هم ضحايا يتحملون وزر التجاوزات التى ارتكبها دكتاتور. وهو يبدو رجلا يواجه المتاعب، حيث أرسل عقب المقابلة إلى «فاكس» ذا طابع ودى يقول فيه إنه بإمكانى استخدام الإجابات التى أدلى بها على الأسئلة والتى لم يكن موافقًا من قبل عليها.

سألته عن السبب الذى يدفع إلى إنزال العقاب بالأهالى المدنيين عن جرائم ارتكبها صدام حسين.

وكانت إجابته: «إن هذه مشكلة صعبة. يجب أن تدرك أن العقوبات هى أحد الإجراءات العلاجية الموجودة فى حوزة مجلس الأمن، ومن الواضح أنها تلحق الضرر. إنها مثل إجراء عسكرى».

سألته: «تلحق الضرر بمن؟»

أجاب: «حسنًا. تلك فى الواقع هى المشكلة. ولكنك فى الأعمال

الحربية أيضًا يكون لديك المشكلة الأبدية الناجمة عن الأضرار التابعة Collateral.

عقبت متسائلا: «إذن فإن شعبًا بكامله يعتبر من الأضرار التابعة. هل هذا صحيح؟».

أجاب مترددًا: «لا. إنما أقول إن العقوبات لها آثار (مماثلة) أنا.. أنت ترى.. أنت تدرك، إن علينا أن نولى مزيدًا من الدراسة لهذا الأمر».

سألته: «هل تعتقد بأن الناس ينبغى أن تكون لهم حقوقهم الإنسانية بغض النظر عن المكان الذى يعيشون فيه أو النظام الذى يخضعون له؟».

أجاب: «نعم».

عاودت سؤاله: «ألا يعنى ذلك أن العقوبات التى تفرضونها تعتبر تعديًا على الحقوق الإنسانية للملايين من البشر؟».

أجاب: «إنه من الموثق أيضًا أن النظام العراقى قد ارتكب تجاوزات بالغة الخطورة ضد حقوق الإنسان».

قلت له: «ليس هناك شك فى ذلك. ولكن ما هو الفارق فى الأساس بين التجاوزات لحقوق الإنسان التى ارتكبها النظام وبين تلك التى ترتكبها لجنتك؟».

أجابنى قائلا: «إنها مسألة بالغة التعقيد يا مستر بيجلر».

سألته: «ماذا تقول لهؤلاء الذين يصفون العقوبات التى سببت مثل هذا العدد من الوفيات بأنها «أسلحة دمار شامل» لها نفس الأثر المميت الناجم عن الأسلحة الكيماوية؟».

أجاب: «لا أعتقد أن هذه مقارنة عادلة».

عاودت السؤال: «ألا تعد وفاة نصف مليون طفل دمارًا شاملاً؟».

أجاب: «لا أعتقد أن هذا سؤال منصف.. نحن نتحدث عن موقف ناجم عن قيام حكومة بغزو دولة جارة لها، وتجوز أسلحة الدمار الشامل».

سألته: «لماذا إذن لاتفرض عقوبات على إسرائيل التى تحتل الكثير من الأراضى الفلسطينية، وتشن هجمات على لبنان بشكل يكاد يكون يوميًا؟ لماذا لا تفرض عقوبات على تركيا التى رحلت ثلاث ملايين كردى من أراضيهم، وتسببت فى وفاة ٣٠ ألفاً من الأكراد؟».

أجاب: «هناك الكثير من الدول التى تقوم بأشياء لسنا سعداء بها، لكننا لا نستطيع أن نتواجد فى كل مكان. أكرر لك أن المسألة معقدة».

سألته: «ما مدى السلطة التى تمارسها الولايات المتحدة على لجنتك؟»

أجاب: «نحن نعمل على أساس مبدأ الإجماع».

عدت أسأله: «وماذا لو اعترض الأمريكيون؟».

أجاب: «لانقوم بأى شىء».

●●●

وفى لندن، سعيت إلى لقاء روبين كوك، الذى كان عندئذ وزيرًا للخارجية، وهو شخصية أخرى غامضة، أو هكذا يبدو. ومع كونه

نصيرًا بارزًا لفرض العقوبات، فقد كان هو المبتكر لـ «البعد الأخلاقى» فى السياسة الخارجية البريطانية تحت ظل الحكم العمالى الجديد (وهو البعد الذى تم الابتعاد عنه منذ ذلك الحين). وقد تقدمت بطلبى كتابة إلى وزارة الخارجية، حيث أبلغت بأن هناك «فرصة جيدة لإجراء مقابلة على المستوى الوزارى». ورغم ذلك، فقد ذكر لى مسئول أن كوك تردد فى الظهور فى فيلم «إلى جانب صور الرضع الموتى» لأن هذا موضوع «مثير للمشاعر» وهو لايرغب فى أن يتعرض كلامه لـ «التحريف». وقدمت تأكيدات بأن المقابلة ستكون مباشرة، وسيتم إعدادها بكل إنصاف، وذكرت أن فى إمكانه الاطلاع مقدمًا على معظم الأسئلة.

وبعد شهرين من الذهاب والإياب، والخطابات والمكالمات الهاتفية، ومحاولات الإرجاء بشتى الوسائل، طلب كوك عرضًا خاصًا للفيلم، يعقبه تسجيل «إجابة» من جانبه، تستمر دون قطع على مدى عشر دقائق، وتعرض فى نهاية الفيلم. وكان ردى على ذلك هو أننى أريد أن أجرى مقابلة معه مثلما أفعل مع كل شخص آخر فى الفيلم. كما أن مساعده بيتر هين أراد التحكم فى صياغة النص، ولكنى رفضت ذلك. وعندما عرض فيلم «دفع الثمن: قتل أطفال العراق»، ولقى استجابة عامة مشهودة، صدر خطاب عن وزارة الخارجية، وقع عليه كوك أو هين أو مسئول آخر، ويقدم هذا الخطاب نموذجًا لـ «ثقافة الكذب» التى وصفها مارك هجسون المسئول عن شئون العراق فى وزارة الخارجية خلال الفترة التى شهدت فضائح تزويد العراق بالأسلحة فى الثمانينيات. وكادت كل كلمة فى هذا الخطاب أن تكون محرفة أو زائفة. وهى تتراوح بين

«أن العقوبات لم يقصد بها شعب العراق» وبين «أن المواد الغذائية والأدوية لم تكن إطلاقًا ضمن نطاق العقوبات».

وكانت أكثر الأكاذيب التى جرى الإلحاح عليها هى «إن صدام حسين لديه فى المخازن ماقيمته ٢٧٥ مليون دولار من الأدوية والمواد الطبية، ويرفض القيام بتوزيعها»، وكانت الأمم المتحدة، وصولا إلى كوفى عنان، هى التى فندت ذلك. قال جورج سومرويل، المتحدث باسم الأمم المتحدة لم تذكر وجود أى مشكلة ذات أهمية تتعلق بتحويل المواد الإنسانية أو إساءة استخدامها على أى وجه».

ثم هناك كذبة العشرة بلايين دولار. يقول كوك إن فى إمكان بغداد الآن أن تبيع من النفط بما يزيد على عشرة بلايين دولار سنويًا لدفع ثمن الغذاء والدواء والسلع الإنسانية الأخرى. ويعلم كوك أن أكثر من ثلث هذا المبلغ يوجه لسداد قيمة التعويضات ونفقات الأمم المتحدة. وتصل هذه الأكاذيب إلى قمتها حين يدعى بيتر هين أن ماقيمته ١٦ بليون دولار من الإمدادات الإنسانية كانت متاحة للعراقيين خلال العام الماضى، واستنادًا إلى وثائق الأمم المتحدة يرد هانز فون سبونيك بأن هذا الرقم الذى ذكره هين يغطى فى الواقع فترة أربع سنوات؛ وأنه بعد استقطاع المبالغ الخاصة بسداد التعويضات، لايتبقى للعراق سوى مائة دولار لكل فرد سنويًا، وهى كل مايخصص للإبقاء على حياته.

ويرد فون سبونيك متهمًا هين: «رغم معرفتك لكل ماتعرف، فإنك تردد المرة بعد الأخرى معلومات مضللة وملفقة وتفتقر إلى الموضوعية».

يقول هين: «إن قرار الأمم المتحدة ١٢٨٤ (باستمرار فرض العقوبات) يشكل الإرادة الجماعية للدول الأعضاء فى مجلس الأمن».

ويرد فون سبونيك: «أنت تعرف ماينطوى عليه هذا التأكيد من خداع. فثلاثة من خمسة من الأعضاء الدائمين إضافة إلى ماليزيا لم يؤيدوا هذا القرار».

وذلك الحماس الذى يبديه هين للترويج للعقوبات قد أصاب بالصدمة جميع هؤلاء الذى يذكرونه مكافحًا صلبًا فى المعركة ضد الفصل العنصرى ومناهضًا للغزو الأمريكى للهند الصينية. وربما كانت هذه هى طبيعة المرتدين الذى يسوقهم الطموح. فلقد وصل به الأمر إلى حد الادعاء بأن «ليست هناك بيانات مؤكدة تربط مابين استخدام اليورانيوم المنضب من جانب بريطانيا والولايات المتحدة فى العراق وبين الزيادة بمقدار سبعة أضعاف فى الإصابة بالسرطان بين الأهالى المدنيين».

وكما أوضح البروفيسور دوج روى فإن هناك قدرًا كبيرًا من الدلائل على وجود التأثيرات السرطانية الناجمة عن استخدام اليورانيوم المنضب، ابتداء من التحذير الصادر فى ١٩٩٤ من جانب البريجادير ليزلى جروفيس، مدير مشروع مانهاتن، إلى التقارير الداخلية العديدة التى تسربت من البنتاجون ووزارة الدفاع. وفى عام ١٩٩١ قدرت هيئة الطاقة الذرية فى المملكة المتحدة أنه فى حالة استنشاق نسبة ثمانية فى المائة من اليورانيوم المنضب الذى أطلق فى حرب الخليج فإنها يمكن أن تتسبب فى احتمال وقوع ٥٠٠ ألف حالة وفاة.

وليس هناك سوى القليل من الشك فى أن صدام حسين لن يتوانى عن تجويع شعبه، وبالتالى حرمانه من الإمدادات الغذائية، إذا ما رأى أن هناك فائدة سياسية من وراء ذلك. فليس من المثير للدهشة أنه لا يهتم سوى بنفسه، وبالدائرة المقربة منه، وخاصة جهازه العسكرى والأمنى. إن قصوره وأشباهه، على غرار الصور الكرتونية لشخصه، منتشرة فى كل مكان.

ورغم ذلك، فإن صدام حسين، خلافًا لبقية الطغاة، لم يتمكن من الحفاظ على بقائه فحسب، ولكنه استطاع قبل حرب الخليج أن يكتسب قدرًا من الشعبية من خلال استرضاء شعبه بالمنافع التى حققها له بالاستفادة من العادات النفطية، ومع أنه قد قام باغتيال خصومه، أو دفع بهم للهرب إلى المنافى، فإنه قد تمكن أكثر من أى حاكم عربى آخر، من أن يستخدم ثروات بلده فى تحديث البنية الأساسية المدنية، وبناء المستشفيات ومدارس وجامعات على أعلى مستوى.

وقد استطاع صدام من خلال ذلك أن يدعم وجود طبقة متوسطة كبيرة نسبيًا، تنعم بمستوى طيب من الصحة والغذاء والتعليم. فقبل فرض العقوبات كان متوسط استهلاك الفرد العراقى من الطاقة الغذائية ٣٠٠٠ كالورى يوميًا، وكان ٩٢ فى المائة من الناس تتوافر لهم المياه النقية، وكان ٩٣ فى المائة منهم ينعمون بالرعاية الصحية المجانية. كانت نسبة التعليم فى العراق تعد واحدة من أعلى المستويات فى العالم، حيث بلغت نحو ٩٥ فى المائة. ووفقًا للوحدة الاستخبارية لمجلة الأيكونومست: «كانت دولة الرفاهية العراقية حتى ذلك الوقت، من بين تلك الأكثر شمولية وإغداقا فى العالم العربى».

وقد قيل إن صدام حسين هو المستفيد الحقيقى الوحيد من فرض العقوبات، فهو قد استفاد من الحظر ليمركز سلطة الدولة، وليرسخ بذلك من سيطرته المباشرة على حياة الناس. ومع اعتماد معظم العراقيين الآن على نظام المقننات الغذائية التى تصرفها الدولة لهم لسد الاحتياجات اللازمة لبقائهم يومًا بيوم، فلم يعد من الوارد ظهور أى خروج سياسى منظم على النظام.

وعلى أى حال فإن هذا الاحتمال قد انتفى وجوده أيضًا بين العراقيين نتيجة مشاعر الحنق والغضب التى يشعرون بها تجاه العدو الخارجى. وهو الحكومات الغربية. وفى مجتمع ماقبل ١٩٩١، والذى كان بشكل نسبى مفتوحًا ومواليًا للغرب، كان هناك دومًا احتمال القيام بانتفاضة مثلما ظهرت الثورات التى قام بها الأكراد والشيعة فى هذا العام. ولكن مع حالة الحصار المفروض اليوم، فليس هناك أمل فى ذلك، وهذا هو الإنجاز الذى لايجرى الإفصاح عنه للحصار الأنجلو ـ أمريكى.

والمؤكد أن هناك تعمية على هذه المسألة. كتب روجر نورمان يقول: «إن معظم الأمريكيين لايدركون أن العقوبات ضد العراق قتلت عددًا من الناس يزيد على عدد ضحايا القنبلتين النوويتين اللتين ألقيتا على اليابان؛ لأن وسائل الإعلام «الميديا» قد ركزت بوجه خاص على الشخصية الشيطانية لصدام حسين، وصورت العراق على أنه بلد يضم أهدافًا عسكرية أكثر مما يضم شعبًا.

وعندما يقوم المناهضون لفرض العقوبات بالربط بين بربرية السياسة الغربية وبين تلك التى يمارسها الطاغية، غالبًا يتم وصفهم بأنهم «أبواق». (الراحل جيمس كاميرون وهو الصحفى

الذى وجهت إليه هذه الإساءة، قال لى ذات مرة: «إذا ما وصفوك بأنك بوق، فعليك أن تعرف بأن الحق معك»).

ولقد كان هذا هو التكتيك الصادر عن اللاوعى من جانب بيتر هين، وهو يقوم بتلطيخ سمعة الذين يرفعون أصواتهم بالتحذير إنطلاقًا من المبادئ، مثل دنيس هاليداى وهانز فون سبونيك: صدى مثير للسخرية لما كان النظام العنصرى فى جنوب إفريقيا يصم به هين الشاب عندما كان يصفه بأنه «بوق للشيوعية».

والكاتب المسرحى آرثر ميللر كان أكثر تعاطفًا. كتب يقول «القليلون منا هم الذين يمكنهم أن يتخلوا بسهولة عن اعتقادهم بأن المجتمع ينبغى له الالتزام بقدر من المعقولية. وفكرة أن الدولة قد فقدت عقلها، وأخذت فى إنزال العقاب، بمثل هذا العدد الكبير من الأبرياء، هو أمر لايمكن التسامح إزاءه».

إن الحصار الاقتصادى على العراق ينبغى له أن يرفع، لا لسبب إلا لكونه غير أخلاقى، ولأن عواقبه غير إنسانية. وعندما يكون الأمر كذلك، على نحو ما يقول سكوت ريتر، فإن مفتشى الأسلحة ينبغى لهم العودة ثانية إلى العراق لإكمال المهمة الموكلة إليهم، والتى يجب إعادة النظر فى طبيعتها. لقد حددت هذه المهمة بأنها تستهدف نزع السلاح من الناحية الكمية، بحيث يصل الأمر إلى كل صامولة أو مسمار أو وثيقة موجودة فى العراق. ولأن العراق لم يقدم بيانًا عن كل مالديه من هذه الأشياء، فإنه قد اعتبر غير منصاع للقرار، ولم يتم إحراز تقدم. وعلينا تغيير هذه المهمة ليصبح التركيز على نزع السلاح النوعى. هل لدى العراق اليوم برنامج لإنتاج الأسلحة البيولوجية؟ لا. هل تم نزع سلاح العراق من الناحية

النوعيــة؟ نعم. إذن ينبـغى عـودة المفـتـشـين للشـهـادة على ذلك، والاستـمـرار فى مـراقبـة العـراق للتـأكـد من عـدم استـعـادته لأى من هـذه القـدرات. وقد قبل العـراق بالفعل عودة مفتشى وكالة الطاقة النووية الدولية.

وقرار مجلس الأمن رقم ٦٨٧ قد نص على أن نزع السـلاح فى العراق ينبغى أن يكون خطوة نحو تحقيق الهدف الخاص بأن تنشأ فى الشـرق الأوسـط منطقـة خـاليـة من أسلحـة الدمـار الشـامل... والمعنى فى كلمـات أخرى، هو أنه إذا مـاتخلى العـراق عن أسلحتـه التـدميـرية، فـإن هذا أيضًـا هو مايتحتم على إسـرائيل. وبعـد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فإن فـرض مطالب ثقيلة الوطأة على العـراق، مع إغمـاض العينين عن إسـرائيل، هو سـيـاسـة لن تجـدى نفعًـا. يقـول دنيس هاليداى: «كلما طال أمـد العقوبات المفروضة على العـراق، فالمحتمل هو أن نرى ظهور جيل مايعتبر صدام حسين معتدلا أكثر مما ينبغى ومستعدًا للاستماع للغرب بأكثر مما ينبغى».

كما لم يعد فى الإمكان استمرارية الأخذ بالمعيار المزدوج القديم فى تنفيذ العدالة. أثناء كتابة هذه السطور كانت ثلاث وأربعون دولة قد صـدقت على إنشـاء مـحكمـة جـرائم الحـرب الدوليـة، بينمـا المطلوب هو التصديق من جانب ستين دولة. وقد عارضت الولايات المتحدة إنشاء المحكمة خوفًا من مقاضاة الأمريكيين أمامها. فالأمر المؤكد، هو أنه إذا ماحوكم صدام حسين، فلابد من محاكمة أرييل شارون، ومحاكمة رعاتهما فى الغرب سواء فى الماضى أو الحاضر.

فى خطاب إلى صحيفة نيوستيسمان، وصف بيترهين إشارتى إلى احتمال استدعائه، وأمثاله من السياسيين الغربيين، للمثول

أمام محكمة جرائم الحرب الدولية بأنه ادعاء لايستند إلى أساس. وليس الأمر كذلك. ففى تقرير إلى السكرتير العام للأمم المتحدة أعده البروفيسور مارك بوسويت، وهو حجة لها وزنها فى القانون الدولى، كتب يقول: «إن نظام فرض العقوبات على العراق يعد غير قانونى بشكل لا لبس فيه وفقًا للمواثيق القائمة الخاصة بحقوق الإنسان، ويمكن إدراجها ضمن جرائم الإبادة الجماعية».

وهناك جانب متنام من آراء القانونيين يلتقى حول أن هذه المحكمة لن يكون واجبها مقصورًا، كما يقول إيريك هيرنج، على التحقيق فى الجرائم التى ترتكبها الأنظمة، وإنما يشمل أيضًا ماصدر عن الأمم المتحدة من أعمال القصف والعقوبات، والتى جاءت مخالفة على نطاق واسع للحقوق الإنسانية للمدنيين العراقيين... كما يجب عليها أن تحقق أيضًا من هؤلاء الذين قدموا العون (لصدام حسين) فى تنفيذ برامج التسليح التى أصبحت محرمة الآن، بما فى ذلك الحكومات والشركات الغربية.

فى عام ٢٠٠٠، عوق هين تنفيذ طلب برلمانى بنشر القائمة الكاملة للشركات البريطانية التى ارتكبت مخالفات قانونية، ومن حقنا أن نسأل عن السبب فى هذا الحظر، وأن نسأل بعدئذ عن الذى يقف خلف قتل أكثر الناس براءة فى العراق: هل هو صدام حسين، أم هل هم صناع السياسة البريطانيون والأمريكيون؟ إن الإجابة على هذا السؤال يمكن أن تضع الطاغية القاتل فى المرتبة الثانية بقائمة الاتهام.

●●●

فى ليلتى الأخيرة بالعراق، توجهت إلى قاعة الرباط فى وسط

بغداد، لأشهد عرضًا لفرقة الأوركسترا الوطنية العراقية. ورغبت فى لقاء محمد أمين عزت، قائد الفرقة الذى تقدم مأساته الشخصية نموذجًا للمأساة الناجمة عن العقوبات المفروضة على شعبه. فبسبب تقطع التيار الكهربى، اضطر العراقيون إلى استخدام الكيروسين الرخيص فى الإضاءة والتسخين والطهو، حيث تستخدم لهذه الأغراض مصابيح أو مواقد غالبًا ما تكون عرضة للانفجار. وهذا هو ماتعرضت له جنان زوجة محمد أمين عزت، التى اشتعلت النيران لتلتهم جسدها. يقول: «كان أمرًا مفجعًا؛ لقد رأيت زوجتى والنيران تأتى عليها بالكامل؛ حدث هذا أمام ناظرى. لقد ألقيت بنفسى عليها حتى أخمد النيران، ولكن دون جدوى. لقد ماتت.. كم كنت أود أن أموت معها.

كان يقف فى منصة قائد الأوركسترا، دون أن يحرك ذراعه اليسرى التى تعرضت لحروق بالغة، كما أدت الحروق إلى التصاق أصابع يده. كان الأوركسترا يعزف «كسارة البندق» لتشايكوفسكى، ولكن كان يتخللها أصوات ناشزة غريبة. كانت ألسنة المزامير ناقصة من آلات الكلارينيت، والأوتار ناقصة فى آلات الفيولين. قال لى: ليس باستطاعتنا الحصول عليها من الخارج. البعض أصدر فرمانًا بعدم الموافقة. لقد أصبحت النوت الموسيقية مهلهلة، مثل المخطوطات القديمة، فالموسيقيون ليس فى إمكانهم الحصول على الورق، لم يعد هناك من بين أعضاء الفرقة الأصليين سوى اثنين فقط، أما الآخرون فقد مضوا على الطريق الطويل الخطر إلى الأردن ومابعدها. ولا يمكن أن نلومهم على ذلك. إن المعاناة فى بلدنا بالغة. ولكن ما الذى يحول دون توقف هذه المعاناة؟!.

كـان هـذا هـو نفس الـسـؤال الـذى وجـهـتـه ذات مـسـاء إلـى دنيس هاليـداى فـى نيـويـورك. كنا واقـفـين فـى الـجـمـعـيـة الـعـامـة للأمم المتحدة، حيث كان يعمل مساعدا للسكرتير العام. بينما نحن نعبر القاعة الخالية التى كاد الزمن أن يفقد رسومها وديكوراتها الرونق الذى كانت عليه فى الخمسينيات من القرن الماضى؛ سألته عما إذا كانت الإجابة على هذا السؤال تكمن فى ملاحظة جيمس روبن عن «العالم الواقعى والعالم المثالي».

«هنا. فى هـذا المكان، يمثل العالم الواقـعى»، وأضـاف: «فى هـذا المكان يجرى تطبيق الديمقراطية: دولة واحدة، صوت واحد. وعلى العكس من ذلك، فـفى مـجلس الأمن هنـاك الدول الخـمس دائمـة العضوية التى يمكنها استخدام حق الاعتراض (الفيتو). لاتوجد ديمـقـراطيـة هنـاك. إنه لايمـثل الـعـالم الواقـعى بأى حـال. ولو أن موضوع العقوبات على العراق أحيل إلى الجمعية العامة، لكان الاتجاه إلى إلغائها بالأغلبية الكبرى من الأصوات. إن علينا أن نغير الأمم المتحدة. علينا أن نطالب باسترداد ما يخصنا فيها. إن الإبادة الجماعية التى تجرى فى العراق إنما هى اختبار لإرادتنا. إن علينا جميعًا أن نكسر الصمت: أن نجعل هؤلاء الذين يتحملون المسئولية فى واشنطن ولندن، يدركون أن التاريخ لن يرحمهم».

الفصل الثالث

اللعبة العظمى

● بالنسبة لى، أقر بأن الدول هى بمثابة قطع على رقعة شطرنج، تجرى فوقها ممارسة لعبة عظمى للسيطرة على العالم.

«لورد كيرزون، نائب الملك فى الهند. ١٨٩٨»

● إننا نستحوذ على خمسين فى المائة من ثروات العالم، ولكن ليس لدينا سوى ٦,٣٪ من عدد سكانه. فى مثل هذا الموقف، تكون مهمتنا الحقيقية فى الفترة القادمة.. هى الإبقاء على هذا الوضع من التفاوت. وحتى يتسنى لنا ذلك، لابد لنا أن نتحلل من كل المشاعر العاطفية.. ينبغى أن نتوقف عن التفكير فى الحقوق الإنسانية، وفى رفع مستويات المعيشة، وإقرار الديمقراطية.

«جورج كينان، مخطط استراتيجى أمريكى ١٩٤٨»

● هذه الحرب العالمية الثالثة.

«توماس فريدمان، نيويورك تايمز ٢٠٠١»

«لم تكن الحرب إطلاقًا باعثًا على السرور» كان هذا ما أعلنته الصحيفة الليبرالية «اندبندنت أون صنداى» خلال حرب الخليج عام ١٩٩١، وأضافت: «هناك أعمال معينة لايمكن لمجتمع متحضر أن يتفكر فيها على الإطلاق، وليس هناك من ينكر أن عمليات القصف الممتدة على نطاق واسع هى أمر مرعب. ولكن هذا لا يجعل منها أمرا خاطئاً:

وفى حرب أخرى فى حقل مغمور بالمياه لزراعة الأرز كانت ثلاثة أعمدة من القذائف المتتابعة تبدو فى السماء، وما إن تصل قذيفة إلى الأرض حتى تغطى النار مساحة ممتدة، وتنبعث أصوات كالرعد على امتداد الأودية العميقة، والتى كانت تبدو كما لو أنها تتماوج وتقذف بالحمم بأكثر مما كانت تتعرض للانفجار، كانت هذه هى القذائف التى تطلقها ثلاث من الطائرات بى ٥٢ المحلقة فى تشكيل واحد، والتى تتعذر رؤيتها وهى فوق السحاب، ومن هذه القاذفات كان يسقط نحو سبعين طنًا من المتفجرات على ما كان يعرف باسم «الصندوق الطويل» Long box وهو التعبير العسكرى

الذى يطلق على المساحة التى تغطيها القذائف، ويعنى أن كل شىء داخل هذا الصندوق يكون مستهدفًا تدميره.

وعندما وصلت إلى قرية داخل هذا «الصندوق» كان الشارع قد تحول إلى حفرة، أما الناس الذين كانوا على بعد مائدة ياردة من سقوط القذيفة فلم يعد هناك أثر حتى لأشباحهم المحترقة على نحو ما حدث لقتلى هيروشيما وإنما تحولت جثثهم إلى أشلاء ممزقة، أما الأطفال فقد تطايرت أجسامهم فى الهواء بفعل القصف، وبدت جلودهم متغضنة مثل الأوراق الجافة، وتجمعت فى ذهنى عندئذ مخاوف غريبة: كنت أخشى أن أخطو على جثة شخص ما أو أن أزعج أحد الذين لقوا حتفهم.

مثل هذه التجارب كانت هى التى دفعتنى إلى التساؤل عن طبيعة هذه القوة المفروضة من بعيد، ليس فقط بواسطة هؤلاء المحلقين فوق السحاب، وإنما بواسطة هؤلاء الأشخاص البعيدين الذين يبدون معصومين من الخطأ، الذين يصدرون أوامرهم بالقتل الجماعى للناس، وبواسطة هؤلاء الذين يبررون جرائمهم بتصويرهم للضحايا على أنهم إرهابيون، أو على أنهم مجرد أرقام بلا أسماء ولا وجوه ولا تاريخ، أو على أنهم ضحايا حتميون لأخلاقيات سامية.

القنبلة الكروية

وبعد ذلك بثلاثين عاما أعلن وزير الدفاع البريطانى جوفرى هون فى البرلمان: «إن استخدام القنابل العنقودية «فى أفغانستان»

هو أمر مناسب تماما، فمن أجل الوصول إلى أهداف معينة، تكون هذه هى أفضل أسلحتنا وأكثرها فاعلية».

كنت واقفًا فى شرفة المستشفى المطل على هونجاى، وهى مدينة الصيد واستخراج الفحم الواقعة على شواطئ ها لونج الجميلة فى خليج تونكين فى فيتنام الشمالية، وقدر دكتور ليوفان هوت أن عشرة فى المائة من أطفال المدينة قد أصبحوا الآن مصابين بالصمم، قال: «كان الأمر يبدو كما لو أن طبلا قويا يضرب عليه داخل رؤوسنا» فعلي مدي ثلاثة أيام في يونيو ١٩٧٢ كانت القاذفات المقاتلة الأمريكية تقوم باثنتين وخمسين طلعة على هونجاى، وذلك على مدار الساعة، وكان يعتقد عندئذ أن هذا رقم قياسى، وظلت هونجاى تتعرض للقصف على مدى ست سنوات: وكانت بذلك واحدة من إحدى المناطق التى تعرضت لأقسى عمليات القصف وأكثرها تركيزًا.

وكانت السمة الأخرى للمدينة هى أنها كانت واحدة من الأهداف التى تعرضت لما كنا نطلق عليه اسم «القنبلة الكروية» «نسبة إلى كرة حجرية كانت تستخدم كقذيفة فى القرون الوسطى» والتى تعد النموذج الأولى للقنبلة العنقودية، وكان هذا السلاح الجديد تنطلق منه المئات من الشظايا التى يأخذ الكثير منها شكل السهام، وفى المدرسة الوحيدة هناك التى سويت بالأرض وجدت خطابًا مدسوسًا بين الحطام. كانت كاتبة الخطاب هى فتاة صغيرة اسمها نجوين ثى آن، علقت المعلمة: «كان الأطفال فى تلك الأيام يكتبون الكثير من الخطابات إلى أنفسهم».

«اسمى نجوين ثى آن، عمرى خمسة عشر عاما، يأتى إليكم هذا الخطاب من هونجاى، حيث ولدت، والتى تطل عليها جبال ثو، ويسمع خرير أمواج البحر على شواطئها، لقد بدأت بالكاد التحاقى بالصف السابع فى مدرسة كاو ثانج، كان يوما مجيدا بالنسبة لنا، وكانت أمى قد طالبت منى بالكاد إعداد المائدة فى الوقت الذى عاد فيه أبى من عمله فى المنجم، ثم استمعت إلى صوت صافرة الإنذار وسارعت بالتوجه إلى الملجأ القريب، كنت أستطيع سماع هدير محرك الطائرة تعقبه أصوات انفجارات، وعندما انطلقت الصافرة من جديد خرجت من الملجأ عائدة، وهناك كان والداى: أمى وأبى، ممددين تغطيهما الدماء، وكذلك الحال بالنسبة لأخى نجوين سى كوان ولأختى نجوين ثى بنه، كانت أجزاء معدنية تخترق جسد أختى وكذلك دميتها، كانت تواصل النواح: «أين أمى وأبى؟ أين دميتى؟» إن شارعى شارع ها لونج قد أصبح الآن مدمرًا بالكامل هذه نهاية خطابى».

كان الشارع الذى تعيش فيه أسرة نجوين قد تم قصفه بهذا النوع الجديد من القنابل، ووفقا لما قاله الدكتور ليو فإن السهام قد اخترقت جسد أخت ثى آن بنه، وظلت فى حالة من الحركة داخل جسدها لعدة أيام، محدثة جروحا داخلية أدت فى النهاية إلى موتها ميتة سريعة، كانت هذه السهام من نوع بلاستيكي يصعب الكشف عنه بواسطة أشعة إكس، وسمعت بعد ذلك أن مصممى هذا السلاح كانوا يقصدون ذلك.

كانت أكثر أنواع القنابل العنقودية شيوعًا والتى كانت معروفة

فى الولايات المتحدة باسم الصخور Rockeyes، يجرى اختبارها فى لاوس المجاورة.

وكانت عند انفجارها تتشطر إلى مائة وستين شظية أو «قنيبلة» يظل نصفها ملقى على الأرض حتى يخطو فوقها حيوان أو إنسان، أو يقوم بالتقاطها أحد الأطفال على نحو ما يحدث عادة، وعندئذ يتم انفجارها، وبعد مرور ثلاثين عاما ظلت هذه القنابل مستمرة فى قتل وتشويه الضحايا الذين بلغ عددهم عشرين ألفا سنويا فى لاوس، وهى البلد الصغير الذى لم يدخل إطلاقا فى حرب مع أمريكا والتى تعرضت للقصف كعمل جانبى لعملية تدمير فيتنام وكمبوديا، ومع قدرتها على إلحاق هذا القتل طويل الأمد فإن القنابل العنقودية قد صممت لتكون سلاحًا إرهابيًا فى الأساس، أوهى سلاح «مضاد للأشخاص» وفقا للتعبير العسكرى.

وفى اليوم الذى كان جوفرى هون يقول فيه إن القنابل العنقودية هى «أفضل أسلحتنا وأكثرها فاعلية» كانت هذه القنابل تلقى على جارديز، تلك المدينة الفقيرة البائسة فى أفغانستان، والتى كانت قد سقطت بالفعل منذ وقت طويل فى أيدى القوات المعادية لطالبان. ولم يعرف عدد ضحايا هذا القصف. والمؤكد أن سبعة أشخاص من أسرة واحدة من المهاجرين قد لاقوا حتفهم، فى حين تعرض ثلاثة آخرون لإصابات خطيرة.

كانو جميعًا لاجئين يحتمون فى مبان تابعة لوكالة الأمم المتحدة للتخلص من الألغام، والتى تعرضت بدورها للتدمير، ولم تبد أية ملاحظة فى وسائل الإعلام لهذه المفارقة: إن القنابل العنقودية هى

بدورها نوع من الألغام. الفارق الأساسى بينها وبين الألغام المحظورة وفقًا للمعاهدة الدولية هو أنها ليست مدفونة فى الأرض، وإنما تلقى جوا من الطائرات. وأثناء كتابة هذه السطور، كان هناك ما يقدر بسبعين ألف «قنيبلة» عنقودية أمريكية ملقاة دون تفجير فى أفغانستان، والتى تعد بالفعل أكثر الدول تلغيمًا فى العالم.

هذه هى طبيعة «الحرب ضد الإرهاب». والارتباط التاريخى ليس موضعًا للشك. فنفس الطائراتبى ٥٢ التى قامت بتدمير الكثر من أنحاء الهند الصينية كانت هى التى قامت بقصف صفوف المدنيين الأفغان الهاربين من قندز.

يقول أحد اللاجئين: «لقد رأيت جثث عشرين من الأطفال القتلى ملقاة فى الشوارع. وقد قتل فى الأمس فقط أربعون شخصا «من إجمالى ما قدر بمائة وخمسين شخصا مدنيا قتلوا خلال ثلاثة أيام» البعض منهم احترق بنيران القنابل، والآخرون سحقوا تحت جدران وسقوف بيوتهم التى تهاوت فوقهم بفعل القصف».

لقد انتهى حصار قندز بسقوط قلعة بائسة اسمها قلعة جانجى، ذلك الاسم الذى ينبغى أن يظل صداه يتردد فى الذاكرة «المتحضرة»، هذه الكلمة التى يكثر استخدامها فى هذه الأيام. لقد جاءت القوات الخاصة الأمريكية والبريطانية، فى قاذفات أمريكية لمساندة قوات أمير حرب التحالف الشمالى الجنرال رشيد دوستم، قائد الفريق الأوزبكى الذى بلغت وحشيته إلى حد دهس خصومه بالدبابات، والذى تم تعيينه نائبا لوزير الدفاع فى الحكومة الأفغانية الجديدة، كان الرجال الموجودون داخل القلعة من أسرى

حرب طالبان، وقد تم قصفهم بالقنابل العنقودية، أما هؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة فقد صب عليهم البترول وأشعلت فيهم النيران وهم أحياء، أو أطلق عليهم الرصاص وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم. وبهذه الطريقة تم قتل المئات من المسجونين.

«الأمر المؤكد فيما يختص بالحضارة ألا يكون هناك انحدار غير محسوس نحو ممارسة الإرهاب والبربرية». كان هذا ما كتبه ايزوبيل هيلتون فى صحيفة الجارديان، وأضاف إليه: «نحن نسمع أن الأفغان لديهم نزعة إلى الوحشية. وقد يكون من العبث أن نتوقع خوض حرب فى أفغانستان وفقًا للقواعد المعهودة، ولكن حرب من هذه؟ هل يحارب الأمريكيون والبريطانيون وفقًا لقواعد دوستم أو وفقًا لقواعدهم الخاص، أم أننا لم نعد نعبأ بالفارق بين الأمرين؟».

لم يتغير شىء، لا القنابل العنقودية التى جرى اختبارها فى فيتنام، ولا الصدمة التى أصابت الضمير الليبرالى عندما أجبر على الإقرار بحقيقة أن القتل الجماعى و«الإرهاب والبربرية» قد أصبحت ممارسات معهودة من جانبنا «نحن». كان الاختلاف فى التكنولوجيا فحسب، ولم يتغير اللجوء إلى إخفاء الأهداف الحقيقية خلف الادعاءات الأخلاقية من جانب أكثر الدول ثراء فى العالم، خلال استخدامها لقوتها العسكرية المرعبة ضد أكثر دول العالم فقرا، وكل هذا تحت اسم «الحضارة»، كما لم يتغير ذلك التجاهل للطروحات السلمية، ففى ١٩٥٤ قام وزير الخارجية الأمريكى جون فوستر دلاس بمغادرة مؤتمر جنيف لأن الغالبية قد وافقت على إجراء انتخابات ديمقراطية فى فيتنام، والتى كان يمكن

أن تؤدى إلى توحيد جنوب وشمال البلاد، وكان هذا التصرف من جانبه هو الشرارة التى أشعلت نيران حرب حصدت أرواح خمسة ملايين.

صفقة بن لادن

وعلى نحو مماثل تم تخريب عرض كان من المحتمل أن يؤدى إلى تسوية الأمور سلميًا فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فقادة الحزبين الإسلاميين فى باكستان، ذكروا أنهم قد تفاوضوا حول تسليم أسامة بن لادن إلى باكستان، وذلك على الرغم من أن الأمريكيين لم يقدموا أى دليل يمكن محاكمته بناء عليه بشأن الهجوم على برجى المركز التجارى فى نيويورك. ووفقًا لهذا العرض كان سيتم وضع بن لادن رهن الاعتقال المنزلى فى بيشاور. وقد تمت الموافقة على هذه الخطة من بن لادن نفسه ومن جانب الملا عمر زعيم الطالبان، وكان الاقتراح بأن تقوم محكمة دولية بالنظر فى دلائل الاتهام لتقرر ما إذا كانت ستتولى محاكمته أو أن يتم تسليمه إلى أمريكا. وقام وفد من العلماء المسلمين الباكستانيين المؤيدين لطالبان بمقابلة الملا عمر فى قندهار، وأبلغوه بأن باكستان يمكن أن تتورط فى أزمة إذا لم يتم تسليم أسامة بن لادن. وصرح وزير الإعلام لحكومة طالبان: «نحن لن نقف إلى جانب أى شخص مسئول عن ارتكاب هذا العمل شواء كان أسامة أو غيره، وقد طلبنا من الوفد الباكستانى أن يقدم لنا الدليل على أن أسامة قد ارتكب هذا العمل، حيث كيف يمكن أن نسلمه دون تقديم هذا الدليل»، ولكن الرئيس الباكستانى مشرف بنتيجة ضغوط من جانب واشنطن،

اعـتـرض على هذه الخطة التى قـال عنهـا مسـئول أمـريكى بأنهـا «تنطوى على مـخـاطرة بإجـهـاض الجـهـود الدولية للقبض على بن لادن».

ونحن بالطبع لا نـعلم إطلاقًا عمـا إذا كان هذا عـرضًا حقيقيًا، ولا عن مـدى احتمـالات نجاحـه، ولكن عندمـا بدأ قصف أفغانستان كان الادعـاء الكـاذب من جـانب الحكومتـين الأمـريكيـة والبـريطانيـة بأنـه «لم يكن مـطروحًـا على الإطـلاق أى بديل سـلمى آخـر». وقـال تونى بليـر: «ليـسـت هنـاك دبلومــاسـيـة مع بن لادن أو مع نظام طالبـان.. ليست هناك إمكانيـة للتـوصل إلى تسـوية مع مثل هؤلاء النـاس، ليس هنـاك سـوى خـيـار واحـد: إمـا أن تـهـزمـهم وإمـا أن يهزموك»، وقال جورج بوش: «لقد أعطيتهم فرصة عادلة».

وانطلاقًـا من روح «اللعبـة العظمى» كما صورها اللورد كيـرزون، فإن قصف أفغانستان قد استهدف استبدال قبـائل غيـر مرغوب فيها بقبائل أخرى مفضلة. وكون أن تلك كلتا الجماعتين، وفقـا لما هو شائع فى اللعبـة الحديثـة يدخل فى نطاق «الإرهـابيـين» هو هنا أمـر خـارج الموضـوع، الفـرق هو أن الـرئيس بوش يصف السـادة الحـاليـين للعـاصـمـة كـابول من قـوات تحـالف الشـمـال بأنهم «أصدقـاؤنا» وهؤلاء هم أنفسـهم الذين تم التـرحيب بهم فى عـام ١٩٩٢ ليقومـوا عقب ذلك بقتل مـا قدر بخمسين ألف شخص على مدى أربع سنوات، خلال عمليات اقتتال أهلية ضروس.

فى عـام ١٩٩٤ وحـدهـا، على نحـو مـا ذكـر مـرصـد الحـقـوق الإنسـانيـة فى نيويورك «كان هنـاك مـا يقـدر بخمسـة وعشـرين ألف

شخص لقوا حتفهم فى كابول، وأغلبهم من المدنيين، خلال الهجمات التى استخدمت فيها الصواريخ والمدافع، وتحول ثلث المدينة إلى أنقاض. واليوم وبعد أن عذبوا وأعدموا المئات من أسرى الحرب، وبعد أن نهبوا مخازن المساعدات الأجنبية، فإن الأبطال الجدد قد استعادوا فى هدوء احتكارهم لتجارة الهيروين، ولكن هذه كلها لا تعد أخبارًا تستحق النشر.

●●●

ليست هناك فى الحقيقة «حرب ضد الإرهاب»، فمثل هذه الحرب ليست ممكنة ما دام «الائتلاف» الذى يشنها يضم البعض من الدول التى تقود الإرهاب فى العالم - الجزائر وتركيا وروسيا والصين وإندونيسيا - ويخوضها متحالفًا مع الولايات المتحدة، إن عملية البحث عن أسامة بن لادن تبدو مشهدًا هزليًا. إن الهدف هو فرض السيطرة من خلال الأنظمة التابعة على جمهوريات آسيا الوسطى «السوفيتية سابقًا» وهى المنطقة الغنية بالنفط والمعادن، وذات الأهمية الاستراتيجية العظمى فى مواجهة القوى المنافسة وهى روسيا والصين.

فمع بلوغ فبراير ٢٠٠٢، أقامت الولايات المتحدة قواعد أمريكية دائمة فى جميع جمهوريات آسيا الوسطى فضلا عن أفغانستان، التى تحظى حكومة ما بعد طالبان فيها بالمباركة الأمريكية، وعن هذا يقول كولن باول وزير الخارجية الأمريكى: «إن أمريكا سيكون لها فى وسط آسيا مصالح مستمرة ووجود مستمر بشكل لم نكن نحلم قبل ١١ سبتمبر» وليست هذه سوى البداية. فالهدف النهائى

هو غزو أمريكى أوسع مدى بكثير على المستويين العسكرى والاقتصادى. وهذا هو الهدف الذى تم التخطيط له خلال الحرب العالمية الثانية. ووفقاً لما يقول نائب الرئيس الأمريكى ديك تشينى: «فإنه قد لا ينتهى إنجازه خلال فترة حياتنا».

وما إن تراجعت قوات طالبان من كابول فى اتجاه الجنوب، حتى أوضح تشينى ووزيرالدفاع رامسفيلد ذلك بكل جلاء. فأمريكا كانت تخطط للعمل ضد ما يتراوح بين أربعين وخمسين دولة. والصومال التى ادعى أنها «ملجأ» لتنظيم الجماعة الإسلامية «القاعدة» انضمت إلى العراق لتكونا على رأس قائمة الدول المستهدفة. وكشف رامسفيلد النقاب عن أنه قد طلب من البنتاجون «أن يفكر فيما لا يمكن أن يتطرق إليه الذهن» بعد أن قام برفض «بدائل ما بعد أفغانستان» المقدمة منه باعتبارها «غير راديكالية بما يكفى».

ولم يشر رامسفيلد إلى أن الصومال وجانب من المنطقة الواقعة شمال غرب المحيط الهندى تحتوى على احتياطى هائل للنفط والغاز ربما بكميات أضخم من تلك التى تحتويها منطقة بحر قزوين. هناك أيضاً، كان للشركات الأمريكية تطلعاتها ومطالبها، وكانت فى انتظار فرض أنظمة موالية للغرب.

لم يكن هناك أى دليل على أن تنظيم القاعدة له قواعد فى الصومال. كان الأمريكيون يستمعون إلى فريق من الميليشيات، يتلقى الدعم والتوجيه من جانب إثيوبيا المجاورة، والتى طالما سعت إلى الإبقاء على الصومال ضعيفة ومقسمة.

الافتقار للاستقرار

وهيأت أحداث ١١ سبتمبر لواشنطن بوش تبريرات واضحة. فقد قام مسئولون أمريكيون بإبلاغ وزير خارجية باكستان السابق فى منتصف يوليو ٢٠٠١ بأن عملا عسكريًا ضد أفغانستان سيبدأ تنفيذه مع بلوغ منتصف أكتوبر. وكان وزير الخارجية الأمريكى كولن باول يقوم عندئذ بجولة فى دول آسيا الوسطى لحشد الدعم اللازم لقيام «ائتلاف» لخوض الحرب ضد أفغانستان. فبالنسبة لواشنطن لم تكن المشكلة الحقيقية مع طالبان هى انتهاكاتهم لحقوق الإنسان. فمثل هذه الأمور لم تكن تشكل أهمية، فطالبان التى لقيت الترحيب فى البداية من جانب واشنطن لم تكن لها السيطرة المطلقة على كامل الأراضى الأفغانية، مع قيام جماعات «المجاهدين» بفرض سيطرتهم على المنطقة الشمالية. ولهذا السبب كان نظام طالبان. بالنسبة للأمريكيين، يفتقر إلى «الاستقرار» ويعجز عن فرض السيطرة المطلوبة من جانب جميع الأنظمة التابعة.

كان هذا الافتقار إلى «الاستقرار» هو الذى دفع بالمستثمرين إلى الإحجام عن الاستمرار فى تمويل مشروعات مد خطوط النفط والغاز من بحر قزوين، حيث المخزون الهائل من الوقود الحفرى الذى لم يكد يمس فى حوض قزوين، والذى أصبح يمثل أهمية أساسية، إن لم تكن حيوية، بالنسبة للتخطيط الأمريكى، فى عام ١٩٩٨ تحدث ديك تشيني الذى كان عندئذ مستشارا فى مد خطوط الأنابيب للعديد من جمهوريات آسيا الوسطى. وأبلغ مؤتمرا ضم مسئولين تنفيذيين عن الصناعة النفطية: «لا أستطيع الاعتقاد

بأنه كان هناك وقت ظهرت لنا فيه منطقة بهذا الشكل المفاجئ لتصبح بمثل هذه الأهمية الاستراتيجية مثل المنطقة القزوينية».

والاهتمام الغربى بالمنطقة القزوينية يعود إلى الحقبة التى تم فيها اكتشاف النفط واستغلاله للمرة الأولى. فقرب نهاية القرن التاسع عشر قاتلت روسيا من أجل الإبقاء على شركة ستاندرد أويل التى يمتلكها روكفلر بعيدًا عن المنطقة القزوينية. لقد وجه الصحفى جون ريد، مسجل أحداث الثورة الروسية سؤالا فى ١٩١٩ إلى المؤتمر الشعبى للشرق الذى عقد فى باكو عاصمة أذربيجان، وكان السؤال هو: «هل تعرفون كيف ينطقون كلمة «باكو» فى الولايات المتحدة؟ إنهم ينطقونها «بترول».

ولم تكن أمريكا والقوى الاستعمارية الأوروبية هى وحدها التى تطمع فى حقول النفط القزوينية. ذلك أن هتلر أثناء غزوه روسيا. وقبل أن يواجه النقص فى الوقود ويلاقى الهزيمة فى ستالينجراد، كان يخطط لـ «الحصول على الجائزة المدخرة من المصادر القزوينية» ليتجه بعد ذلك جنوبًا حيث تكمن الجائزة الأكبر فى بلاد فارس والعراق «وذلك على نحو ما أشار صحفي معاصر فى جون ريز».

وبالنسبة للغرب، فإن وجود الاتحاد السوفيتى قد سد الطريق إلى احتياطيات النفط والغاز، التى ثارت التكنهات باستمرار حول مقدار حجمها، فقد قيل ربما بقدر من التفاؤل، إن أكبر البحار المغلقة ضخامة «بحر قزوين» يحتوى على ثلث المخزون العالمى من

النفط والغاز وإن أكبر الحقول اتساعًا توجد فى كازاخستان وأذربيجان، بينما توجد حقول أصغر فى تركمنستان وأوزبكستان. وعقب سقوط الاتحاد السوفيتى أخذت الولايات المتحدة وروسيا والصين وفرنسا وبريطانيا فى التنافس فيما بينها فى شكل «اندفاع النفط» تجاه المنطقة القزوينية، يعيد إلى الأذهان ذلك الاندفاع الاستعمارى نحو إفريقيا.

وخلال التسعينيات عززت الولايات المتحدة مطالبها فى المنطقة بالعديد من المظاهر الدالة على امتدادها الكونى global reach. مثال ذلك الانتشار الذى أحسنت الإعلان عنه فى صحراء كازاخستان لخمسمائة من المظليين التابعين للوحدة الجوية المحمولة الثانية والثمانين فى كارولينا الشمالية. وفى ذلك الوقت كانت هذه أطول عملية نقل جوى فى التاريخ العسكرى، وقصد منها على حد قول جنرال فى البنتاجون «إظهار أنه لا توجد دولة على وجه الأرض لا يتسنى لنا الوصول إليها». ويضاف إلى ذلك المبرر الظاهرى، وهو أن الولايات المتحدة معنية بتنمية قدرات «الدول المستقلة ذات السيادة القادرة على الدفاع عن نفسها».

وفى صراحة كان وصف بيل ريتشاردسون، وزير الطاقة فى حكومة كلينتون، للجمهوريات السوفيتية السابقة بأنها «تعنى كل شىء بالنسبة لتأمين الطاقة لأمريكا»، وقال: «إننا نرغب فى أن نرها مرتبطة بالاستثمارات التجارية والسياسية الغربية فى المنطقة القزوينية، ومن الأمور بالغة الأهمية بالنسبة لنا أن يكون هناك التوافق بين خريطة خطوط الأنابيب وبين السياسات».

إن «خريطة خطوط الأنابيب» تشكل أهمية حيوية. حيث يظل النفط والغاز دون قيمة ما لم تتوافر الوسائل اللازمة لنقله إلى الموانئ ذات المياه العميقة، وهناك ثلاثة طرق يمكن أن تمتد منها خطوط الأنابيب. من خلال روسيا أو إيران أو أفغانستان.. وبالنسبة لواشنطن فإن الاعتماد على روسيا هو أمر محرم، أما إيران فهى البلد الذى أمضت أمريكا أكثر من عشر سنوات وهى تعمل على عزله. ولم يكن أمرًا مفاجئًا أن الطالبان عندما استولت على السلطة فى كابول عام ١٩٩٦، قد وجدت اللوبى النفطى الأمريكى يتودد إليها، وعينه على «واحدة من الجوائز الكبرى للقرن الحادى والعشرين» على نحو ما ذكرت صحيفة ديلى تلجراف. وتضيف الصحيفة «إن العليمين ببواطن الصناعة النفطية يقولون إن الحلم الخاص بتأمين خط الأنابيب عبر أفغانستان كان هو السبب الرئيسى الذى جعل باكستان، وهى حليف لأمريكا، كانت على هذا النحو من الدعم الطالبان وهوالسبب الذى جعل أمريكا توافق فى هدوء على اكتساح الطالبان لأفغانستان».

وعقب ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لم يكن هناك من هو أكثر حماسا فى الدعوة إلى الإطاحة بنظام طالبان من صحيفة وول ستريت جورنال، ورغم ذلك فقبل ذلك بخمس سنوات، كان الصوت الأصيل لرأس المال الأمريكى يطلق نغمة مخالفة تماما. كانت نفس الصحيفة تصرح بأن «الطالبان هى اللاعب الأكثر قدرة على إقرار السلام فى أفغانستان خلال هذه اللحظة من التاريخ»، وفضلا عن ذلك فإن نجاحها على نحو ما تقول ذات الصحيفة» يعد أمرًا بالغ

الحيويه لتأمين أفغانستان كطريقه أساسى إلى موانئ الشحن لصادرات آسيا الوسطى الهائلة من النفط والغاز وغيرهما من الثروات الطبيعية».

ولم تجد الطالبان ترحيبًا فى واشنطن فحسب، بل إن قادة الطالبان قد طاروا إلى تكساس، التى كان جورج بوش حاكمًا لها عندئذ حيث تمت استضافتهم فى هوستون من جانب كبار المسئولين فى شركة النفط «يونوكال» Unocal. ووفقًا لما يقول جورج مونبيوت: «عرضت الشركة أن تدفع لهؤلاء «البرابرة» خمسة عشر سنتا مقابل كل ألف قدم مكعب من الغاز يتم ضخها عبر الأراضى التى قاموا بغزوها». وعلق مسئول فى إدارة كلينتون بأن أفغانستان يمكن أن تصبح «مثل السعودية العربية» مستعمرة نفطية بدون ديمقراطية ويجرى فيها اضطهاد النساء قانونيًا وقال معقبًا: «إن فى إمكاننا التعايش مع ذلك الوضع».

فى ١٩٩٨ قام نائب رئيس شركة يونوكال للعلاقات الدولية جون ماريسكا بإبلاغ لجنة استقصاء تابعة للكونجرس بأنه ببلوغ العام ٢٠١٠ يكون فى إمكان الشركات الغربية زيادة إنتاجها النفطى إلى أربعة ملايين ونصف مليون برميل يوميا بما يحقق زيادة تزيد على خمسمائة فى المائة خلال خمسة عشر عاما وكانت دعوته إلى تهيئة مناخات ملائمة فى المنطقة وكان يعنى بذلك (أن إنشاء خط الأنابيب الذى اقترحنا إقامته عبر أفغانستان لا يمكن البدء فيه إلا مع وجود حكومة معترف بها ويكون فى إمكانها كسب ثقة الحكومات والمقرضين و«شركتنا») ولم يبد ذلك المسئول النفطى أى

إشارة إلى الطبيعة «البربرية» للنظام، أو إلى إرهابيى القاهرة الذين كان يقال إن الطالبان يستضيفونهم.

وعندما قامت شركة يونوكال فى نهاية الأمر بتوقيع مذكرة تفاهم لمد أنابيب من تركمنستان إلى باكستان عبر أفغانستان فإنها قد فعلت ذلك نيابة عن كونسورتيوم يضم شركات، إيزون وأموكو وبريتش بتروليوم وشيفرون وإكسون وموبيل. وكان القائمون على إبرام هذه الصفقة هم ديك تشينى وزير الدفاع السابق ونائب الرئيس الأمريكى مستقبلاً، وجيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكى الأسبق، وبرونت سكوكروفت مستشار الأمن القومى الأسبق، وجميع هؤلاء قد سبق لهم العمل فى حكومة جورج بوش الأب. وكان تشينى وبيكر قد انخرطا فى الصناعة النفطية، وربما كان تشينى هو الشخصية الأكثر نفوذًا فى البيت الأبيض أثناء كتابة هذه السطور، كما أن بيكر قد ظل محتفظًا بنفوذ رفيع المستوى كما هو الأمر بطبيعة الحال بالنسبة لبوش الأب، وهو الذى أطلق عليه اسم «الرئيس النفطى» Oil man's President، والحاشية المثيرة هنا هى أن بوش الأب ظل يعمل كمستشار مدفوع الأجر لعائلة بن لادن من خلال مجموعة كارليلى، والتقى بالأسرة مرتين.

وتهاوت هذه الصفقة عندما تعرضت للتفجير سفارتان أمريكيتان فى شرق إفريقيا فى نيروبى ودار السلام ووجه الاتهام إلى تنظيم القاعدة. ومنذ ذلك الحين انتقل «الهيام» الذى ربط بين واشنطن والطالبان - على الرغم من قصره - إلى الجمهوريات القزوينية الغنية بالنفط، والتى يتوافر لها جميعًا سجل حافل مريع

فى مجال التعدى على حقوق الإنسان. وفى الوقت الذى كان يتم فيه الإعداد لقصف أفغانستان، كان رامسفيلد يقدم وعودًا بعشرات الملايين من الدولارات إلى طاجيكستان وأوزبكستان واللتان تشتركان مع أفغانستان بحدود طولها تسعمائة ميل.

ولم يكن الروس غير سعداء بهذا الترتيب، عن اعتقاد بأن هذه الجمهوريات سوف تتحرك قريبًا من موسكو لكى تحقق توازنًا مقابلا لعلاقاتها مع الأمريكيين. وكان التعاون الذى أبداه فلاديمير بوتين محلا للتقدير فى واشنطن، وتمثل ذلك فى الاتجاه إلى المزيد من التخفيض فى الأسلحة الاستراتيجية والسماح له بالمضى فى «الحرب ضد الإرهاب» التى يخوضها لحسابه فى الشيشان، حيث قدر عدد القتلى بمائتى ألف شخص. وفى الوقت الذى كانت القاذفات الأمريكية تقوم بقصف أفغانستان كان بوتين يحل ضيفًا على جورج بوش فى مزرعته بتكساس. «إنه صديقى الجديد المقرب» كان هذا ما قاله بوتين عن بوش، وهو يلوح من عربة الجولف.

أما العضو الرئيسى الآخر فى الائتلاف ضد الإرهاب وهو الصين فقد كان الأسرع إلى تقديم المواساة عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. وبعد أن تحولت الصين، من خصم محتمل إلى صديق خلال ستة أشهر، كانت المكافأة التى حصلت عليها هى دخولها منظمة التجارة العالمية بدعم قوى من جانب الولايات المتحدة، أما العقوبات المفروضة على المبيعات من المعدات العسكرية التى فرضت عقب مذبحة ميدان تيانامين عام ١٩٨٩ فقد تم تخفيفها بما يسمح للصين بشراء قطع الغيار اللازمة لطائرات

الهليكوبتر (بلاك هوك) التى زودتها بها أمريكا فى الثمانينيات. أما موضوع التبت، والتجاوزات الفاحشة لحقوق الإنسان، فلم تعد الآن محل اعتبار، كما كان الحال بالنسبة للإساءات التى ارتكبها الطالبان ضد حقوق الإنسان عام ١٩٩٦.

وبالنسبة لتركيا، الدولة المسلمة الوحيدة فى حلف الناتو، فقد تم منحها قروضًا من جانب صندوق النقد، والبنك الدوليين، بناء على تعليمات من الأمريكيين. أما العمليات المحمومة للتطهير العرقى التى قامت بها الدولة التركية ضد الأقلية الكردية فلم تعد بدورها محل اعتبار من جانب الولايات المتحدة.

والدكتاتورية العسكرية فى باكستان قد تم رفع الحظر الغربى المفروض عليها عقب إجرائها لتجارب الأسلحة النووية، وقام صندوق النقد، والبنك الدوليان، بإعادة جدولة للديون المستحق سدادها. وسارع مجلس الشيوخ الأمريكى إلى إصدار قانون يسمح بمنح باكستان مساعدات عسكرية طارئة.

وكل ذلك كان يمضى على خطى ذلك النمط الذى سبق إرساؤه من قبل. فـ «الائتلاف» الذى هاجم العراق عام ١٩٩١، بقيادة الولايات المتحدة، قد تم التأليف بين المشاركين فيه من خلال تقديم أضخم الرشاوى التى شهدها التاريخ.

●●●

هناك «نظام عالمى» جديد فى طور التكوين ولكن الأهداف، بل حتى الكلمات، التى كانت سائدة أيام اللورد كيرزون مازالت قائمة.

ففى أعقاب ١١ سبتمبر، ومع حماسه للحديث نيابة عن رئيس الولايات المتحدة، أصبح تونى بلير أقرب مايكون إلى الإعلان عن النيات الحقيقية أكثر من أى رئيس وزراء بريطانى آخر منذ أنتونى إيدن.

والواقع أن بلير هو فى رئاسته الحكومية ليس أشبه بـ تشرشل المفضل لديه من بين أسلافه وإنما هو أشبه بـ إيدن آخر رجال «النظام القديم» البريطانيين، والذى هاجم مصر فى حرب السويس. وفى خطاب تبشيرى إلى مؤتمر حزب العمال الذى عقد بعد فترة قصيرة من ١١ سبتمبر أطلق بلير إشارة إلى المضى فى رحلة العودة إلى النظام الاستعماري ليأخذ مكانة محترمة.

ولأنه قد بعث بالقوات البريطانية أربع مرات منذ توليه السلطة فى ١٩٩٧ (العراق ويوجوسلافيا وسيراليون وأفغانستان) فإن بلير يعمد الآن إلى استثارة «الجانب الأخلاقى» لتبرير هذه العمليات وغيرها مما يمكن أن يقع مستقبلا. إن «الأخلاقية» هى إحدى كلماته المفضلة بل لقد كررها إحدى عشرة مرة فى خطاب له إلى المؤتمر حول ملكية الصحف نظمه روبرت ميردوخ. إن قصف يوجوسلافيا كان «حربًا صليبية أخلاقية» والمهمة التى قام بها الناتو كانت «أخلاقية خالصة» إلى آخره.

لنستمع الآن إلى رؤية هذا السيد المهذب المسيحى، عن عالم أفضل للجوعى والبائسين، والمحرومين، والجهلة، هؤلاء الذين يعيشون حياة فقيرة ومعدمة ابتداء من صحراوات إفريقيا الشمالية إلى أكواخ غزة إلى السلاسل الجبلية فى أفغانستان. لنستمع الآن

إلى اهتمامه الملتزم بـ «الحقوق الإنسانية للنساء الأفغانيات اللاتى يلاقين العناء» فى الوقت الذى يتواطأ فيه لقصفهن ومنع وصول الغذاء إلى أطفالهن الجوعى. (فى ١٦ سبتمبر ذكرت صحيفة نيويورك تايمز أن واشنطن قد طلبت تصفية قافلة الشاحنات التى تنقل الكثير من المواد الغذائية وغيرها من الإمدادات إلى الأهالى المدنيين الأفغان، وقام بلير لاحقًا برفض النداءات التى وجهتها إليه وكالات الإنقاذ الدولية بوقف أعمال القصف لفترة يتم خلالها نقل مواد الإغاثة).

تناقض غير معلن

يذكر فرانك فيوريدى فى كتابه «الأيديولوجية الجديدة للإمبريالية» أنه لم يمض وقت طويل على تلك الفترة التى نادرًا ماكانت الدعوى الأخلاقية للإمبريالية موضع تساؤل فى الغرب. كانت الإمبريالية (الاستعمار) والتوسع الكونى للقوى الغربية تصور فى عبارات إيجابية لايشوبها اللبس، كمساهمة ذات أثر بالغ فى الحضارة الإنسانية، ولم يخب هذا المسعى إلا عندما أصبح واضحًا أن الفاشية بكل أفكارها عن الاستعلاء العنصرى والثقافى كانت هى أيضًا «استعمارًا» وعندئذ كان اختفاء هذه العبارة من المعالجات الأكاديمية.

ومنذ نهاية الحرب الباردة كان المجال متاحًا لنشوء فرصة جديدة. لقد اتخذت الأزمات الاقتصادية والسياسية فى العالم النامى - والتى كانت على الأغلب نتيجة لحقبة مابعد الاحتلال الأجنبى مثل الاستنزاف المستمر للدماء فى الشرق الأوسط وتدمير

الأسواق السلعية فى إفريقيا ـ اتخذت كمبرر استرجاعى لفكرة الاستعمار، ورغم أن هذه الكلمة ظلت دون أن يفصح عنها، فإن الإنتلجنسيا الغربية سواء كانوا محافظين أو ليبراليين قد رددوا فى جرأة تعبيرهم المفضل وهو «الحضارة». فبداية من رئيس الوزراء الإيطالى سيلفيو بيرلوسكونى حليف الفاشية السرية حتى الصحفى البريطانى الليبرالى سابقًا هارولد إيفانز، فإن الإمبرياليين (الاستعماريين) الجدد يشتركون فى تبنى فكرة يرتكز معناها الحقيقى على التناقض غير المعلن مع هؤلاء الناس «غير المتحضرين» أى الأقل شأنًا، والذين يمكن أن يتحدوا «القيم» الغربية، وخاصة حق الغرب الإلهى فى الهيمنة والنهب.

وهناك اجتهادات عديدة تحدد معالم الاستعمار الجديد، ولكن ليس من بينها ماهو أقوى حجة من تلك التى صاغها زبيجنيو بريجنسكى، مستشار العديد من الرؤساء الأمريكيين، وواحد من أكثر المنظرين نفوذًا فى واشنطن، والذى قيل إن كتابه الصادر عام ١٩٩٧ يعتبر بمثابة الحجة اللاهوتية بين «جماعة بوش» والإنتلجنسيا المرتبطة بها. فى كتابه «رقعة الشطرنج الكبرى: التفوق الأمريكى وحتمياته الجيو استراتيجية» كتب بريجنسكى يقول: «منذ أن بدأت القارات فى التداخل سياسيًا منذ خمسمائة عام كانت الأورو ـ آسيا هى مركز القوة العالمية».

وقد حدد تعريف الأورو ـ آسيا بأنه جميع الأراضى الواقعة شرق ألمانيا وبولندا، والممتدة عبر روسيا والصين حتى المحيط الهادى (الباسفيكى)، وتشمل الشرق الأوسط وأغلب دول شبه القارة

الهندية. ومفتاح السيطرة على هذه المنطقة الواسعة من العالم هو آسيا الوسطى. فالسيطرة على تركمنستان وأوزبكستان وطاجيكستان وقرغيزستان لاتضمن توفير مجرد مصادر جديدة للطاقة والثروة المعدنية فحسب، وإنما توفر أيضًا «مركز حراسة» Guardpost يمكن من إحكام السيطرة الأمريكية على نفط الخليج الفارسى.

وكتب بريجنسكى يقول: «ماهو الأكثر أهمية لتاريخ العالم: الطالبان أم تهاوى الإمبراطورية السوفيتية؟ بعض المسلمين المستشارين أم تحرير أوروبا الوسطى؟ وقد جاء رد المسلمين المستثارين فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١».

يقول بريجنسكى: «لقد تم إنجاز الأسبقية الأولى، وهى الإخضاع الاقتصادى للقوة العظمى السابقة. فما إن تهاوى الاتحاد السوفيتى - كما كتب يقول - حتى تمكنت الولايات المتحدة من الاستيلاء على نحو ما يقدر بـ ٣٠٠ بليون دولار من الممتلكات الروسية، كما استطاعت أن تهز الاستقرار النقدى، وأن تضمن أنه لن يكون هناك خيار آخر أمام روسيا الضعيفة سوى الاتجاه غربًا نحو أوروبا لتحقيق الإنعاش الاقتصادى والسياسى، وليس التوجه نحو جنوب ووسط آسيا. وقد استبعد تحليل بريجنسكى فكرة «نشوب حروب محلية كردود على الإرهاب». بل لقد اعتبر أن هذه الحروب يمكن أن تكون البداية للصراع النهائى الذى يقود حتمًا إلى تفكك الحكومات الوطنية، وإحكام الولايات المتحدة لهيمنتها على العالم.

إن الدول الوطنية سوف يقدر لها الإندماج فى «النظام الجديد» ولن يحكمها سوى مصالحها الاقتصادية بالشكل الذى تفرضه عليها المصارف والشركات الدولية والنخب الحاكمة المعنية فحسب بالإبقاء على سلطتها (سواء بالمناورة أو الحرب). وكتب يقول: «لوضع الفكرة فى الصيغة الاصطلاحية التى تعود إلى العصر الأكثر وحشية فى الإمبراطوريات القديمة، فإن الحتميات الثلاث الكبرى للجيو استراتيجى (الجغرافيا الاستراتيجية) للإمبريالية تتمثل فى: ١ـ الحيلولة دون التآمر والإبقاء على الدول التابعة فى حالة من الاعتماد الأمنى. ٢ـ الإبقاء على الأتباع طبيعيين وشاعرين بالحماية. ٣ـ الحيلولة دون التقاء البرابرة مع بعضهم البعض».

وربما كان من السهل أن يتم التغاضى عن مثل هذه الأفكار باعتبارها رسالة صادرة عن أقصى اليمين. ولكن بريجنسكى يمثل تيارًا رئيسيًا، فلقد كان مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر، وكانت شخصيته لها نفوذها فى عهد بوش الأب، وفى عهد كلينتون، وله نفس التأثير الآن فى عهد بوش الابن. ويشمل تلامذته مادلين أولبرايت، وجون نيجروبونتى العقل المدبر وراء الإرهاب الأمريكى فى أمريكا الوسطى ومندوب بوش لدى الأمم المتحدة، وعندما كان سفيرًا لأمريكا فى هندوراس فى أوائل الثمانينيات كان يشرف على قيام النظام بتمويل فرق الموت المعروفة باسم الكتيبة ٣ ـ ١٦ والتى تولت مهمة استئصال المعارضة الديمقراطية. كما تولى إدارة حرب الإرهاب المضادة التى نظمتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ضد نيكاراجوا. وعقب مرور شهر على الهجوم الذى

تعرض له برجا نيويورك كتب نيجروبونتى إلى مجلس الأمن بالأمم المتحدة يقول: «إن دفاع أمريكا عن نفسها.. يتطلب اتخاذ المزيد من العمليات تجاه الدول الأخرى». لقد كان يهدد العالم.

●●●

كتب توماس فريدمان، حارس السياسة الأمريكية الخارجية فى صحيفة نيويورك تايمز، يقول: «إن اليد الخفية للسوق لن يكون فى إمكانها العمل إطلاقا بدون قبضة خفية، فـ «ماكدونالدز» لايمكنها أن تحقق الازدهار بدون وجود ماكدونيل دوجلاس مصمم المقاتلة إف ـ ١٥. والقبضة الخفية التى تبقى على العالم مكانًا آمنًا لوادى سيليكون Silicon التكنولوجى اسمها الجيش الأمريكى والقوة الجوية والأسطول ومشاة البحرية».

والقوة الأمريكية الحقيقية غالبًا توصف بأنها اقتصادية: تلك القوة المتاحة لدولة تسيطر على أكثر من ثلث مصادر الثروة فى العالم، وتوجد بها شركات عملاقة مثل ميكروسوفت وموتورولا وفورد وكوكاكولا تزيد فى قوتها على الحكومات. وهذه رؤية مألوفة وليست سائدة فى الحركة المناهضة للعولمة دون غيرها. «إن الحكومات قد تقلص دورها ليقتصر على القيام بدور الخادم المطيع لدوائر الأعمال الكبرى» كان هذا ماكتبته نورينا هيرتز المالية المنشقة فى لندن، وحتى حكومة الولايات المتحدة قد فرطت فى سلطة الدولة. وأشارت فى هذا الصدد إلى «الخضوع المخجل من جانب جورج بوش للشركات النفطية الكبرى».

توسيع نطاق الحدود

ومايتردد من خداع عن الدولة الضعيفة هو الستار الدخانى الذى ينصبه المخططون لقيام «النظام الجديد». فلقد قامت مارجريت ثاتشر بتركيز السلطة التنفيذية فى قبضة الدولة فى الوقت الذى كانت تدعى فيه عكس ذلك، وهذا هو نفس مافعله تونى بلير. والمشروع الأوروبى يدور بالكامل حول توسيع نطاق الحدود التى تعمل الدولة فى إطارها، والصين الشمولية قد باركت فكرة السوق «الحرة» فى الوقت الذى كانت تعمل فيه على ترسيخ سلطة جهازها الحكومى الممتد.

ومع ذلك فقد كانت الولايات المتحدة هى التى تجاوزت الجميع فى هذا الصدد. فقد كانت أمريكا التى خرجت من الحرب منتصرة دون أن يمسها الضرر هى التى صاغت «الاقتصاد الكونى» الحالى فى مؤتمر عقد فى ريتون وودز فى نيو هامبشاير عام ١٩٤٤، وهو ما أعطى المؤسسات العسكرية والصناعية الأمريكية نفاذًا غير محدود إلى المعادن والنفط والأسواق وقوة العمل الرخيصة، وجرى اختراع البنك وصندوق النقد الدوليين لتنفيذ هذه الاستراتيجية. فقد كانت قاعدتهما فى واشنطن حيث يرتبطان بحبل سرى مع الخزانة الأمريكية. وكانت القوة التصويتية لأعضائهما محددة بدرجة الثراء، وبذلك كان لأمريكا الهيمنة عليهما. وكان رئيس البنك الدولى دائمًا أمريكيًا.

ويتماشى ذلك مع القول التاريخى المأثور عن جوروج كينان بأن «الوظيفة الحقيقية» لأمريكا هى الإبقاء على التفاوت الاقتصادى

بينها وبين بقية العالم «والتوقف عن التفكير حول حقوق الإنسان ورفع مستويات المعيشة وإقامة الديمقراطية». لقد وضع فى بريتون وودز خطة العمل لعولمة الفقر واستخدام الديون كسلاح.

وعندما اقترح جون مينارد، الممثل البريطانى فى بريتون وودز، القيام بفرض ضريبة على الدول الدائنة بهدف الحيلولة دون وقوع الدول الفقيرة فى الاستدانة الدائمة، قيل له من جانب الأمريكيين إنه فى حالة إصراره على هذا الاقتراح، فلن يكون فى إمكان بريطانيا الحصول على قروض الحرب التى كانت فى حاجة ماسة إليها. وعقب ذلك بأكثر من نصف قرن، تضاعفت الفجوة فى الثراء بين العشرين فى المائة من البشرية الذين يشكلون القطاع الأكثر ثراء وبين العشرين فى المائة الأكثر فقرًا.

وأصبحت هناك نخبة تضم أقل من بليون من البشر تهيمن على ثمانين فى المائة من ثروات العالم. وبواسطة الهيئات التى تديرها واشنطن، ومن خلال «برامج التقويم الهيكلية» أمكن تأمين وجود إمبراطورية غارقة فى الديون، ذات نطاق يزيد اتساعًا على الإمبراطورية البريطانية وهى فى ذروة مجدها.

«إن العولمة لاتعنى إصابة الدولة بحالة من العقم»، كما كتب الاقتصادى والمنشق الروسى بوريس كاجارليتسكى، ولكنها تعنى وفقًا لما يقول: «تخلى الدولة عن وظائفها الاجتماعية لصالح الطغمة المتسلطة، وانعدام المسئولية من جانب الحكومات، ونهاية الحريات الديمقراطية». ومنذ أيام ثاتشر وريجان فى الثمانينيات كانت الدول الاشتراكية الديمقراطية تتطلع صوب أمريكا. وتلقى

عن كاهلها بشكل متزايد عبء النهوض بـ «الوظائف الاجتماعية». وأصبح القهر هو النتيجة الملازمة.

فى أعقاب ١١ سبتمبر أجاز الكونجرس قانونًا أطلق عليه اسم «قانون المواطن» يضع الأساس لدولة بوليسية. وبهذا القانون تم التراجع عما تراكم على مدى أكثر من قرنين من «الكوابح والتوازنات» الدستورية، بل إن بعضها قد أصبح يشكل خروجًا القانون. وألقى القبض على الكثير من المسلمين الأمريكيين، وزج بهم فى السجون دون محاكمة، ورفضت وزارة العدل الإفصاح عن عددهم. وبواسطة أمر تنفيذى أقام جورج بوش محاكم عسكرية سرية لتقوم بمحاكمة وسجن وإعدام الجنسيات الأجنبية، ويتم كل ذلك سرًا دون توافر أى نظام للمراجعة أو الاستئناف. ولأول مرة منذ عام ١٨٦١ تم تعليق تنفيذ الإجراء الخاص بعدم جواز اعتقال الأشخاص دون صدور أمر قضائى. كما جرى إصدار تشريع «مضاد للإرهاب» فى بريطانيا، إضافة إلى اتساع نطاق عدم الالتزام بالمحاكمة فى وجود محلفين. وعلى نحو مماثل تم فى استراليا تعديل قوانين الحفاظ على السرية بحيث اعتبر تسريب معلومات حكومية جريمة لها نفس خطورة جرائم التجسس.

وكتب أندرو ستيفن مراسل صحيفة نيو ستيسمان فى واشنطن يقول: «إن الجو السائد قد وصل إلى حد أن مايفترض أنهم محللون ليبراليون فى الصحف قد أصبحوا يتجادلون حول مساوئ ومزايا تعذيب المسجونين، ويصلون فى النهاية إلى القول بأنه لابأس من السماح بالتعذيب فى هذه الظروف غير العادية. وذلك

يعيد إلى الأذهان فترة الماكارثية خلال حقبة الخمسينيات، عندما استهلك هوس الحفاظ على أمن الدولة الكثير من مقومات الحياة الأمريكية، وعلق تنفيذ مبادئ إعلان حقوق الإنسان، وأملى السياسة الخارجية. ومع الانصياع للدوافع الشمولية التى هى لصيقة بأمريكا بقدر التصاقها بالرابع من يوليو، يكون تحول الولايات المتحدة إلى البلوتوقراطية (حكومة الأثرياء).

إن عصبة بوش غير المنتخبة تتألف من أصوليين أصلاء، هم ورثة جون فوستر دلاس وأخيه آلان، المعمدانيين المتعصبين، اللذين توليا إدارة وزارة الخارجية، ووكالة المخابرات المركزية، كل فيما يخصه، وقاما بسحق الحكومات الإصلاحية فى بلد بعد الآخر - إيران، العراق، جواتيمالا - ومزقا الاتفاقات الدولية مثل اتفاقيات جنيف لعام ١٩٥٤ حول الهند الصينية. والخلاف القائم هو أنه فى سنوات الخمسينيات كانت العاصمة الأمريكية فى كامل قوتها، بينما كان المنافسون المحتملون: أوروبا وآسيا والاتحاد السوفييتى يعانون الضعف.

أما اليوم، وكما كتب جون ريز، فإن قدرة أمريكا على ضمان الاستقرار الاقتصادى لنظام الرأسمالية الكونية قد تراجعت إلى حد كبير خلال فترة مابعد الحرب. وعدم الاستقرار الاجتماعى والسياسى الناجم عن هذه الحقيقة يلقى بتحديات مستمرة فى مواجهة القوة الأمريكية.

ويأتى التحدى الذى لم يكن متوقعًا على الأغلب مما نجم عن العولمة من اضطرابات اقتصادية، وانقسامات بين الجانب الأكبر

من الإنسانية. فى عام ١٩٩١، كانت الأزمة التى تواجه الدول الأقل نموًا، أو الدول الهابطة Failed states وفقًا للاصطلاح الدارج، موضوع برنامج عمل طموح انطلق من مؤتمر الدول الأقل نموًا الذى عقد فى باريس، أو هكذا كانت تبدو الأمور.

وعقب ذلك بعشر سنوات، كانت جميع الالتزامات التى قطعها مؤتمر باريس على نفسه قد تم نقضها، وكانت الدول الأفقر فى حال أكثر بؤسًا مما كانت عليه فى عام ١٩٩٠، ولم يكن التأكيد على أن «تحرير الاقتصاد» و«الاقتصاد القائم على أساس من النمو التدريجى الثابت» يؤدى إلى خلق الثروة، سوى مدعاة للسخرية. فعدد الدول الفقيرة قد زاد فى واقع الأمر، وأصبح مايقارب من نصف سكانها يعيشون على أقل من دولار واحد فى اليوم. وتدهورت معدلات أعمارهم لتصبح أقل بخمسة وعشرين عامًا عن معدلات أعمال سكان الدول النامية، والقليلون فى أفغانستان هم الذين يعيشون حتى يتجاوزوا الأربعين من عمرهم.

مزيد من الفقر

ويقر البنك الدولى الآن بأن عددًا قليلاً من الدول الأكثر فقرًا هى التى سيتاح لها بلوغ «أهداف تخفيض الفقر» مع عام ٢٠١٥؛ وبالأحرى، فإن «برامج التقويم الهيكلى» القائمة على أساس الخصخصة، والاستدانة، وتدمير الخدمات العامة، قد أدت إلى المزيد من الإفقار، وكان لها الأثر السيئ على نسبة ضخمة من سكان العالم.

فى العالم الفقير والأقل نموًا يشعر الناس بأنه يجرى الآن نوع من الفرز لتحديد ما إذا كانوا هم وأسرهم سيبقون على قيد الحياة أم سيتركون ليلاقوا حتفهم، وهم فى ذلك أشبه بمصابى الحروب الذين يتم فرزهم لتحديد أيهم يمكن أن يبقى على قيد الحياة فيتم علاجه، وأيهم يعتبر ميئوسًا منه فيترك حتى يموت. وعندما تم رفع الدعم من على الرسوم الجمركية والمواد الغذائية والوقود والمزارعين وغير الحائزين لأراض زراعية، بناء على أوامر صندوق البنك الدولى IMF ، أدرك صغار المزارعين وغير الحائزين لأراض زراعية أن هذا بمثابة إعلان بإقصائهم عن مزاولة عملهم. وانضم هؤلاء إلى ٧٥٠ مليونًا من البشر الذين يعيشون فى شبه بطالة أو يعانون البطالة.

وتقول مؤسسة المصادر العالمية إن حصيلة العولمة قد وصلت إلى وفاة ما يتراوح بين ١٣ و١٨ مليونًا من الأطفال فى كل عام، أو وفاة ١٢ مليون طفل تحت سن الخامسة، وفقًا لتقرير التنمية الصادر عن الأمم المتحدة.

وقد كتب ميكائيل ماكنلى يقول: «إذا كان مائة مليون شخص قد قتلوا خلال الحروب الرسمية التى شهدها القرن العشرون فلماذا يكون لهم فضل التميز عن الحصيلة السنوية لوفيات الأطفال الناجمة عن برامج التقويم الهيكلى منذ عام ١٩١٢؟». وهو ينقل عن ليستر ثيرو قوله: «إن المأساة التى حلت بالإنسانية ليست تشبيهًا بالحروب، ولا استعارة غن الحرب، ولكنها الحرب ذاتها».

وعن هذا الوضع نشأت حركة مقاومة شعبية على نطاق غير

مسبوق، وابتداء من حركة الذين لايحوزون أرضًا فى البرازيل، إلى حملات مناهضة الخصخصة فى آسيا وإفريقيا، إلى المظاهرات العامة الضخمة التى شهدها الغرب، مثل تلك التى نشبت فى سياتل وجنوا. والشىء السائد فى جميع تلك الحركات الجماهيرية هو الشعور بأن الناس العاديين واقعون تحت الاحتلال كما فى حالة الحرب.

أحد الأصدقاء الذي شغل لفترة قصيرة منصب رئيس الوزراء فى أحد البلدان الأقل نموًا، أى واحدة من أكثر دول العالم فقرًا، قال لى: «كنت ألحظ أن رجال البنك الدولى يصلون هنا يوم الاثنين، ويغادرون يوم الأربعاء. وكانوا يأتون وفى حقائب أيديهم كل ما يحتاجون إلى معرفته: النماذج التى ينبغى أن يكون عليها اقتصادنا، بغض النظر عن الحقيقة على أرض الواقع. كانوا يمضون معظم وقتهم فى فندق الإنتركونتننتال، يعقدون اجتماعات مع هؤلاء الذين يقولون لهم مايودون الاستماع إليه. وكذلك كان الحال بالنسبة لرجال صندوق النقد الدولى. كانت الحكومة البريطانية تقول كلامًا ملطفًا حول إلغاء الديون، ولكن كان الأمر ينتهى بشراء البضائع البريطانية، وعقد الصفقات مع المصانع البريطانية. كان الربح هو الكلمة التى لم ينطق بها أحد، ولكنها كانت محلقة دومًا فى الجو. وفى حالة قيامنا حتى بمجرد التلميح إلى الاعتراض على شىء من ذلك، فقد كنا نلقى التحذير، أحيانًا بخشونة، بأنه ليس أمامنا طريق آخر. ومع ذلك فقد كان أملنا الوحيد هو الخروج من هذا الطريق.

ولقد كان ذلك واضحًا خلال انعقاد الاجتماع السنوى الرابع لمنظمة التجارة العالمية WTO فى مدينة الدوحة عاصمة دولة قطر الخليجية فى نوفمبر ٢٠٠١. ورغم أن منظمة التجارة العالمية تضم ١٤٣ عضوًا، فقد كانت إحدى وعشرون حكومة فقط من حكومات الدول الأكثر ثراء هى التى سمح لها بصياغة السياسات، والتى كان قد سبق كتابة غالبيتها فعلاً بواسطة الرباعى: الولايات المتحدة وأوروبا وكندا واليابان. وقد طالبت هذه الدول الغنية بجولة جديدة مما أطلقوا عليه اسم «تحرير التجارة» وهى السياسة التى تتيح سلطة التدخل فى اقتصاديات الدول الفقيرة، وفى طلب تنفيذ برامج الخصخصة والقضاء على الخدمات العامة. وقد سمح لهم دون غيرهم بتوفير الحماية لصناعاتهم المحلية ولمحصولاتهم الزراعية؛ وكانوا هم دون غيرهم الذين سمح لهم بالحق فى تقديم الدعم لصادراتهم من اللحوم والحبوب والسكر، وإغراق أسواق الدول الفقيرة بها بأسعار منخفضة بشكل مصطنع، وبما يؤدى إلى تدمير حياة المزارعين فى هذه الدول (فى الهند، وكما يقول فاندانا شيفا المناصر لحماية البيئة، تحول الانتحار بين صغار المزارعين إلى الحالة وبائية).

وقبل افتتاح مؤتمر الدوحة أثار الممثل التجارى الأمريكى روبرت زويليك موضوع الحرب ضد الإرهاب وقال: «إن الولايات المتحدة ملتزمة بتولى القيادة الكونية للانفتاح، وتدرك بأن القوة المستقرة لائتلافنا الجديد إنما تعتمد على النمو الاقتصادى». والمضمون الذى تنطوى عليه هذه العبارة لايحتاج إلى المزيد من الإيضاح.

فالنمو الاقتصادى (النخبة الغنية والغالبية الفقيرة) يعادل معاداة الإرهاب. مارك كيرتس المؤرخ والمسئول بهيئة المساعدات المسيحية والذى حضر مؤتمر الدوحة وصف بروز «نمط من التهديدات والتخويف للدول الفقيرة يصل مداه إلى حد استخدام دبلوماسية البوارج الاقتصادية». يقول تعقيبًا: «إن الأمر مثير تمامًا لمشاعر الحنق. إن الدول الغنية قد استخدمت نفوذها فى وضع نقاط جدول الأعمال الخاصة بالمسائل الكبرى. إن المسألة الخاصة بالشركات متعددة الجنسيات كسبب لأحداث الفقر لم يتم حتى وضعها على جدول الأعمال، كان الأمر أشبه بمؤتمر يبحث فى مرض الملاريا ولكنه لم يقم حتى بمناقشة الأثر الذى يحدثه البعوض.

ويقول أحد المندوبين الأفارقة: «إذا تحدثت بقوة تتجاوز الحد، فإن الولايات المتحدة سوف تقوم بالاتصال هاتفيًا مع وزيرى، وسيقولون له إننى أسبب إحراجًا للولايات المتحدة. ولن تقوم حكومتى حتى بسؤال عما قلت، ولكنهم سوف يطلبون منى المبادرة بالعودة فى اليوم التالى. ولذلك فإننى لا أتحدث خشية أن أسبب إزعاجًا للسيد».

ولقد صدرت تهديدات إلى هاييتى وجمهورية الدومنيكان بسحب التفضيلات التجارية الخاصة الممنوحة لهما من الولايات المتحدة إذا ما أبدتا اعتراضًا على «الجولة» الجديدة من «التجارة الحرة».

وفى الدوحة، أعلنت الحكومة البريطانية عن أنها سوف تمنح عشرين مليون جنيه استرلينى لمساعدة الدول الفقيرة «على صياغة

سياساتها الاقتصادية والانخراط فى منظمة التجارة العالمية»، ووصفت وزيرة التجارة بارونيس سسيمونز هذا العرض بأنه بمثابة «حزمة من الإجراءات الجديدة» والواقع أن حكومة بلير قد ميزت نفسها بالخداع الإحصائى، حيث سبق لها أن كررت الإعلان عن نفس المبالغ «الجديدة» من النقود المخصصة للإنفاق على الصحة والتعليم. وهنا أيضًا فإن العشرين مليون جنيه «الجديدة» المخصصة للدول الفقيرة كان قد سبق التعهد بها فى ديسمبر ٢٠٠٠ ومرة ثانية فى مارس ٢٠٠١، وفى المرات الثلاث كانت كلير شورت وزيرة الدولة تعلن عن «مضاعفة» المعونة البريطانية. وكان هذا تزييفًا. ويبدو أن حافظة «التنمية الدولية» الخاصة بها تأتى من نفس المعجم الأورويللى الذى استقى منه بلير قصفه «الأخلاقى».

وحقيقة ادعاءات الغرب بشأن مساندة «تنمية» العالم الفقير «والتجاوز» عن ديونه، والجهود المبذولة بوجه عام لـ «إقلال حدة الفقر» هذه الحقيقة يمكن الكشف عنها من خلال الإحصاءات الخاصة بالمساعدات الأجنبية. فعلى الرغم من أن أعضاء الأمم المتحدة قد اتفقوا على أن الدول الغنية ينبغى أن تخصص مالايقل عن ٠,٧ فى المائة من إجمالى دخلها القومى لتقديمها كمساعدات فعلية للعالم الفقير، فإن بريطانيا لاتخصص لهذه المساعدات سوى نسبة ٠,٣٤ فى المائة، أما الولايات المتحدة فلا يتجاوز ماتخصصه للمساعدات ٠,١٩ فى المائة.

وهناك مثالان يوضحان معالم القصة. فأحد المشروعات التى تشير إليها كلير شورت هو فى غانا، حيث أوضح المسئولون

البريطانيون، وفقًا لما تدل عليه المستندات الداخلية، أن تقديم أموال المساعدات الخاصة بمشروع لتنقية المياه يشترط له القيام بخصخصة مرفق المياه فى الدولة. ومن شأن هذا أن يحقق الأرباح لواحدة على الأقل من الشركات البريطانية متعددة الجنسيات، فى الوقت الذى يضاعف فيه من قيمة فواتير استهلاك المياه التى يدفعها الناس الأكثر فقرًا.

وفى قانون المساعدات الأجنبية الذى أجازه مجلس الشيوخ الأمريكى لعام ٢٠٠٠ لم تخصص سوى حصة ضئيلة لاتتجاوز ٧٥ مليون دولار لمساعدة الدول الأكثر فقرًا، وهو مبلغ يعادل عشر تكلفة الطائرة القاذفة بى ـ ٥٢. وقد تمت الموافقة بمقتضى نفس القانون على تخصيص ١,٣ بليون دولار للعسكرية الكولومبية والتى تعد إحدى أسوأ المتعدين على حقوق الإنسان فى العالم.

●●●

لقد جاءت أحداث ١١ سبتمبر لتؤكد فكرة توماس فريدمان عن «اليد الخفية» للعولمة ربما بأكثر من أى وقت مضى. فالحروب الاقتصادية الأمريكية يساندها فى الوقت الحالى ذلك التهديد الدائم بالهجوم العسكرى على أية دولة دون الحاجة إلى غطاء قانونى، ولقد جاء التأكيد الواضح على ذلك من جانب قيادة الفضاء الأمريكية فى وثيقة عامة مثيرة للاهتمام بعنوان «رؤية لعام ٢٠٢٠».

«من الناحية التاريخية تطورت القوات المسلحة لتوفير حماية

للمصالح والاستثمارات - سواء عسكرية أو اقتصادية - فخلال فترة نشوء التجارة أنشأت الدول الأساطيل لحماية وتدعيم مصالحها التجارية - وخلال التوسع غربًا فى اتجاه الولايات المتحدة القارية، كانت إقامة المراكز العسكرية وسلاح الفرسان لحماية قطاراتنا ومستوطناتنا وخطوطنا الحديدية.

وظهور القوة الفضائية يقتفى أثر كلا النموذجين، وعلى الرغم من عدم احتمال مواجهة التحدى من قبل منافس كونى يكون ندا لها، فإن الولايات المتحدة سوف تظل مستمرة فى مواجهة التحدى على المستوى الإقليمى.

إن عولمة الاقتصاد العالمى، مع مايترتب عليها من زيادة الفجوة بين الذين «يملكون» والذين «لا يملكون»، هذه التحديات ينبغى مواجهتها من خلال «السيطرة الطيفية الكاملة Full spectrum Dominance بحيث يسمح للمجال الفضائى، والذى يشكل المجال الرابع فى خوض الحروب - إلى جانب الأرض والبحر والهواء - لسد الفجوة المتزايدة الاتساع بين الموارد الآخذة فى التقلص وبين الالتزامات العسكرية الآخذة فى الزيادة».

والمخططون «للسيطرة الطيفية الكاملة» يدركون أنه مازال هناك الكثير الذى ينبغى فعله على الأرض قبل أن يتم تسليم الشعلة إلى الجنرال هاول إيستس قائد القوات الفضائية. ففى أعقاب نهاية الحرب الباردة، وبهدف تبرير الهيمنة العسكرية الأمريكية، قامت الولايات المتحدة بشن ثلاث من «الحروب الاستعراضية». جاءت الحرب الأولى فى نهاية ١٩٨٩، وهى السنة الوداعية للحرب

الباردة، حيث كان سقوط جدار برلين، وكان الهدف هو بنما، ذلك البلد الصغير فى أمريكا الوسطى، المعروف بقناله وفقره.

وقامت الولايات المتحدة بغزو بنما بواسطة قوات خاصة وباستخدام الهليكوبتر، وتسببت فى قتل الآلاف من الناس من قاطنى أكثر الأحياء فقرًا فى بنما سيتى. الصحفية الأمريكية مارثا جيلبورن، التى توجهت إلى هناك للتقصى بعد مضى عام على الغزو، قدرت عدد ضحاياه «بما لايقل عن ستة آلاف» وهؤلاء القتلى، الذى لم يكادوا يلقون أى اهتمام من جانب وسائل الإعلام «الميديا» كانوا هم الثمن المدفوع مقابل القبض على الجنرال مانويل نورييجا، القائد البنمى الذى ألصقت به تهمة تهريب المخدرات، (كانت الولايات المتحدة عندئذ تجرب خوض «الحرب ضد المخدرات» لتكون بديلا للحرب الباردة).

وفى ظروف أقل تراجيدية كان يمكن لهذا الأمر أن يكون مثيرًا للضحك. ذلك أن نورييجا كان صديقًا مقربًا من جورج بوش الأب، الذى عرفه منذ أن كان مديرًا لوكالة المخابرات المركزية، وكان نورييجا عميلاً للوكالة. ولقد ظلت المخدرات لوقت طويل تستخدم كعملة من جانب وكالة المخابرات المركزية. ومثل بقية الدكتاتوريين العملاء فقد تطاول نورييجا وتوقف عن تلقى الأوامر، وكانت النتيجة هى غزو بلده ومقتل الآلاف خلال ذلك؛ حتى يتمكن الأمريكيون من اختطافه، وهو الآن يقضى السجن مدى الحياة فى سجن فلوريدا. ولم يكن هذا الممثل المزعج سوى مجرد ذريعة. لقد كانت الولايات المتحدة حريصة على إعادة فرض هيمنتها على قناة

بنما من خلال أداة يمكن الاعتماد عليها أكثر من نورييجا. وكان هدف الغزو، ربما قبل أى شىء آخر، هو إظهار التصميم الأمريكى أمام الآخرين الذين قد يفكرون فى أن يمضوا فى طريق خاص بهم فى سنوات مابعد الحرب الباردة. فالأمر، كما أشار هنرى كيسنجر، هو «أن أمريكا فى بعض الأحيان انطلاقًا من حكمتها، يكون عليها استعراض قواها العسكرية أثناء التحولات الحاسمة فى تاريخها».

وكانت الحرب الاستعراضية الثانية ردًا على الغزو العراقى للكويت فى ١٩٩٠. وكان الهدف هو إظهار السيطرة الأمريكية على الحقول النفطية فى الشرق الأوسط، (طالع الفصل السابق: دفع الثمن). وقد أعقبها فى ١٩٩٢ القيام بغزو الصومال. وكان هدف هذه الحرب التى أخذت الاسم الكودى «عملية استعادة الأمل» هو أن تكون بمثابة اختبار طريق لاستراتيجية أطلق عليها «التدخل لأغراض إنسانية» كان مخططا لأن تكون بديلا لاستراتيجية «الحرب ضد المخدرات». وعندما وصل المارينز الأمريكيون إلى شواطئ الصومال بهدف «إطعام الجياع» نشرت مجلة «تايم» صورة ملونة على صفحتين لأطفال صوماليين يمدون أيديهم إلى جندى أمريكى للحصول على «هدية الأمل» والواقع أن المجاعة كانت قد انتهت تمامًا فى ذلك الحين.

ولاح شيطان ملائم من طراز نورييجا، ممثلا فى شخص الجنرال محمد فرح عيديد. ولأنه «أمير حرب» سبق له الموافقة على التفاوض مع الأمم المتحدة، فقد أصبح عيديد هو «الشرير» الأساسى الذى يسعى المارينز الأمريكيون إلى القبض عليه «حيًا أو

ميتًا». عندئذ فقط كما قال البنتاجون، يمكن أن تتوقف عمليات نهب المخزونات الغذائية. وكان كل هذا خرافة مألوفة. فالمخزونات الغذائية كان يتم نهبها لأنه لم يكن هناك مايكفى من الغذاء. ولم يكن هناك مايكفى من الغذاء لأن الصومال قد تركت مفلسة بعد رحيل النظام الدموى لمحمد زياد برى، وهو عميل أمريكى، سبق له الانضمام إلى «اللعبة الكبرى» لإلحاق الهزيمة بالنفوذ السوفيتى فى القرن الإفريقى، بعد أن قام بتحويل ولائه من جانب إلى آخر. وكان هناك أيضًا المسألة الخاصة بحقول النفط الصومالية، فقد كان عيديد مجرد قائد لواحد من خمسة عشر فصيلا يتقاتلون لسد الفراغ، ولم يكن، كما هو الحال بالنسبة لطالبان وقوات تحالف الشمال فى أفغانستان، يزيد أو يقل دموية عن خصومه.

(فى الوقت الحالى تقوم الولايات المتحدة بتمويل ابن الجنرال عيديد، حسين عيديد، الذى يدعى بأن فى إمكانه أن يقود الأمريكيين إلى إرهابيى القاعدة).

وقد خدم غزو الصومال فى صرف الاهتمام عن المحاولات المحمومة التى كان يبذلها الرئيس جورج بوش الأب الذى كان فى ختام حياته السياسية عقب هزيمته من بيل كلينتون، لإصدار عفو عن هؤلاء الذين يمكن أن يكونوا قد ورطوه فى الجرائم الخاصة بفضائح إيران ـ كونترا. وكانت النتيجة التى حققتها عملية استعادة الأمل هى وفاة مايتراوح بين سبعة وعشرة آلاف صومالى. وهذه الأرقام، المستندة إلى تقديرات وكالة المخابرات المركزية، لم يتم نشرها، حسب علمى، فى وسائل الإعلام السيارة، التى كان

تركيزها على السخط الناجم عن وفاة ثمانية عشر من الأمريكيين، الذين تم مؤخرًا تمجيد ذكراهم فى فيلم أنتجته هوليوود باسم «سقوط الصقر الأسود» على غرار أفلام التزييف التى أعقبت حرب فيتنام، والتى احتفت بالغزاة، وصورتهم على أنهم كانوا ضحايا.

فى أعقاب قصف أفغانستان كتب المحرر الدبلوماسى لصحيفة الجارديان يقول: «إن ثمانية عشر جنديًا أمريكيًا قد قتلوا بوحشية (فى الصومال) عام ١٩٩٣ وأن هناك الآن «فرصة متاحة لتصفية الثأر القديم»» ومرة أخرى لم يكن هناك إشارة إلى الآلاف من الصوماليين الذى قتلوا بوحشية بواسطة هؤلاء الذى قدموا ليجلبوا لهم «هدية الأمل».

●●●

صور مثيرة للفزع

بعد مرور مايقرب من عقد على حرب الخليج فى ١٩٩١ تحدث المصور الأمريكى كين جاركى عن الرقابة المفروضة بواسطة المنع على الصحافة «الحرة». كان مايتحدث عنه هو الصورة المثيرة للفزع التى التقطها لرجل عراقى احترق حتى تحولت جثته إلى رماد أسود، وتحجر هيكله المتفحم على عجلة قيادة السيارة التى كان يقودها على طريق البصرة، حيث تعرض هو والمئات غيره للموت احتراقًا بواسطة الطيارين الأمريكيين خلال عملية «اصطياد الديكة» Turkey shoot التى نفذوها ضد الفارين من الكويت، سواء

من العراقيين، أو غيرهم من الجنسيات الأخرى الذين كانوا غالبا من العمال الأجانب.

كانت صحيفة الأوبزرفر البريطانية هى وحدها التى نشرت الصورة، ولو أن ذلك لم يكن فى الصفحة الأولى كما كانت تستحق، أما فى الولايات المتحدة فقد استمر حجب الصورة عن النشر حتى فترة طويلة من انتهاء الحرب؛ فمثل هذه الصورة كانت تعرى الدعاية التى ركزت على القول بأن «عاصفة الصحراء كانت حربًا «نظيفة» و«جراحية».

يقول جاركى: «لم يقبل أحد أن يلمس صورتى. وكان العذر الذى سيق تبريرًا لذلك هو أنها بالغة الإزعاج، وأن الناس لم يعودوا راغبين فى النظر إلى مثل هذا النوع من الأشياء، والحقيقة هى أن الصحافة الأمريكية بكاملها قد تواطأت للإبقاء على الصمت الذى أحاط بالنتائج الناجمة عن حرب الخليج وتحديد المسئول عنها.

والفرضية التى طرحها جان بود ريار بأن حرب الخليج لم تقع قد جرى استبعادها عندئذ باعتبارها شطحات فيلسوف فرنسى، ورغم ذلك فقد جاء فيل كولز ليشير إلى «أن دعواه الأساسية بأن ماشهدناه كان عرضًا دعائيًا خالصًا يهدف إلى تأكيد السطوة العسكرية الأمريكية على العالم، كانت حقيقة واضحة تمامًا، وتبدو الآن بشكل أكثر جلاء».

وحيث إن العصر الدعائى قد اختلط بالعصر الإعلامى فقد أصبح من الأمور المفهومة أن تكون وسائل الإعلام (الميديا) وسيلة

لخوض الحرب. فقد كانت التقارير «الصريحة» والانتقادية عن حرب فيتنام درسًا وعاه العسكريون الغربيون، وعندما قام جورج بوش الأب بغزو بنما لم يتح لأى صحفى أن يشاهد الدمار الذى حل بقطاع من بنما سيتى، ولم يسمح إلا عقب الغزو بفترة لـ «نخبة» من الصحفيين بالاجتياز المحدود إلى المنطقة التى تعرضت للدمار، وقيل لهم إن رجال الجنرال نورييجا، وليست مدافع الهليكوبتر، هم الذين أضرموا النيران فى هذه الأكواخ. وتحولت المؤتمرات الصحفية إلى «أحداث» وأصبحت حلبات دعائية تقدم خلالها عروض الفيديو التى تظهر عمليات القصف «الجراحية» المركزة على مايدعى أنه «تسهيلات عسكرية» وفى هذه الحالة يمكن إطلاق الادعاءات العسكرية دون أن يكون الصحفيون قادرين على التأكد من صحتها.

وكان من المثير خلال حرب الخليج أن عددًا قليلا من الصحفيين هم الذين تساءلوا عن مدى صحة هذه المشاهد المعروضة، أو تساءلوا عن الطريقة التى تم بها إعداد هذه الأشرطة. كانوا، على نحو ماكان المعلقون داخل البلاد، قد أصبحوا مستعبدين «لتلك الأسلحة الجديدة ذات الدقة الفائقة» على نحو ما وصفها دافيد ديمبلبى من هيئة الإذاعة البريطانى BBC وهو فى حالة من الانبهار.

والواقع أن أقل من سبعة فى المائة من الأسلحة التى استخدمت فى حرب عاصفة الصحراء كانت أسلحة «ذكية» على نحو ما أقر به البنتاجون عقب فترة طويلة من الحرب. ولكن سبعين فى المائة من

٨٨,٥٠٠ قنبلة تم إسقاطها فوق العراق والكويت - وهو مايعادل سبعًا من تلك التى اسقطت على هيروشيما - قد أخطأت أهدافها بشكل كامل وسقط الكثير منها فوق مناطق آهله بالسكان، ولقد قيل بأن منصات إطلاق صواريخ سكود العراقية قد «تم ضربها» ولكن أيا منها لم يتعرض للتدمير. ولم يذكر شىء من ذلك فى ذلك الوقت. لقد تم الكذب على الصحفيين، ولأن هؤلاء قد تقبلوا هذه الأكاذيب، فقد قاموا بنقلها بدورهم إلى الجمهور.

كان طريق البصرة، الذى قام كين جاركى بتصويره، واحدًا فقط من مواقع ارتكاب الكثير من المذابح التى لم يذكر عنها شىء، حيث جرت بعيدًا عن إمكانية التدقيق من جانب «المجموعة المنتقاة من الصحفيين». وما لم يعلمه الصحفيون أنه خلال اليومين الأخيرين السابقين لوقف إطلاق النيران، انتشرت البولدوزرات المصفحة الأمريكية لتقوم بطريقة بالغة الوحشية، فى الليل غالبًا، بدفن العراقيين وهم أحياء فى الخنادق التى كانوا يتحصنون فيها، بما فى ذلك الجرحى. وعقب ذلك بستة أشهر كشفت صحيفة «نيويورك نيو داى» أن ثلاثة ألوية من فرقة المشاة الميكانيكية الأولى الأمريكية قد استخدمت جرافات الثلوج المركبة فوق الدبابات، كما استخدمت الكاسحات الأرضية، لدفن الآلاف من الجنود العراقيين، والبعض منهم مازال حيًا، فى خنادق تمتد على مساحة تزيد على سبعين ميلا. ويصرح قائد أحد الألوية وهو الكولونيل أنتونى مورينو قائلا: «على حسب علمى، فإن من قتلناهم يمكن أن يعدوا بالآلاف».

وكانت المشاهد الوحيدة التى ظهرت على شاشات التلفاز لهذه المذابح هى تلك التى استخدمت بشكل يثير الاستغراب كخلفية لمناقشة حول «نقل أنباء الحروب» من خلال برنامج قدمته الـ «بى بى سى» فى وقت متأخر من الليل وكان واضحًا أن المشاركين فى المناقشة ليسوا منتبهين لتلك المشاهد المريعة التى تظهر على الشاشة من خلفهم.

لقد كانت سياسة الجنرال شوارزكوف هى أن القتلى من العراقيين لاينبغى حصر أعدادهم. وكانت هذه هى الحرب الأولى فى التاريخ الحديث التى تم فيها حصر كل صامولة ومسمار، وفقا لما تباهى به أحد كبار معاونى الجنرال. أما بالنسبة للكائنات الإنسانية فإنه يقول: «لا أعتقد أن فى إمكان أى شخص أن يصل إلى رقم دقيق للقتلى من العراقيين». والواقع أن شوارزكوف قد قدم أرقاما إلى الكونجرس تشير إلى مقتل ما لا يقل عن مائة ألف من الجنود العراقيين. لكنه لم يقدم أى تقديرات لعدد الضحايا المدنيين.

وقبل كريسماس ١٩٩١ بوقت قصير، نشرت هيئة التعليم الطبى فى لندن دراسة شاملة عن الضحايا. وذكرت هذه الدراسة أن مايصل إلى ربع مليون من الرجال والنساء والأطفال قد قتلوا أو ماتوا كنتيجة مباشرة للهجوم الذى قادته أمريكا ضد العراق. وقد جاء هذا تأكيدًا للمعلومات المخابراتية الأمريكية والفرنسية، والتى تقدر عدد ضحايا هذه الحرب «بما يتجاوز مائتى ألف حالة وفاة» ولكن هذا النطاق الواسع لعمليات القتل لم يقدر له أن يصل إلى الوعى الجماهيرى فى الغرب.

وتحدث منسق الأخبار الأمريكى التليفزيونى الشهير دان راذر ليقول للمشاهدين من مواطنيه: «إن هناك شيئًا واحدًا يمكننا جميعا الاتفاق عليه. إنه بطولة المائة والثمانية وأربعين أمريكيًا الذين ضحوا بحياتهم من أجل أن تحيا الحرية»، والواقع يؤكد أن ربع هؤلاء، كما هو حال رفاقهم البريطانيين، قد لاقوا حتفهم بأيدى الأمريكيين الآخرين. وعلاوة علي ذلك فإن المعلومات الرسمية التي تتضمن وصفًا للطريقة البطولية التي مات بها هؤلاء الأمريكيون هى فى واقع الأمر معلومات ملفقة.

فعندما تستبعد الحقائق الكبرى يكون لامناص من أن تأخذ الخرافات مكانها. ولم يشرح إطلاقًا للجمهور لاطبيعة ولانمط القوة العظمى، وكبديل لذلك أضفى الطابع الأخلاقى على النزعة العسكرية. ومرة أخرى يستخدم أنتونى بلير أسلوبه فى التبييض الأخلاقى عندما يقول: «أيًا كانت الأخطاء التى نقع فيها فإن بريطانيا هى دولة أخلاقية، لديها إحساس قوى بالصواب والخطأ. وهذا النسيج الأخلاقى سوف يلحق الهزيمة بهؤلاء المتعصبين من الإرهابيين ومن يناصرونهم». وهو لم يكن يشير إلى المتعصبين الذين تسببوا عن عمد فى وفاة هؤلاء الذى لاقوا حتفهم فى العراق ويوجوسلافيا وأفغانستان. وتحت أى ضوء أخلاقى صحيح. فإن الادعاء بعدم وقوع هذه الجرائم هو فى حد ذاته جريمة. فالجريمة، وفق المصطلح الأورويللى، يتم تبريرها بواسطة مالها من «بعد أخلاقى».

وعلى الرغم من عدم استخدام هذا المصطلح منذ ذلك الوقت

تفاديا للحرج فإن «البعد الأخلاقى» كان يشكل الطموح الذى ترنو إليه السياسة الخارجية لحزب العمال الجديد كما حددها وزير الخارجية البريطانى السابق روبين كوك. وكانت هذه الفترة من الوقت خدعة ذكية. فبدلا من «وضع حقوق الإنسان فى مركز السياسة الخارجية البريطانية» حسبما وعد كوك، فإن الحكومة البريطانية قد اتبعت، كما هى العادة، سياسات تتجاهل حقوق الإنسان أو تشجع على انتهاكها.

●●●

ومع وجود تجارة للسلاح تعتبر الثانية من حيث الحجم لتجارة السلاح فى الولايات المتحدة، فقد استمرت بريطانيا فى بيع أسلحتها ومعداتها العسكرية الفتاكة إلى حكومات لها سجلات مريعة فى مجال انتهاك حقوق الإنسان. وأكبر عملائها هى المملكة العربية السعودية، أكثر النظم الإسلامية تطرفًا على وجه الأرض، والمعلمة لتنظيم طالبان، ووطن الغالبية من الذين نسب إليهم اختطاف الطائرات التى استخدمت فى أحداث ١١ سبتمبر. وفى الفحص الذى أجراه مكتب التدقيق الوطنى فى صفقة «اليمامة» لتوريد أسلحة تبلغ قيمتها ٢٠ بليون جنيه استرلينى، والتى رفضت كل من الحكومتين المحافظة والعمالية نشر التقرير الخاص بها، توصف «العمولات» التى تم دفعها مقابل شراء مقاتلات «تورنادو»: قيل إن المعدل السائد هو ١٥ مليون جنيه استرلينى عن المقاتلة الواحدة.

وبريطانيا هى مورد السلاح الأساسى لخمس على الأقل من

الدول التى تسودها الصراعات الداخلية، والتى تصل حصيلة الوفيات الناجمة عنها إلى مايقرب من المليون شخص. كما أن من بين الزبائن توجد دول أخرى تقف على حافة إشعال الحرب فيما بينها، ومنها على سبيل المثال الهند وباكستان. وعلى مدى عشرين عامًا، كانت بريطانيا تتولى تسليح إندونيسيا، بينما كان نظامها يرتكب جرائم الإبادة الجماعية فى تيمور الشرقية.

وعندما جاءت حكومة بلير إلى السلطة، وأصدر كوك «بيان المهام» فى وزارة الخارجية، كان لقاؤه مع الحاصلين على جائزة نوبل لعام ١٩٩٧: الأسقف كارلوس بيلو، وجوزى راموس هيرتو، من تيمور الشرقية. وأكد لهما أن بريطانيا لن تسمح ببيع الأسلحة التى يمكن استخدامها فى القهر الداخلى الذى يمارس فى بلدهما المحتل. وفى اجتماع عام عقد فى لندن عقب هذا اللقاء، استمعت إلى الأسقف بيلو وهو يوجه نداء عاطفيًا إلى الحكومة قال فيه: «أرجوكم ألا تقدموا الدعم بعد الآن لصراع لم يكن لينشأ أساسًا بدون هذه المبيعات، وبدونها لن يقدر له الاستمرار طويلاً» وربما كان يتحدث عندئذ مطالبًا بقدر كبير من الإنسانية.

فقد كانت استجابة الحكومة البريطانية هى زيادة شحنات السلاح إلى إندونيسيا تحت غطاء قانون الأسرار الرسمية. وكانت هذه الشحنات تشمل البنادق من طراز هيكلر وكوخ، المستخدمة من جانب القوات الخاصة للجنرال سوهارتو فى تيمور الشرقية، حيث كانت تمارس أسوأ أنواع انتهاكات حقوق الإنسان، بما فيها المذابح والتعذيب. وفى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فى الوقت الذى كانت أمريكا

تتعرض فيه للهجوم، كانت حكومة بلير تستضيف «معرضًا للسلاح» فى لندن شهده العديد من منتهكى حقوق الإنسان، بما فيهم السعودية، الوطن الروحى لتنظيم القاعدة، وموطن ميلاد أسامة بن لادن.

وتقديرًا لضحايا القتل الجماعى الناجم عن الهجوم على برجى المركز التجارى كان تأجيل المؤتمر السنوى لاتحاد النقابات، وكذلك الحال بالنسبة للمهرجانات الرياضية والأحداث العامة. ولكن معرض السلاح ظل قائمًا. وعقب ذلك بفترة قصيرة وخلال مقابلة صحفية مع دافيد فروست، أعلن تونى بلير أن الوسيلة لإلحاق الهزيمة بالإرهابيين هى التصدى لـ «هؤلاء الناس الذين يزودونهم بالسلاح». ولم يعلق فروست بشىء.

وفى الولايات المتحدة، يعد تصنيع وبيع السلاح أمرًا أساسيًا لتحقيق «الازدهار» الاقتصادى. فالمجمع الصناعى العسكرى الأمريكى إنما يحلق عاليا من خلال مايعقده من صفقات لبيع الأسلحة والمعدات العسكرية المرتبطة بها. إن أربعين سنتا من كل دولار ضريبى تنتهى إلى البنتاجون الذى يصل إنفاقه خلال العام المالى ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢ إلى مايزيد على ٤٠٠ بليون دولار. فالحرب تحقق الرواج الاقتصادى. وفى أعقاب حرب الخليج زادت مبيعات الأسلحة بنسبة ٦٤ فى المائة، وأدى هجوم الناتو على يوجوسلافيا إلى زيادة فى مبيعات السلاح تبلغ ١٧ بليون دولار، وفى أعقاب ١١ سبتمبر كان هناك «ازدهار» يلوح فى مجال تجارة السلاح.

ففى اليوم الذى أعيد فيه فتح سوق الأوراق المالية عقب هذا

الهجوم. كانت الشركات القليلة التى زادت قيمة أسهمها هى شركات الصناعات العسكرية ريثيون، تكنيكال سيستمز، نورثورب جرومان، ولوكهيد مارتن. وكأكبر مورد أمريكى للسلاح، ارتفعت قيمة سهم شركة لوكهيد مارتن بنسبة ثلاثين فى المائة. ويقع المصنع الأساسى لهذه الشركة فى ولاية تكساس موطن الرئيس الأمريكى جورج بوش. وفى عام ١٩٩٩ وصلت قيمة مبيعات الشركة من الأسلحة إلى أكثر من ٢٥ بليون دولار، وتجاوزت قيمة تعاقداتها مع البنتاجون ١٢ بليون دولار.

وخلال ستة أسابيع من الهجوم على برجى المركز التجارى، حققت لوكهيد مارتن أكبر صفقة للأسلحة فى التاريخ: عقدًا تبلغ قيمته ٢٠٠ بليون دولار لإنتاج طائرة مقاتلة، وسوف يتم إنتاج هذه الطائرة فى فورت وورث بولاية تكساس ليترتب عليها إيجاد ٣٢ ألف وظيفة جديدة، ويعقب أحد مسئولى الشركة: «وسط كل الأنباء السيئة فى هذه الأيام فإن ماتشهده أعمالنا فى أمريكا يعد أخبارًا طيبة».

كما أن صناعة السلاح البريطانية قد ازدهرت بدورها منذ ١١ سبتمبر. وقت كتابة هذه السطور تقوم شركة لأنظمة BAE ببيع نظام دفاعى جوى إلى تنزانيا، التى تعد إحدى أفقر دول العالم، فهناك لا يتجاوز نصيب الفرد من الدخل القومى ٢٥٠ دولارًا سنويا، وأكثر من نصف السكان لاتتوافر لهم مياه جارية، ويموت طفل من بين كل أربعة قبل أن يبلغ الخامسة. ورغم أن البنك الدولى قد عارض هذه الصفقة، فإن بلير قد أولاها مساندته

الشخصية، منطلقا دون شك من روح خطابه التبشيرى إلى مؤتمر حزب العمال، والذى وصف فيه الفقر فى إفريقيا بأنه «وصمة فى ضمير العالم».

●●●

مع وجود الكثير من وسائل الإعلام الأنجلو ـ أمريكية فى قبضة حماة الحقائق المسلم بها، فإن الإمبريالية الجديدة، ومصائر الشعوب البعيدة عنا، يجرى نقل أخبارها، وتداول شئونها، استنادًا إلى الفرضية الثابتة بأن الحكومتين الأمريكية والبريطانية تأخذان موقف المعارضة من استخدام العنف كوسيلة لحسم النزاعات الدولية، كما أنهما ـ بطبيعة الحال ـ معارضتان للإرهاب. والمشكلة الأزلية هى الطريقة الأمثل التى يمكننا (نحن) أن نعالج بها مشاكلهم (هم).

وتظل الحقائق الأكثر أهمية فى عداد المحرمات، والمحرم الأول فى بريطانيا هو القول بأن الاستعمار البريطانى لم يكن يتسم بالطيبة. والادعاءات التى يحاول بلير من خلالها إسدال ستار على التصرفات الاستعمارية الحالية إنما توفر أيضًا تبريرات تنسحب على ماحدث فى الماضى. وبوجه عام يكون التزام الصحافة والدراسات الأكاديمية بنفس النهج. وعلى سبيل المثال فإن مايذكر عن الفصل العنصرى فى جنوب إفريقيا نادرًا مايشير إلى الدور الذى قامت به بريطانيا فى إرساء قواعد هذا النظام.

وفى سنوات الخمسينيات لم تكن التصرفات البريطانية فى

الملايو تختلف كثيرًا عن السجل الأمريكى فى فيتنام، بل لقد كان لها الأثر الملهم من حيث منع وصول الطعام، وتحويل القرى إلى معسكرات إبادة جماعية، والترحيل الإجبارى لما يزيد على نصف مليون شخص. والطائرات التى تقوم اليوم بأعمال القصف فى الشرق الأوسط ووسط آسيا تعيد التزود بالوقود من جزيرة دييجو جارسيا فى المحيط الهندى. وعادة مايشار لقارئ الصحف بأن هذه الجزيرة خالية من السكان، ولكن لم يحدث إطلاقًا أن ذكر السبب فى ذلك. فى عام ١٩٩٦، وفى سرية تامة، وتحديًا للأمم المتحدة، قامت حكومة هارولد ويلسون بطرد السكان بالكامل لتسليم الجزيرة إلى الأمريكيين بشكل دائم، لتكون قاعدة ومستودعًا للسلاح النووى، وقبل أن يتمكن أهالى الجزيرة فى نهاية الأمر من كسب قضيتهم أمام المحكمة العليا عام ٢٠٠٠ لم يكن محتملا أن يتم نشر أى شىء فى الإعلام البريطانى عن إقصائهم الجبرى وعن معاناتهم اللاحقة فى المنفى.

أما المحرم الثانى فهو الدور الذى قامت به الولايات المتحدة على مدى طويل كدولة إرهابية وكملجأ للإرهابيين. فلم يذكر شىء عن أن الولايات المتحدة كانت هى الدولة الوحيدة على القائمة التى أدانتها محكمة دولية بارتكاب الإرهاب الدولى (فى نيكاراجوا) ولا عن أنها كانت الدولة التى مارست حق الاعتراض (الفيتو) ضد قرار مجلس الأمن بدعوة الحكومات إلى الالتزام بالقانون الدولى.

وليست هناك مؤامرة لإبقاء ذلك بعيدًا عن أنظار الجمهور، ولكن الإذعان لمتطلبات المؤسسات والشركات قد ترسخ منذ وقت

مبكر فى المهنة الصحفية. والفارق أنه فى المجتمعات ذات الحكم المطلق تقوم الدولة بفرض الإذعان لهذه المتطلبات بشكل مباشر. ونادرًا ماتكون الإشارة إلى الرقابة الذاتية أو الرقابة بواسطة الاستبعاد، سواء بالنسبة للصحفيين الممارسين أو للطلبة فى كليات الإعلام. فالقدر الأكبر من هذا يتسلل إلى الشعور دون وعى، مما يعطى أثرًا كاسحًا. والإقلال من الإدانة التى يمكن أن تلحق بالقوى الغربية، والكتابة عن الدول وفقًا لمدى ماتحقق للغرب من نفع كاد يتحول فى المجال الإعلامى الغربى إلى عقيدة مهنية.

وهناك لحظات عابرة كاشفة. ففى برنامج لهيئة الإذاعة البريطانية (بى. بى. سى) فى أواخر عام ٢٠٠١ تحدث دنيس هوليداى، المساعد السابق لسكرتير عام الأمم المتحدة، والذى استقال من منصبه، منفصلا ذلك على أن يقوم بإدارة ماوصفه بأنه «سياسة عقوبات الإبادة الجماعية» فى العراق، وأثار حديثه امتعاض مقدم البرنامج ميكائيل بويرك الذى سأله: «ليس فى إمكانك أن تساوى أخلاقيًا بين صدام حسين وبين جورج بوش (الأب). وكانت إجابة هاليداى هى الإشارة إلى المذابح التى ارتكبتها قوات بوش فى الخليج دون أن يكون لها أى داع. ومن الحقائق التي لم يتم ذكرها أن التاريخ الحديث للجرائم الحقيقية التى ارتكبها الغرب تجعل صدام حسين يبدو كمجرد «هاو».

وهناك تفسير يقدمه ريتشارد فولك أستاذ الدراسات الدولية فى جامعة برنستون: كتب يقول: «إن السياسة الخارجية الغربية يتم عرضها فى وسائل الإعلام من خلال وجهة نظر أخلاقية/ قانونية،

ذات اتجاه أحادى، تؤمن بامتلاك الحقيقة الذاتية، وتنطبع عليها صور ذهنية إيجابية للقيم والطهارة الغربية التى تتعرض للتهديد، وتحاول أن تثبت صحة وجدوى خوضها لمعركة تتسم بعنف لايجد مايكبح جماحه».

فى عام ١٩٩٨، توجه الرئيس كلينتون إلى الأمم المتحدة ليتحدث أمامها عن الإرهاب. تساءل: «ماهى التزاماتنا الكونية؟» وأجاب: «ألا نعطى الإرهابيين أية مساعدة، ولانوفر لهم أى ملجأ» وعقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ تحدث الرئيس جورج بوش، وقال تقريبًا نفس الكلمات. قال: «فى الحرب التى نخوضها ضد الإرهاب سوف نمسك بمرتكبى هذه الأعمال الشريرة أينما كانوا، ومهما طال الوقت»، وإذا تحدثنا بشكل محدد، فإن هذا ينبغى أن يأخذ وقتًا طويلا، حيث إن الإرهابيين الذين تلقوا «التدريب، والدعم، والملجأ» فى الولايات المتحدة يزيدون عددًا على هؤلاء الذين لقوا ذلك فى أى مكان آخر على وجه الأرض. ويشمل هؤلاء مرتكبى جرائم القتل الجماعى، وجرائم التعذيب، والطغاة السابقين واللاحقين، والمجرمين الدوليين الذين ينطبق عليهم تمامًا وصف الرئيس الأمريكى للإرهابيين. ولكن هذا الأمر ليس معروفًا فعليا من جانب الجمهور الأمريكى.

وبوجه عام، ينظر إلى اختطاف الطائرات واحتجاز الرهائن فيها باعتبارها أكثر الجرائم خطورة، وخاصة منذ ١١ سبتمبر.

ولكن كما يقول وليام بلوم فى صحيفة «روج ستيت» فإنه «على الرغم من وقوع العديد من حالات اختطاف الناقلات برًا وبحرًا،

على مـدى سنوات، على الطريق بين كـوبا والولايات المتـحـدة، باسـتخـدام الأسلحـة النارية والمدى، أو مع اللجـوء إلى العنف الذى أدى إلى وقوع حالة قتل على الأقل، فيصعب أن نجد لأكثر من مرة واحدة قيام الولايات المتحدة بتوجيه الاتهام إلى المختطفين. فجميع المختطفين كانوا من المعادين لـ كاسترو.

أمـا عن توفـيـر الملاذ للإرهـابيـين، فليس هنـاك مكان يمكن مقارنته بولاية فلوريدا، التى يحكمها الآن (وتجدد انتخابه مؤخرًا) جيب بوش، أخو الرئيس الأمريكى. ويصف بلوم محاكمة نمطية فى فلوريدا لثلاثة من الإرهـابيـين الذى قـامـوا باخـتطاف طائرة إلى ميامى باستخدام المدى. وسجل ملاحظاته بقوله: «كان الأمر أشبه بمحاكـمـة شـخـص مقـامـر فى مـحكمـة نيفـادا، وعلى الرغم من أن الطيار الذى تعرض للاختطاف قد تم إحضاره من كوبا للشهادة ضد هؤلاء المختطفين، فإن الدفاع قد أخبر المحلفين فى بساطة بأن الرجل يكذب، واجتمع هؤلاء للتداول لأقل من سـاعـة قبل أن يعلنوا قرارهم ببراءة المتهمين.

ووزير الدفـاع الجواتيمالى السابق، هيكتور جراماجو موراليس، قـد صـدر له الأمـر من مـحكمـة أمـريكيـة بدفع غـرامة تبلغ ٤٧,٥ مليون دولار لمسئوليته عن تعذيب راهبة أمريكية، وارتكاب مذبحة راح ضحيتها ثمانية جواتيماليين من أسرة واحدة. وقال القاضى وهو يصـدر الحكم: «إن الدلائل تشـيـر إلى أن جـرامـاجـو قـد دبر وتولى التوجيه لتنفيذ حملة رعب ارتكبت دون تمييز ضد المدنيين». وكان جراماجو قد تخرج فى مدرسة كيندى للإدارة الحكومية فى

جامعة هارفارد، حيث درس فيها بمنحة من الحكومة الأمريكية. ولم يتم إلقاء القبض عليه إطلاقًا، ثم أعيد أخيرًا إلى بلده، وهو يقول بأن ما قام به هو أسلوب «مفرط فى الإنسانية» للتعامل مع خصوم النظام.

والجنرال السابق جوزى جوبليرمو جارسيا عاش فى فلوريدا منذ تسعينيات القرن الماضى. وكقائد للجيش السلفادورى فى الثمانينيات، قام جارسيا بالإشراف على تنفيذ مصرع الآلاف من الناس بواسطة فرق الموت المرتبطة بالجيش. أما خليفة جارسيا، الجنرال كارلوس فيديس كازانوفا، الذى تولى قيادة الحرس الوطنى المثير للخوف، فهو لاجئ آخر فى ولاية جيب بوش ذات الشمس المشرقة.

«ووفقًا للجنة الأمم المتحدة لتقصى الحقائق فى السلفادور» على نحو ماكتب بلوم «فإن فيديس قد قام بالتغطية وتوفير الحماية لهؤلاء الذى قاموا باغتصاب وقتل ثلاث راهبات أمريكيات وعامل عادى، فى ١٩٨٠. وقد كان حاضرًا بشخصه لمرتين على الأقل أثناء تعذيب الدكتور جوان روماجوزا.

والجنرال بروسبير أفريل، دكتاتور هاييتى، كان يهوى عرض ضحايا تعذيبه الذين تغطيهم الدماء على شاشات التلفاز. وعندما أطيح به، كان قيام حكومة الولايات المتحدة بالتدبير لطيرانه إلى فلوريدا. أما قائد عصبة الموت سيئ السمعة أمانويل كونستانت، الذى قام سفاحوه بترويع هاييتى، باستخدامهم للمدى فى التمثيل بجثث ضحاياهم، فإنه يقيم فى نيويورك. أما أرماندو فيرنانديز

لاريوس، العضو فى عصبة الموت العسكرية التشيلية، والمسئول عن عمليات التعذيب والقتل التى أعقبت الإطاحة بنظام سلفادور الليندى فى عام ١٩٧٣، فإنه يعيش فى ميامى. والأدميرال الأرجنتينى جورجى إنريكو، الذى كان مرتبطا بتلك «الحرب القذرة» التى جرت خلال السبعينيات، واكتسبت سوء السمعة لما جرى خلالها من تعذيب و«اختفاءات»، يعيش فى هاواى، أما ثيون براستيز، تابع بول بوت المخلص، والمدافع عنه فى الأمم المتحدة، فإنه بدوره يقيم فى مونت فيرنون بنيويورك.

وفى كاليفورنيا التقيت فى الثمانينيات أربعة من الفيتناميين الذين كانوا ضمن القتلة فى «عملية العنقاء» الأمريكية، وكان أحدهم يتولى إدارة مطعم وجبات سريعة، وكان يبدو راضيًا تمامًا. وما يجمع بين هؤلاء جمعيًا، إضافة إلى تاريخهم الإرهابى، هو أنهم إما كانوا يعملون بشكل مباشر لصالح الحكومة الأمريكية وإما كانوا يقومون بتنفيذ الجانب القذر للسياسات الأمريكية. فـ«عملية العنقاء» على سبيل المثال، التى قامت المخابرات المركزية الأمريكية «سى أى إيه» بتدبيرها وتمويليها وإدارتها، قد تم خلالها مصرع مايصل إلى خمسين ألف شخص.

ولقد حدث الكثير من جانب العناصر التى تلقت التدريب فى معسكرات تنظيم القاعدة فى أفغانستان، والتى أصبحت هدفا للقاذفات الأمريكية. ولكن هذه المعسكرات لاتزيد عن كونها «دور حضانة» إذا ماقورنت بـ «الجامعة» القائدة على مستوى العالم للتدريب على الإرهاب، والموجودة فى فورت بيننج Fort benning

بولاية جـورجيـا. وحـيـث كـانت مـعـروفـة حـتى وقت قـريب باسم «مدرسـة الأمريكتين» فقد تولت تدريب نحو ستين ألفا من الجنود، ورجـال الشـرطة، والمظليـين، وعـمـلاء المخـابرات، فى دول أمـريكا اللاتينية. وقـد تخـرج فى هذه المدرسـة أربعون فى المائة من وزراء الحكومات التى عملت لخدمة أنظمة جرائم الإبادة الجماعية التى قادها لوكاس وريوس مونت، وميجيا فكتوريس فى جواتيمالا.

فى ١٩٩٣، قـامت لجنة الأمم المتـحـدة لتـقـصى الحـقـائق فى السلفـادور بتـسـمـيـة ضـبـاط الجيش الذين ارتكبـوا أسـوأ الفظائع الوحشية ضد المدنيين، وتبين أن ثلثى هؤلاء الضباط كانوا قد تلقوا تدريبهم فى فورت بيننج. وكان ضمن هؤلاء روبرتو دوبويسون قـائد عصابات الموت، وقتله الأسقف أوسكار روميرو وجماعة من الرهبان الجزويت، وفى تشيلى، قام خريجو المدرسة بإدارة الشرطة السرية. فى نظام بينوشـيـه، وإدارة المعسكرات الثـلاثـة الرئيـسـيـة للإبادة الجماعية. فى ١٩٩٦ اضطرت الحكومة الأمريكية إلى توزيع نسخ عن نظام التـدريب بالمدرسـة. ولهـؤلاء التـواقـين إلى أن يصـبـحـوا إرهـابيـيـن، توصـى المدرسـة بالتـدريب على عـمليـات الابتـزاز، والتعذيب، والقتل، واعتقال أقارب المطلوبين.

وبعد إعـادة تسـمـيتهـا لتصبح مـؤسسـة التـعـاون الأمنى للعـالم الغربى، أو Whisc، أغفلت المدرسة أن تذكر فى موقعها الإلكترونى الصفحات الخاصة بـ«التاريخ» الخاص بها، وتساءل جورج مونبيوت:

«إذا سلمنا بأن الدلائل على ارتباط المدرسة بالفظائع الوحشية المستمرة ارتكبت فى أمريكا اللاتينية تعد أقوى بكثير من الدلائل

التى تربط بين معسكرات تدريب القاعدة وبين الهجوم على نيويورك، فماذا ينبغى لنا أن نفعل تجاه هؤلاء الأشخاص «مرتكبى الشرور» فى فورت بيننج، بجورجيا؟ إن فى إمكاننا أن نحث حكوماتنا لتمارس أقوى ضغوطها الدبلوماسية، وأن تسعى إلى تسلم مدراء هذه المدرسة لمحاكمتهم بتهم التواطؤ لارتكاب جرائم ضد الإنسانية. وكبديل آخر ففى إمكاننا أن نطالب بأن تقوم حكوماتنا بالهجوم على الولايات المتحدة وقصف منشآتها العسكرية ومدنها ومطاراتها على أمل الإطاحة بحكومتها غير المنتخبة، واستبدالها بحكومة جديدة عن طريق الأمم المتحدة: وإذا ماتبين أن مثل هذا المقترح لا يلقى ترحيبًا من جانب الشعب الأمريكى، فإن فى استطاعتنا أن نكسب عقول وقلوب الأمريكيين، بأن نلقى عليهم أكياسًا بلاستيكية ملأى بالخبز والكارى المجفف (لحم بالبهار) ومختومة بخاتم العلم الأفغانى.

وإذا نحينا السخرية جانبًا، فإن مونبيوت يشير إلي أن الفارق الأخلاقى الوحيد بين الإرهاب الأمريكى وبين إرهاب القاعدة، هو أن هذا الأخير شىء تافه إذا ماقورن بالأول.

إن سيل الدماء يبدو بلا نهاية: ابتداء من إخضاع الفلبين وأمريكا الوسطى، إلى أكبر الأعمال إرهابًا على الإطلاق، وهى قصف هيروشيما وناجازاكى؛ من إلحاق الدمار بالهند الصينية، مثل عملية قتل ٦٠٠ ألف مزارع فى كمبوديا الملتزمة بالحياد، واستخدام الأسلحة الكيماوية والتجويع ضد الأهالى المدنيين، حتى عملية إسقاط طائرة الركاب الإيرانية، وقصف سجناء الحرب المكدسين فى القلعة الطينية بأفغانستان.

إن سجل الإرهاب الأمريكى هو سجل متضخم، ولأن ماتضمه وثائقه من حقائق لايمكن دحضه بشكل عقلانى، فإن هؤلاء الذين يشيرون إلى هذه الحقائق ويبينون الروابط الواضحة فيما بينها، غالبًا مايتم اتهامهم بأنهم «معادون للأمريكيين» بغض النظر عما إذا كانوا هم أنفسهم أمريكيين أم لا. وخلال سنوات الثلاثينيات كان مصطلح «معاداة الألمان» يقذف فى وجه جميع المنتقدين الذين يرغب الرايخ الثالث فى أن يفرض عليهم الصمت. «إننا فى حاجة إلى أن نتعود على المعايير المزدوجة» هذا ما يقوله روبير كوبر، مستشار الشئون الخارجية لتونى بلير أثناء وجوده فى المعارضة، وفى عصر الميديا تأكد هذا الأمر من خلال التكرار المستمر للحقائق المسلم بها، والمتكررة فى شكل الأخبار. ومثال ذلك أن حياة البعض من الناس يكون لها قيمة إعلامية، فى حين أن حياة البعض الآخر لاتكون لها قيمة. إن مصرع هؤلاء الذين ينتمون إلينا (نحن) يعد جريمة، أما الآخرون فلا يعدون ضمن الناس.

عندما أمر الرئيس كلينتون بإطلاق الصواريخ على مصنع الشفاء للأدوية فى السودان عام ١٩٩٨ مدعيًا أنه يستخدم «لتصنيع الأسلحة الكيماوية» فقد كان ذلك بكل المقاييس عملا إرهابيًا له خطورته. فقد كان معروفًا أن هذا المصنع هو المصدر الوحيد لتسعين فى المائة من الأدوية الأساسية لواحد من أكثر الدول فقرًا فى العالم. كان المصنع الوحيد الذى ينتج مادة الكلوروكين، وهى الأكثر تأثيرًا فى علاج الملاريا والأدوية المضادة لمرض الدرن الرئوى، والتى تعد شريان الحياة لما يزيد على مائة ألف مريض بتكلفة تبلغ

جنيهًا استرلينيًا واحدًا فى كل شهر. وليس هناك مكان آخر فى العالم يتم فيه إنتاج الأدوية البيطرية المستخدمة فى علاج الأمراض الطفيلية التى تنتقل من الماشية إلى الإنسان، والتى تعد أحد الأسباب الرئيسية لوفيات الأطفال فى السودان.

جوناثان بيلكى، من مؤسسة الشرق الأدنى، وهى مؤسسة إنسانية تلقى الاحترام، كتب يقول: «نتيجة لهذا الهجوم الأمريكى فإن عشرات الآلاف من الناس، والكثيرون منهم أطفال، قد عانوا ولقوا حتفهم من جراء الإصابة بالملاريا والدرن الرئوى وغيرهما من الأمراض التى يمكن معالجتها. وجاءت العقوبات الأمريكية على السودان لتجعل من المستحيل استيراد الكميات الكافية من الأدوية لتغطية تلك الفجوة الخطيرة الناجمة عن تدمير مصنع الأدوية».

كم هو عدد السودانيين الذين لقوا حتفهم منذ ذلك الحين نتيجة لقرار كلينتون قصف مصنع الأدوية؟ الإجابة وفقًا لما يقوله السفير الألمانى لدى السودان هى «أن عدة عشرات من الآلاف يبدو تخمينًا معقولا». ولقد حالت واشنطن دون قيام الأمم المتحدة بتشكيل لجنة استقصاء بناء على طلب من الحكومة السودانية. ولم يرد ذكر شىء من ذلك فى وسائل الإعلام باعتباره من الأخبار. وعندما قام نعوم تشومسكى بالمقارنة بين هذا العمل الإرهابى وبين الهجوم الوحشى على برجى نيويورك، كانت الإساءات الموجهة إليه من جانب معلقين أمريكيين معروفين ووصفه أحدهم بأنه «متراخ فى مواجهة الفاشية».

●●●

إعلام غير متوازن

ولايوجد أكثر من إسرائيل مثالاً للكشف عن مدى الدقة فى رسم حدود الموضوعية الإعلامية. فعلى مدى خمسة وثلاثين عامًا على الأقل كان حرمان الفلسطينيين من حقهم فى العودة إلى مواطنهم، مع مافى ذلك من مخالفة للعديد من قرارات الأمم المتحدة والقانون الدولى، وفى مطالبته لإسرائيل بالانسحاب من الضفة الغربية وغزة استخدام مجلس الأمن كلمات مماثلة إلى حد مدهش لتلك التى استخدمها للمطالبة بالانسحاب العراقى من الكويت فى ١٩٩٠. وعندما رفض العراق الانصياع كانت مهاجمته من جانب الائتلاف الذى قادته أمريكا، وكان تحرير الكويت. ولكن عندما رفضت إسرائيل الانصياع كانت مكافأتها بتلقى المزيد من الدعم الاقتصادى والعسكرى الغربى بوجه عام، والأمريكى فى الأساس.

وباستثناءات مشرفة كان الإعلام الغربى يصور الأحداث التى تجرى فى فلسطين على أنها تدور بين خصمين متقاتلين، وليس علي أنها عملية قمع يقوم بها محتل خارج على الشرعية ومقاومة من جانب الخاضعين لهذا الاحتلال. واستمر النظام الإسرائيلى فى صياغة المصطلحات الإخبارية على المستوى الدولى.

فالإسرائيليون «لقوا حتفهم بواسطة الإرهابيين»، أما الفلسطينيون فقد «سقطوا صرعى» إثر «صدام مع قوات الأمن». ونادرًا مايكون هناك تمييز بين القوة العسكرية الضخمة المسلحة نوويًا والمزودة بالدبابات والطائرات المقاتلة والقاصفات المروحية

وبين حشود من الشبان الذين لايتوافر لهم سوى النبال التى يقذفون بها الحجارة. (عمليات التفجير الانتحارية تعد ظاهرة حديثة نسبيًا، وهى على الأغلب نتاج للغزو الإسرائيلى للبنان الذى أدى إلى مقتل ١٧,٥٠٠ شخص).

لقد أشارت هيئة الإذاعة البريطانية (بى. بى. سى) إلى السياسة الإسرائيلية للاغتيالات باسم «القتل محدد الهدف» Tar-geted Killing وهو نفس الاصطلاح المستخدم من جانب المتحدثين الرسميين الإسرائيليين. ونادرًا ماذكر عن مئات القتلى وآلاف المصابين فى الانتفاضة الثانية أن تسعين فى المائة منهم هم من الفلسطينيين المدنيين، وأن خمسة وأربعين فى المائة منهم تقل أعمارهم عن الثامنة عشرة، وأن ستين فى المائة منهم قد أطلق عليهم الرصاص بينما هم فى بيوتهم أو مدارسهم أو مقار عملهم.

فى أعقاب حرب الخليج، عقدت صفقة فى أوسلو، من خلال وساطة سرية أمريكية، أدت إلى إنشاء «سلطة فلسطينية» ويوضع الفلسطينيون بمقتضاها فى جيوب أشبه بمناطق الفصل العنصرى، على جانب من أراضيهم. وقد أطلق على هذه الصفقة اسم «عملية السلام» وظل ذلك يتكرر دون تغيير ودون أى تفسيرات. وعندما استقال من منصبه كمراسل لهيئة الإذاعة البريطانية فى الشرق الأوسط، شعر تيم ليويلين بأن لديه الحرية لأن يصف عملية السلام هذه بأنها «مهارة مضللة ومهينة».

كانت إحدى المناسبات الناجحة إعلاميًا لتونى بلير هى ترحيبه باستقبال ياسر عرفات فى داوننج ستريت فى أعقاب أحداث ١١

سبتمبر. ووصف كتاب الافتتاحيات بلير بأنه صانع للسلام، وعقدوا مقارنة تفضيلية له مع إدارة بوش ذات النزعة القتالية. والواقع أن الترويج لفكرة أن بلير له تأثيره الأكيد على واشنطن كان هو النغمة الرئيسية التى كان يجرى عزفها فى داوننج ستريت خلال «الحرب ضد الإرهاب».

والحقيقة أن اللقاء مع عرفات لم يكن سوى عملية علاقات عامة تستهدف تهدئة العالم العربى. كما أنها قد استخدمت أيضًا للتغطية على الدعم الشخصى من جانب بلير للمشروع الصهيونى، وعلى دوره كأوثق حلفاء آرييل شارون فى أوروبا. والقليل من ذلك فقط كان هو الذى أتيح له النشر من خلال وسائل الإعلام.

وعقب انتخابه فى ١٩٩٧ بفترة قصيرة قام بلير دون حياء بتعيين صديق له - وهو ميكائيل ليفى، رجل الأعمال اليهودى الثرى، الذى سبق له المشاركة فى تمويل حزب العمال الجديد - «مبعوثًا خاصًا» له إلى الشرق الأوسط، بعد أن جعل منه أولاً «لورد ليفى» وكان هذا الرجل - وهو العضو السابق فى مجلس إدارة الوكالة اليهودية والذى له أعمال وبيت فى إسرائيل، وله ابن يعمل مع وزير العدل الإسرائيلى - هو الذى عهد إليه بالحديث «دون تحيز» إلى الفلسطينيين والإسرائيليين.

وفى ظل حكم بلير، كان تزايد الدعم البريطانى لعمليات البطش الإسرائيلية. خلال عام ٢٠٠١ ومع قيام الإسرائيليين بقتل ستمائة وخمسين فلسطينيًا، أغلبهم من المدنيين، والكثيرون تم اغتيالهم، كانت موافقة الحكومة البريطانية على واحد وتسعين تصريحًا

بتصدير الأسلحة إلى إسرائيل. وشملت هذه الأسلحة الذخيرة، والقنابل، وقذائف الطربيد والصواريخ، والصواريخ المضادة والإلكترونيات العسكرية، والسيارات المصفحة. وإجابة على سؤال لعضو مجلس العموم جورج جالواى، قال بن برادشو وزير الدولة للشئون الخارجية إنه «ليس هناك دليل» على أن المعدات والأسلحة البريطانية قد تم استخدامها ضد الفلسطينيين.

والواقع أنه كانت هناك أدلة وفيرة، ومثالها تقرير لجنة العفو الدولية الذى تضمن أن مروحيات الأباتشى التى استخدمت للهجوم على الفلسطينيين قد ظلت تواصل الطيران باستخدام قطع غيار بريطانية. كما أن حكومة بلير قد قامت أيضًا بمساندة المجمع العسكرى الصناعى الإسرائيلى بشراء إنتاجه من الطلقات، والقنابل، والصواريخ المضادة للدبابات. وقامت شركة العاصمة (ميتروبوليتان) وشركة جنوب ويلز بشراء الذخائر الحربية الإسرائيلية. كما قام سلاح الطيران الملكى بشراء نظام تدريبى للطائرات المقاتلة. وفى ١٩٩٩ أنشئ صندوق بريطانى - إسرائيلى مشترك للاستثمار فى التكنولوجيا المتقدمة للقيام بأعمال البحث والتطوير المشترك فى هذا المجال.

وبدون أى اعتراض من جانب حكومة بلير، تطلعت إسرائيل إلى افتتاح مكتب للتجنيد العسكرى فى لندن، على الرغم من أنها قد تجند أشخاصًا لخوض حرب ناجمة عن احتلال الأراضى الفلسطينية، وهو ماتقول الحكومة البريطانية إنه إجراء غير شرعى؛ وسيكون ذلك مخالفة مباشرة للتشريع الجديد الذى

أصدرته الحكومة لمكافحة الإرهاب. فالهجمات الإسرائيلية على الأراضى الفلسطينية المحتلة هى إرهاب بمقتضى جميع التعريفات، حيث الغالبية الكاسحة من ضحايا هذه الهجمات هم من المدنيين.

الضوء الأخضر

وتذهب مساندة بلير لنظام شارون إلى مدى أعمق. ففى مايو ويوليو ٢٠٠١ كشفت مجلة جينز فورين ريبورت الموثوق بها أن بريطانيا وفرنسا قد أعطتا «الضوء الأخضر» لشارون للهجوم على عرفات إذا لم تتوقف المقاومة الفلسطينية، وقد تم إطلاع الحكومة البريطانية على خطة لهجوم إسرائيلى شامل، يستهدف غزو وإعادة احتلال الضفة الغربية وغزة، باستخدام آخر طراز من الطائرات المقاتلة إف ـ ١٦ وإف ـ ١٥ لقصف جميع المنشآت الأساسية فى مناطق السلطة الفلسطينية، وكذلك استخدام ثلاثين ألف جندى ـ وهو مايعادل جيشًا كاملا ـ لتنفيذ هذه العملية.

ولكن هذه الخطة الإسرائيلية كان تنفيذها يحتاج إلى تفجر قنبلة انتحارية «يترتب عليها سقوط العديد من الضحايا والجرحى». وتوافر عامل «الثأر» «كان له أهمية بالغة لتنفيذ هذه العملية؛ فهو الكفيل بدفع الجنود الإسرائيليين إلى الفتك بالفلسطينيين. وما كان يعنى شارون ودائرته المقربة، وخاصة واضع تلك الخطة، وهو الجنرال شاؤول موفاز رئيس أركان الجيش الإسرائيلى (وأصبح فيما بعد وزيرًا للدفاع) هو التوصل إلى اتفاق سرى بين عرفات وبين حماس ـ وهى المنظمة الإسلامية المسئولة

عن تنفيذ أغلب الهجمات الانتحارية - على وقف هذه الهجمات فى الأراضى الإسرائيلية.

وعقب أحداث ١١ سبتمبر خشى نظام شارون أن «تسوية للشرق الأوسط» يمكن أن تكون نتاجًا تتمخض عن الحرب التى تخوضها أمريكا ضد الإرهاب، وخاصة بعد أن اندفع جورج بوش إلى الإفصاح عن نتيجة مخالفة لما سبقها من مقدمات، عندما قال بأنه كان دومًا يساند «حلم» إقامة دولة فلسطينية. وكان لابد لشىء ما أن يحدث.

وفى ٢٣ نوفمبر ٢٠٠١ قام عملاء إسرائيليون باغتيال محمود أبو هنود القائد العسكرى لمنظمة حماس. وعقب ذلك باثنى عشر يومًا جاء الرد الحتمى متمثلاً فى هجمات انتحارية منسقة ضد أهداف إسرائيلية.

«إن الذى قرر تصفية أبو هنود - أيا كان هو - كان يعرف مقدمًا أن هذا سوف يكون الثمن». كان هذا ماكتبه أليكس فيشمان، الوثيق الصلة بالمخابرات الإسرائيلية فى صحيفة يديعوت أحرونوت. «ومن أعطى الضوء الأخضر لتنفيذ هذه العملية كان يعرف تمامًا أنه من خلال ذلك ينسف بضربة واحدة اتفاق «الجنتلمان» بين حماس والسلطة الفلسطينية، والذى كان يقضى بتفادى إثارة إسرائيل، ووقف الهجمات المكثفة على مراكزها السكانية».

وعقب ذلك قامت قوات شارون بالهجوم على الأراضى المحتلة بقوة غير مسبوقة، وليس لها من هدف سوى تدمير السلطة

الفلسطينية والقاعدة السياسية لعرفات. وأصدر الأمريكيون بيانهم المعهود حول «وقف أعمال العنف» ولكنهم فى هذه المرة وضعوا الجانب الأكبر من المسئولية على عاتق عرفات. ولم يعد هناك بعد ذلك مزيدًا من الكلام الفضفاض عن «حلم» الدولة الفلسطينية. وقال شارون: إن عرفات قد أصبح «لاعلاقة له بالأمر irrelevant أما بلير صانع السلام فلم يعقب بشىء، شأن الغالبية من وسائل الإعلام الغربية.

●●●

ودعوة روبرت كوبر إلى الأخذ بالمعايير المزدوجة قد وجدت إجابة بليغة عليها فى كوسوفو. فعلى العكس من الفلسطينيين، فإن أهالى كوسوفو من ذوى الأصول الألبانية قد أعطوا الحق الذى كاد يكون مباشرًا فى العودة إلى موطنهم من جانب الولايات المتحدة وحلفائها من أعضاء الناتو. وبشكل كاسح اتخذت وسائل الإعلام الغربية موقف التأييد للعمل الذى قام به حلف الناتو.. ورغم ذلك، فقد كانت هذه حربًا أهلية، ولم ينازع الناتو يوجوسلافيا حقها فى السيادة. وفى الوقت الذى كان فيه الكوسوفيون يعودون إلى بلدهم، كان هناك مائتان وخمسون ألفًا من الصرب والروم يتم إقصاؤهم أو يلوذون بالهرب من الإقليم. أما الأربعون ألفًا من جنود الاحتلال التابعين للناتو فقد وقفوا دون حراك، فى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه العملية للتطهير العرقى، ولم يفعلوا شيئًا حقيقيًا لمنع جيش تحرير كوسوفو من ارتكاب أعمال القتل والتعذيب والخطف وانتهاك حرمة الكنائس؛ وكان بصفة عامة يتصرف وفقا للوصف

السـابق من جـانب وزيرة الخـارجيـة الأمـريكيـة أولبـرايت، ووزير الخارجية البريطانى كوك بأنه «منظمة إرهابية».

وخـلال «حـرب» كوسـوفـو نشـرت عبـر الإنتـرنت قـائمـة بالأهداف المدنيـة فى يوجـوسـلافيـا. ولكن لم تقم بنشرها صـحيـفـة واحدة، وتحت الاسم الكودى «المرحلة الثالثة» تضمنت هذه الأهداف المدنية وسـائل النقل العـامـة، والمصـانع غـيـر العـسكرية، ومـراكـز الاتصـال التليفـونى، ومصـانع المواد الغذائية، ومصانع السمـاد، والمستشـفيات، والمدارس، والمتاحف، والكنائس والأديرة والقصور الأثرية.

«لقد فـرغـوا من الأهداف العسكرية خـلال الأسـبـوعين الأولين» هذا مـاقـاله جيـمس بيسـيل، السـفيـر الأمـريكى فى يوجـوسـلافيـا، ليضـيف قـوله: «وكـان من المعلومـات الشـائعـة أن الناتو سيـتجـه بعد ذلك إلـى المرحلة الثـالثـة، وهـى الأهـداف المدنيـة. ولو كـان الأمـر خلافا لذلك لما قاموا بقصف الجسور فى أمسيات الآحاد، وقصف أمـاكن التسوق». ويقـول الأدميـرال الماد شمـاهلنج، وقـائد المخابرات العسكرية الألمانية: «كـانت الخطة تتجـه أولا إلـى ممارسـة الضغط على الأهـالى المـدنيين، ليتم ثانيا تدميـر الاقـتصـاد اليوجـوسـلافى بالعنف الذى لايمكنه من استعادة قوته».

وخـلال الأسـابيع الأخـيـرة من القـصف، شـاهدت كـيـرسـتى وارك تجرى مقابلة لهيئة الإذاعة البريطانية مع الجنرال ويزلى كلارك، قائد قوات الناتـو. فى برنامج أخبـار المساء **News Night**. ولم توجـه كيرسـتى ولو سؤالا واحدًا حول الأهداف المدنيـة، رغم أن مدينة نيس **Nis** كان قد قصفها مؤخرًا بالقنابل العنقودية، لتقتل النساء والمسنين والأطفال.

وكان تركيز الأخبار فقط على قصف الأهداف العسكرية التى لم تتجاوز نسبتها اثنين فى المائة. وتحدثت عناوين الأخبار عن «أخطاء» أو «أخطاء الهدف». ولكن كان هناك القليل من الصحفيين - وبرز من بينهم روبرت فسك - الذين كشفوا عن أن هذا القصف كان متعمدًا. وكانت «التغطية» الشاملة تتمثل فيما قام به مارك ليتى، مراسل هيئة الإذاعة البريطانية فى بروكسل، والذى سرعان ما عين بعدها مستشارًا شخصيًا للسكرتير العام للناتو.

لقد تحولت «التغطية» إلى سلسلة من التبريرات الرسمية، أو من الأكاذيب، ابتداء بما ادعاه وزير الدفاع الأمريكى وليام كوهين من «إننا قد اكتشفنا الآن فقد مائة ألف «ألبانى» ممن هم فى سن القتال... وربما يكونون قد لقوا مصرعهم». وبعد ذلك بأسبوعين أعلن دافيد شيفر، سفير الولايات المتحدة فى معرض حديثه عن جرائم الحرب أن عددًا يصل إلى ٢٢٥ ألفًا من الرجال ذوى الأصول الألبانية الذين تتراوح أعمارهم بين ١٤ و ٥٩ سنة يمكن أن يكونوا قد لقوا حتفهم. والتقطت الصحف البريطانية طرف الخيط. «الهروب من الإبادة الجماعية» هكذا قالت صحيفة ديلى ميل، لتتجاوب معها صحيفتا «صن» و«ميرور» اللتان تحدثتا عن «صدى الهولوكست» كما أن تونى بلير من جانبه قد أشار إلى الهولوكست، وإلى «روح الحرب العالمية الثانية»، وكان واضحًا أنه لم ينتبه إلى المفارقة. إن الصرب، فى مقاومتهم للغزو النازى، قد خسروا من الضحايا البشرية، بالنسبة لتعدادهم السكانى، أكثر من أى دولة أوروبية أخرى.

ومع يونيو ١٩٩٩، عندما انتهت عمليات القصف بدأت فرق الفحص الجنائى الدولية فى إخضاع كوسوفو للفحص الدقيق. ووصل فريق من مكتب التحقيقات الجنائية الأمريكى (إف. بى. آى) لفحص ما أطلق عليه «أضخم مسرح لجريمة فى تاريخ الفحص الجنائى للمكتب». ولكن هذا الفريق عاد أدراجه عقب أسبوعين بعدما لم يعثر على مقبرة جماعية واحدة، كما عاد الفريق الإسبانى، مع الشكوى الغاضبة من جانب رئيسه بأنه قد تعرض هو وزملاؤه لخداع أجهزة الدعاية الحربية «حيث إننا لم نعثر على مقبرة جماعية واحدة».

وفى نوفمبر ١٩٩٩، نشرت صحيفة وول ستريت جورنال نتائج تحرياتها الخاصة، حيث استبعدت «الفكرة المسيطرة عن القبور الجماعية» فبدلا من «ساحات القتل الضخمة التى دفع بالمستقصين إلى توقعها... كان النمط السائد هو حالات قتل متفرقة كانت «على الأغلب» فى المناطق التى كان ينشط فيه جيش تحرير كوسوفو الانفصالى «وانتهت الصحيفة إلى أن الناتو قد خرج بادعاءاته عن ساحات القتل الصربية عندما وجد أن هناك توجها من جانب الصحافة نحو القصة المناقضة: المدنيون الذين يلقون مصرعهم بواسطة قذائف الناتو: «فالحرب فى كوسوفو كانت قاسية ومريرة ووحشية» على نحو ما انتهت إليه الصحيفة. «ولكن لم تكن هناك إبادة جماعية».

لقد قام الناتو بالقصف، وفق ماقاله وزير الدفاع البريطانى جورج روبرتسون «للحيلولة دون وقوع كارثة إنسانية» نتيجة عمليات

الطرد والقتل الجماعى. وفى ديسمبر ١٩٩٩، قامت منظمة الأمن والتعاون فى أوروبا، التى كان مراقبوها فى كوسوفو عشية القصف، بتوزيع تقريرها الذى لم يكن يجد طريقًا إلى النشر. لقد كشف التقرير عن أن معظم الجرائم ضد الأهالى الألبان قد حدثت بعد أن بدأت عمليات القصف، أى أنها لم تكن سببًا للقصف، وإنما نتيجة له. «بينما كان واضحًا أن القوات الصربية كانت هى الأداة فى هذه «الكارثة الإنسانية التى تم الكشف عنها» على نحو ما كتب كبير مخططى الناتو ميشيل ماكجواير الذى أضاف: «فإن الحافز إلى خوض الحرب الذى طالما ألح على الناتو كان بدون شك هو سببًا رئيسيا، ووصف عمليات القصف بأنها «تدخل ذو طابع إنسانى» إنما هو فى الحقيقة من نسج الخيال».

وفى صيف عام ٢٠٠٠، أعلنت محكمة جرائم الحرب الدولية، وهى هيئة أنشئت فعليًا بواسطة الناتو، أن الإحصاء النهائى للجثث التى تم العثور عليها فى «القبور الجماعية» فى كوسوفو يبين أن عددها ٢٧٨٨، ويشمل هذا الصرب المقاتلين. ويعنى ذلك أن الأرقام التى تداولتها الحكومتان البريطانية والأمريكية ومعظم وسائل الإعلام كانت ملفقة. ولم ينشر عن هذا سوى القليل.

وهؤلاء الصحفيون الذين ابتلعوا أكاذيب الناتو كانوا هم الأعلى صوتًا فى إساءتهم للقلة الذين شككوا فى جدوى عمليات القصف، والذين كشفوا عن مهزلة «إخفاق» محادثات رامبويى، واتخاذ ذلك ذريعة لتبرير أعمال القصف. وكان الأسلوب (التكتيك) المستخدم فى تسفيه آراء المعارضين هو المساواة بين الاعتراض على عمليات

قتل المدنيين وبين تأييد ميلوسوفيتش. وكانت هذه هى نفس النغمة الدعائية التى ساوت بين الاهتمام الإنسانى بالشعبين العراقى والأفغانى وبين التأييد لصدام حسين والطالبان، وهو الأمر الذى ينطوى على التحايل الفكرى.

●●●

وفى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وجد المناصرون لـ «الحرب ضد الإرهاب» مايدعم دعواهم وهم يطلقون صيحاتهم: «لقد كنا على حق فى كوسوفو ونحن على حق الآن» بينما أخذت القنابل العنقودية تنهمر مرة أخرى، وكان المتغير الوحيد هو الساحة التى تسقط فوقها.

ولو أن العراق قد هوجم فى إطار «الحرب ضد الإرهاب» فسيكون قيام الصحفيين بدور رئيسى - ولو أنه روتينى - لمناصرة هذا الهجوم. ففى الولايات المتحدة، قامت كبريات الصحف، وأكثر المعلقين تأثيرًا، مثل وليام سافير بالدعوة إلى «التحرير الثانى» أما المعارضون لهذه الفكرة فقد حوصروا فى بريد القراء حيث تنشر خطاباتهم بين الحين والآخر. وعندما كتب المعلق ميشيل كيلى فى صحيفة واشنطن بوست، فإنه كان يعبر عن إجماع فى وسائل الإعلام عندما كتب: «إن دعاة التهدئة الأمريكيين... يقفون إلى جانب عمليات القتل الجماعى المستقبلية للأمريكيين. إنهم موضوعيا مناصرون للإرهاب.. هذا هو موقف دعاة التهدئة وهو موقف شرير». وفى بريطانيا، حيث هناك مجال للسماح ببعض الاعتراضات، فإن الترويج لمبررات القصف لم يكن بمثل هذا الاتساع وإن كان له طابع الاستمرار.

«الصقور الأمريكيون يتهمون العراق بنشر الجمرة الخبيثة» كان هذا هو عنوان الخبر المنشور على الصفحة الأولى فى صحيفة الأوبزرفر فى ١٤ أكتوبر ٢٠٠١.

وهذه «الدعاية المسرية» يرجع مصدرها إلى المخابرات الأمريكية. فالانتراكس (الجمرة الخبيثة) التى تم الكشف عن إرسالها إلى بعض الجهات فى أمريكا هى وفقًا لما ذكرت صحيفة نيويورك تايمز «لا يمكن تمييزها فعليًا فيما يختص بالجوانب الفنية الدقيقة عن الإنتراكس المنتج بواسطة العسكرية الأمريكية» كما أن مكتب التحقيقات الفيدرالى (إف. بى. آى) قد وصف هذه العمليات بأنها «عمل من الداخل».

وفى مقال لاحق نشر على صفحتين بعنوان «الارتباط العراقى» نسبت الأوبزرفر إلى «مصدر مخابراتى» لم تسمه قولا يربط فيه بين العراق وبين أحداث ١١ سبتمبر. وبدون تقديم أى حقائق كانت الإشارة إلى أن «الأدلة تتزايد...» ثم كانت إضافة فقرة جاء فيها «لم يتوافر شىء يقرب من التعرف على هؤلاء الذين يتحملون المسئولية النهائية».

هذا هو نوع من الصحافة التى تلمح وتومئ وتنصب رجالا أو اثنين من قش ثم تتراجع. وفى مقال لمتابعة الأحداث كتب دافيد روز، كانت نتيجة استقصائه الضحل هى القول بأنه «لأن العراق يعد المكان المثالى لإقامة رأس جسر نحو الديمقراطية فى العالم العربى فإن الأمر يستلزم الهجوم عليه». وأضاف: «إن هناك مناسبات فى التاريخ يكون فيها اللجوء لاستخدام القوة صحيحًا

وملائمًا. وهذه واحدة من هذه المناسبات» وقد أرفق بهذا الاقتراح المشهودة صورة للدكتاتور العراقى بتجهمه المصطنع الشهير، إنه الوجه الكرتونى الذى أريد به تصوير مجتمع بكامله. ولم تكن هناك أى إشارة لمصير اثنين وعشرين مليونًا من الناس الذين تضرروا من الحصار المفروض عليهم لأكثر من عقد من الزمان، وتم احتجازهم كرهائن لسياسات سلطة لايمكن لهم السيطرة عليها، والذين يعيشون الآن فى انتظار الانقضاض «الملائم» عليهم.

وهناك مقال لايختلف عن ذلك نشرته صحيفة الجارديان بقلم دافيد ليى، وجيمى ويلسون، ولكنه كان أكثر حذقا، فتحت عنوان: حصر الضحايا العراقيين، فإنهما قد بدآ «التحليل» بالربط بين الحكايات الدعائية الشهيرة عن «الأطفال القتلى» من الحرب العالمية الأولى وحرب الخليج وبين الدراسات المعاصرة للأمم المتحدة التى انتهت إلى أن نصف مليون طفل عراقى قد لاقوا حتفهم كنتيجة على الأغلب لآثار الحصار. وكان الأمر المثير للدهشة هو قولهما أن «الأطفال الموتى فى العراق» لم يوجدوا على الإطلاق وأن الأمر لايعدو كونه «تلفيقًا إحصائيًا». وادعاءات من جانب منتقدى أمريكا. ثم كانت عودتهما لمناقضة هذا القول بالإقرار بمصادر الأمم المتحدة وغيرها من المصادر الموثوق بها. وكان اعتراضهما - على مايبدو - نابعًا من أن أسامة بن لادن قد استخدم نتائج هذه الدراسات لتدعيم دعايته الخاصة؛ وهو منطق يقوم على أن الحقيقة مهما كانت موثقة يمكن إثارة الشك حولها، إذا ماتم استخدامها من جانب شخص آخر لاتكن له الحب. ولكن

هذا من شأنه أن يغرس بذور الشك فى نفس القارئ العابر. فإذا كان الأطفال العراقيون الذين ماتوا، ومازالوا يموتون، ليسوا أكثر من تلفيق إحصائى، فما الذى يحول دون قصف العراق؟!.

وكان «البرهان» الأهم على تواطؤ العراق مع مرتكبى أحداث ١١ سبتمبر هو أن القائد المدعى للهجوم الانتحارى على برجى نيويورك وهو محمد عطا قد افترض أنه عميل للمخابرات العراقية فى جمهورية التشيك.

وفى الصحافة البريطانية، تمت ترقية هذا العميل من «المستوى المتدنى» كما جاء فى الجارديان، إلى المستوى «المتوسط» كما جاء فى الإندبندنت، إلى «المستوى العالى» كما ذكرت الفاينانشيال تايمز، إلى «رئيس جهاز المخابرات فى بغداد» كما ذكرت التايمز، وحدها الفاينانشيال تايمز هى التى تساءلت عما إذا كان هذا الاجتماع قد عقد أصلا أم لا. وعما إذا كان له أية صلة بتدمير البرجين التوأمين فى نيويورك.

وفى برنامج «أخبار المساء» الذى تبثه الـ بى. بى. سى كشف مارك أوربان مراسل وزارة الخارجية عن أن هناك «معلومات سرية» عن صاروخ يخطط صدام حسين لإطلاقه؛ ولم يتم تقديم أى دليل على ذلك.

وعلى العكس من ذلك فإن ماينطوى عليه هذا «الارتباط العراقى» من خداع لم يتح له أن يكون عناوين للأخبار. وحدها كانت «الديلى تلجراف» هى التى ذكرت فى ١٨ ديسمبر ٢٠٠١ أن

الشرطة التشيكية قد أنكرت أن محمد عطا قد سبق له زيارة جمهورية التشيك فى أى وقت. ومرة أخرى ساد الصمت عندما كشفت «النيويورك تايمز» فى الخامس من فبراير ٢٠٠٢ عن «أن وكالة المخابرات المركزية لا يتوافر لها أى دليل على أن العراق قد شارك فى أية عمليات إرهابية ضد الولايات المتحدة على مدى نحو عقد من الزمان، وأن الوكالة على قناعة بأن الرئيس صدام حسين لم يزود تنظيم القاعدة بأى أسلحة كيماوية أو بيولوجية».

●●●

يعد الحذف أكثر أشكال الرقابة ضراوة. وفى معظم التقارير الإخبارية عن أفغانستان كان تبرير الهجوم الأمريكى على واحدة من أكثر دول العالم فقرًا بعرض صور بالغة التأثير تبرز «الشر» الذى يوصم به الطالبان. وقد وفر اضطهاد النساء صورًا بالغة الإساءة لنساء تلفهن عباءات أشبه بالخيام، ومحرومات من أكثر الحقوق الإنسانية ضرورة.. ورغم أنه قد صدرت إشارات عابرة عن الدور الأنجلو ـ أمريكى فى إنشاء جماعات المجاهدين المتعصبة التى تولد منها نظام الطالبان، فلم تكن هناك أية إشارة إلى فترة غير عادية شهدها التاريخ المعاصر لهذا المجتمع الذى غطاه الظلام، والتى كان من شأن فهمها أن يضع «حربنا من أجل حقوق الإنسان والقيم الحضارية» (حسب مايقول بلير) فى إطارها الصحيح.

خلال سنوات الستّينيات نهضت حركة التحرر فى أفغانستان، وتمركزت حول الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى (PDPA) الذى

أخذ موقف المعارضة من الحكم الأتوقراطى للملك ظاهر شاه، وفى النهاية كانت الإطاحة بنظام محمد داود، ابن عم الملك، فى ١٩٧٨، وكانت هذه بكل المقاييس، ثورة شعبية كاسحة. ووجد أغلب الصحفيين الأجانب فى كابول، على نحو ماذكرت صحيفة نيويورك تايمز: «أن الأفغان الذين التقو بهم ـ جميعهم تقريبًا ـ قد أعربوا عن سعادتهم بهذا الانقلاب». وذكرت صحيفة وول ستريت جورنال «أن مائة وخمسين ألف شخص قد قاموا بمسيرة لتحية العلم الجديد.. وكانت الحماسة الحقيقية تبدو واضحة على جميع المشاركين» وقالت صحيفة واشنطن بوست «إن ولاء الأفغان لايكاد موضع تساؤل».

ووضعت الحكومة الجديدة إطارًا لبرنامج إصلاحى تضمن إلغاء النفوذ الإقطاعى فى أقاليم الدولة، وحرية العبادة، والحقوق المتساوية للنساء، ومنح الحقوق ـ التى كانت منكورة حتى ذلك الوقت ـ لمختلف الأقليات الأثنية، وتم إطلاق سراح ثلاثة عشر ألفا من المسجونين. كما أحرقت علنًا ملفات الشرطة.

وفى ظل النظام القبلى والإقطاعى، كان متوسط العمر لايتجاوز خمسة وثلاثين عامًا، وكان واحد تقريبًا من بين كل ثلاثة أطفال يموت خلال مرحلة الطفولة. كان تسعون فى المائة من السكان يعانون الأمية، ووفرت الحكومة الجديدة الرعاية الطبية المجانية فى أكثر المناطق فقرًا. وألغى نظام العمل بالسخرة، وبدأ تنفيذ حملة جماعية شاملة لمحو الأمية. وحصل النساء علي مكاسب لم يسمع بها من قبل «فمع نهاية الثمانينيات كان نصف طلبة الجامعة

من النساء، وكان النساء يشكلن نسبة أربعين فى المائة من عدد الأطباء أفغانستان، وسبعين فى المائة من المعلمين، وثلاثين فى المائة من موظفى الخدمة المدنية.

والواقع أن هذه التغييرات كانت جذرية إلى الحد الذى أبقاها راسخة فى ذاكرة هؤلاء الذين استفادوا منها. سارة نورانى، الطبيبة التى هربت من حكم طالبان فى سبتمبر ٢٠٠١ قالت: «كان فى استطاعة كل فتاة تلتحق بالمدرسة الثانوية أو الجامعة، كان من حقنا أن نذهب إلى أي مكان نشاء، وأن نرتدى ما نشاء. كان من عادتنا الذهاب إلى المقاهى، وإلى دور السينما لمشاهدة آخر الأفلام الهندية فى أيام الجمع، والاستماع إلى آخر المقطوعات الموسيقية الهندية. أخذ كل شىء يمضى فى الطريق الخطأ عندما بدأ «المجاهدون» فى الانتصار. لقد اعتادوا قتل المعلمين وحرق المدارس. كنا نعيش حالة من الرعب. كان شيئا طريفا ومحزنا فى ذات الوقت أن نفكر فى أن هؤلاء هم الناس الذين تلقوا الدعم من الغرب».

كانت المشكلة بالنسبة لحكومة الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى، أنها كانت تحظى بدعم الاتحاد السوفيتى. ورغم أن الحزب كان ستالينيا فى تكوين لجنته المركزية، إلا أنه لم يكن إطلاقًا «دمية متحركة» على نحو ما كان يطلق عليه الغرب ساخرًا؛ كما لم يكن الانقلاب الذى قام به «مسنودا من السوفييت» على نحو ما كانت الصحافة الغربية تدعى فى ذلك الوقت.

وفى مذكراته، يعترف سايروس فانس، وزير الخارجية فى عهد

الرئيس كارتر، فيقول: «ليس لدينا أى دليل على وجود تواطؤ سوفيتى فى الانقلاب». وفى الجناح الآخر من إدارة كارتر، كان هناك زبجنيو بريجنسكى، مستشار الرئيس للأمن القومى، الذى كان يعتقد بأن المهانة التى تلقتها أمريكا مؤخرًا فى فيتنام تحتاج إلى مايكفر عنها، وأن المكاسب التى حققتها حركات التحرير فى مرحلة مابعد الاستعمار فى الأماكن الأخرى تشكل تحديًا للولايات المتحدة. وزيادة على ذلك، فإن الأنظمة التابعة للأنجلو ـ أمريكية فى الشرق الأوسط والخليج، وخاصة إيران تحت حكم الشاه، ينبغى توفير «الحماية» لها. وإذا ما قدر لأفغانستان أن تحقق نجاحًا فى ظل حكم الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى، فقد كان فى الإمكان أن تكون «مثالاً واعدًا يشكل تهديدًا».

وفى ٣ يوليو ١٩٧٩، وبدون علم الجمهور أو الكونجرس الأمريكى، صرح الرئيس كارتر بتنفيذ برنامج عمل سرى يخصص له خمسمائة مليون دولار، بهدف مساندة الجماعات القبلية المعروفة باسم «المجاهدين». وكان الهدف هو الإطاحة بأول حكومة علمانية تقدمية فى أفغانستان. وعلى النقيض من طقوس الحرب الباردة، فإن الغزو السوفيتى لأفغانستان، والذى لم يحدث إلا عقب ذلك بستة أشهر، لم يكن له علاقة بهذا الأمر، فالواقع أن جميع الشواهد تشير إلى أن السوفييت قد قاموا بتحركهم المشئوم فى أفغانستان، ردًا على نفس «الإرهاب» الدينى والقبلى الذى استخدمه الأمريكيون كذريعة يبررون بها غزوهم لأفغانستان فى نوفمبر ٢٠٠١.

وفى مقابلة له أجريت فى ١٩٩٨ أعترف بريجنسكى بأن واشنطن قد كذبت حول الدور الأمريكى. يقول: «وفقًا للرواية الرسمية للتاريخ، فإن مساعدات وكالة المخابرات المركزية (سى. آى. أيه) للمجاهدين قد بدأت خلال ١٩٨٠، أى أن ذلك كان بعد غزو الجيش السوفيتى لأفغانستان.. ولكن الحقيقة التى تم الاحتفاظ بها سرًا حتى الآن، هى على خلاف ذلك تماما.

ففى أغسطس ١٩٧٩، ذكرت السفارة الأمريكية فى كابول فى تقرير لها: «إن مصالح واسعة النطاق للولايات المتحدة.. يمكن خدمتها فى حال سقوط (حكومة الحزب الديمقراطى الأفغانى) على الرغم من أن انتكاسات يمكن أن يعنيها ذلك بالنسبة للإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فى أفغانستان».

وعلى ذلك، فإن واشنطن قد بدأت علاقة فاوستية مع البعض من أكثر المتعصبين وحشية على وجه الأرض، رجال مثل قلب الدين حكمتيار تلقوا من وكالة المخابرات المركزية (سى. آى. إيه) عشرات الملايين من الدولارات. وكان مايميز حكمتيار هو التجارة فى الأفيون والقذف بالمواد الكاوية على وجوه النساء اللاتى يرفضن ارتداء النقاب. ولدى دعوته لزيارة لندن عام ١٩٨٦ كان الترحيب من جانب رئيسة الوزراء ثاتشر باعتباره «مقاتلا من أجل الحرية» وبين عامى ١٩٧٨ و١٩٩٢، وهى فترة حكومة الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى، قامت واشنطن بإيصال نحو أربعة ملايين دولار لجماعات المجاهدين. وكانت خطة بريجنسكى هى العمل على تكوين حركة دولية يمكن أن تتولى نشر الأصولية الإسلامية فى

وسط آسيا، و«زعزعة» الاتحاد السوفيتى، على نحو ماكتب فى مذكراته.

ولقد تلاقيت خطته العظمى مع طموحات الدكتاتور الباكستانى الجنرال ضياء الحق لفرض السيطرة على المنطقة. وفى ١٩٨٦، قام مدير وكالة المخابرات المركزية وليام كيسى بإعطاء دعم الوكالة لخطة سبق أن وضعتها وكالة المخابرات الباكستانية (ISI) تستهدف تجنيد الناس من مختلف أنحاء العالم للانضمام إلى «الجهاد» الأفغانى، وتم تدريب أكثر من مائة ألف من المتشددين الإسلاميين فى باكستان خلال الفترة من ١٩٨٢ حتى ١٩٩٢ (الطالبان تعنى طلبة) والعناصر المؤثرة التى انضمت فى النهاية إلى الطالبان، وإلى تنظيم القاعدة الذى يقوده أسامة بن لادن، قد تم تجنيدها فى مدرسة إسلامية فى بروكلين بنيويورك، وتلقت تدريبًا على الهبوط بالمظلات فى معسكر لوكالة المخابرات المركزية (سى. آى. أيه) فى فرجينيا. وقد أطلق على ذلك اسم «عملية الإعصار». Operation Cyclone.

وفى باكستان، كانت معسكرات التدريب التابعة للمجاهدين تتولى إدارتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، والمخابرات البريطانية (إم - ١٦). وهناك كان يتم تدريب المقاتلين الذين سيلتحقون مستقبلا بطالبان والقاعدة على صنع القنابل وغيرها من الفنون السوداء. وقد استمر ذلك لوقت طويل بعد انسحاب الجيش السوفيتى فى ١٩٨٩، وعندما سقطت حكومة الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى فى نهاية الأمر عام ١٩٩٢، قام أمير الحرب المفضل لدى الغرب، قلب الدين حكمتيار، بقذف سيل من

الصواريخ الأمريكية الصنع على كابول، ليقتل ألفى شخص، حتى كانت موافقة الجماعات الأخرى على أن تجعل منه رئيسًا للوزراء.

أما الرئيس الأخير لحكومة الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى، محمد نجيب الله، والذى كان قد توجه إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة ليلح على طلب المساعدة، فقد لجأ إلى مقر الأمم المتحدة فى كابول، حيث استمر هناك إلى أن استولى الطالبان على السلطة عام ١٩٩٦، وقام الطالبان بقتله شنقًا فى عمود إنارة بالشارع.

●●●

قبل شهور قليلة من ١١ سبتمبر، كنت أشهد مؤتمرًا فى جامعة سسكس حول «الإمبريالية الجديدة» وكان الغريب فى الأمر هو انعقاد هذا المؤتمر أصلا. جوليان سورين، الذى تولى التدريس فى مدرسة الدراسات الآسيوية والإفريقية قال إنه على مدي عشر سنوات لم يعلم مطلقًا بأن هناك مناقشة مفتوحة قد جرت حول الإمبريالية. ذلك أن ثمانين فى المائة من الدراسات حول العلاقات الدولية فى الجامعات البريطانية الكبرى يكون تركيزها على الولايات المتحدة وأوروبا. ومعظم الباقى من الدراسات الإنسانية يجرى تصنيفه وفقًا لدرجة أهميته لـ «العالم الغربى».

وفكرة وجود طبعة جديدة للإمبريالية هى فكرة مثيرة لغضب «الواقعيين الليبراليين» الذين ابتعدوا عن مؤتمر سسكس، وعن العلاقات الدولية السائدة. وهم يؤمنون بهذه الفكرة بكل حرارة،

ولكنهم أقنعوا أنفسهم بأنها شيء آخر، ومازال البعض يطلق عليها اسم «السياسة الواقعية»• Realpolitik. والقليلون الذين أفصحوا عن آرائهم كانوا مدعاة لإثارة الارتباك، أو أنهم لم يكونوا «واقعيين» حقيقيين.

والمؤرخ نيال فيرجسون، أستاذ العلوم السياسية فى جامعة أكسفورد، غالبًا ماينطق بما لايقال. فقد أثنى فيرجسون على خطاب بلير إلى مؤتمر حزب العمال لعام ٢٠٠١، بلغته التى اتسمت بطابع البوارج العسكرية الأخلاقية، والاعتقاد الجلاد ستونى فى وجود الذوات الأعلى، وعلق قائلا: «إن الإمبريالية يمكن أن تكون كلمة قذرة. ولكن عندما يدعو تونى بلير فى الأساس إلى فرض القيم الغربية - مثل الديمقراطية وغيرها - فإن هذه فى الواقع هى لغة الإمبريالية الليبرالية. إن العولمة السياسية هى مجرد تعبير جذاب عن فرض آرائك وممارساتك على الآخرين». ووحدها أمريكا هى التى يمكن أن تتولى قيادة هذا العالم الإمبريالى الجديد.

تبرير الحرب

إن دراسة السياسات الدولية و«الواقعية الليبرالية» خلال فترة مابعد الحرب قد تم ابتكارها فى الولايات المتحدة؛ وكان ذلك إلى حد كبير تحت رعاية هؤلاء الذين حددوا وقاموا على حراسة القوة الاقتصادية الأمريكية الحديثة. وشمل هؤلاء مؤسسات فورد، وكارنيجى وروكفلر، وجهاز المخابرات OSS الذى كان سابقًا لوكالة المخابرات المركزية (C.I.A) ومجلس العلاقات الخارجية الذى يعد

• السياسة الواقعية: سياسة مبنية علي عوامل عملية ومادية لأعلي عوامل نظرية أو اخلاقية

فعليًا فـرعًا من الحكومـة، وعلى ذلك فـقـد ترددت فـى الجامـعـات الأمـريكيـة الكبـرى أصـوات مـثـقـفـة تولت تبـرير الحـرب البـاردة ومخاطرها البالغة.

وفـى بـريطانيـا وجـدت هـذه الرؤية «العـابرة للمـحـيط» أوضح صـدى لهـا. ومع وجـود اسـتـثناءات مـشـرفـة، كان قـيـام الدارسـين باسـتـبـعـاد العـامل الإنسـانى من دراسـاتهـم عن الأمم، وجمـدته فى مصطلح يخدم القوى المهيمنة. ولدى وضعهم لمجتمعات بكاملها على طاولة التشريح كان تشخيصهم لوجود «دول ساقطة» و«دول شريرة» تحتاج إلـى «التدخل الإنسانى». وكمـا أشـار تشومسكى فإن اليابان الإمبـراليـة قـد وصـفت غـزوهـا لمنشوريا بأنه «تدخل إنسـانى» وكان هذا هـو المصطلح الذى اسـتـخـدمـه مـوسـولينى فى تبـريره لغـزو إثيوبيا. وكذلك فعل هتلر عندما قامت قوات النازى باجتياح أراضى السوديت المجاورة».

أما اليوم فهناك اختلافات ضئيلة. فواحد مثل ميكائيل أجناتيف أستـاذ حقـوق الإنسان فى جـامعـة هـارفارد والمسـاند المتحمس لقيام الغرب بالغزو والقصف (كوسيلة لإطعام الجوعى وفرض السلام فى مناطق النزاع) يفضل «التدخل الليبرالى».

«المواطـن الدولى الصـالـح» و«لحكم الصـالـح» و«لطريـق الثـالث» تأتى كلهـا من نفس مـعـجم المصطلحـات الإمبـرياليـة الحـديثـة والذى تبنتـه الحـركـة «التـقـدميـة» الجـديدة فى الشـئـون الدوليـة. فـفـى الدراسـات الأكاديمية ووسـائل الإعلام كـان بيل كلينتون يوصف بأنه من «وسـط اليـسـار» مع مـا فى ذلك من إنكار لسـجله التـاريخى.

فخلال سنوات كلينتون تم سحب شبكات توفير الرعاية الأساسية، وزاد الفقر فى أمريكا، وتم إطلاق نظام صواريخ «دفاعى» وحشى عرف باسم «حرب النجوم ٢» وتمت الموافقة على أكبر ميزانية فى التاريخ للحرب والتسليح، وتم رفض عقد معاهدة للإلغاء الشامل للتجارب النووية، وإنشاء محكمة للجرائم الدولية، وحظر استخدام الألغام الأرضية على مستوى العالم والمقترحات الخاصة بمكافحة غسيل الأموال. إن إدارة كلينتون قد قامت فعليًا بتدمير الحركة الهادفة إلى مكافحة التوتر الكونى. وإضافة إلى ذلك كان هناك غزو هاييتى، وتشديد الحصار على كوبا، والهجوم على العراق ويوجوسلافيا والسودان.

كتب هيويل ليامز يقول: «إنها خرافة لطيفة وملائمة أن نقول إن الليبراليين هم صانعو السلام، بينما المحافظون هم المثيرون للحرب. ولكن الإمبريالية التى يفرضها الليبراليون ربما كانت أكثر خطورة، نظرًا لطبيعتها ذات المدى المفتوح، واعتقادها بأنها تمثل شكلاً متساميًا للحياة. وقبل أن يصبح قائدًا حربيًا، كان تونى بلير مغرمًا بالترويج لفكرة «نهاية الأيديولوجيا». وبعدها أصبحت الأيديولوجيا التى شارك فيها طبقة بكاملها من السياسيين والإعلاميين تشكل فى واقع الأمر واحدة من أكثر الأيديولوجيات نفوذًا فى الحقبة المعاصرة.

ويزداد امتداد تأثير هذه الأيديولوجية نتيجة ارتباطها المستتر، وأحيانا اللاشعورى، بالواقع القائم لعدم المساواة، استنادًا إلى الطبقة أو الثروة. وفى الوقت الذى نرفض إطلاق شعارات

أيديولوجية علينا، فإن إطلاقها على الآخرين أمر شائع. وأكثر الشعارات التى أطلقت على طرافة هى القول بانتمائى إلى «اليسار المثالى الجديد» بدون تقديم أى شرح لماهية اليسار، أو لماهية المثالية الجديدة. وكان تيموثى ديونى، من قسم السياسات الدولية فى جامعة ويلز، هو أحد الذين أطلقوا على هذا الشعار فى كتابه الدراسى الذى ميز نفسه بإغفال تناول الفظائع التى ارتكبها الجنرال سوهارتو فى تيمور الشرقية.

إن «الواقعية الليبرالية» لم تكن خلاف النمط السائد بين الأكاديميين المعنيين بالعلاقات الدولية، وخاصة هؤلاء الذين أفرطوا فى الثناء على «الطريق الثالث»، ذلك الاصطلاح الذى يغطون به على برنامج يتسم بالرجعية. وعلى مدى ربع قرن كانت تيمور الشرقية ضحية لصمتهم. فالغزو والاحتلال اللذان أديا إلى استئصال ثلث السكان، وأديا إلى سقوط عدد من القتلى يزيد، إذا راعينا النسبية، على عدد الضحايا الذين سقطوا فى كمبوديا تحت حكم بول بوت، هذا كله لم يثر سوى الصمت الأكاديمى، الذى لم يكسره سوى جون تايلور بكتابه «حرب إندونيسيا المنسية» والأعمال الصادرة عن بيتر كارى ومارك كيرتس، وذلك الذى صدر بعد ذلك عن إيريك هيرنج. ولم تكن أكبر جريمة للإبادة الجماعية فى منتصف القرن العشرين دافعًا لإجراء أية دراسة حالة ذات أهمية مستندة إلى المصادر الأولية، من جانب أية جامعة بريطانية، سواء كانت ليبرالية أو تقليدية.

وهؤلاء القائمون على تدريس الإنسانيات يتهامسون شاكين أن

الجامعات قد تحولت إلى كليات للتدريب على المهن، ويسيطر عليها الحصول على تمويل من الذين يتولونها بالرعاية. وبالحفاظ على الصمت، سمحت هذه الجامعات للحكومات بتقليص تلك الثروة من المعلومات التى توضح مسار الأحداث فى العالم، معلنة بأنها «ليست ذات بال» وتحول دون تدفق التمويل. وليس مما يثير الدهشة أن تكون أقسام الدراسات الإنسانية - وهى الغرف المولدة للأفكار والانتقادات - على وشك الاحتضار. فعندما يخمد الأكاديميون صوت معارفهم، فإلى من يمكن أن يلجأ الجمهور؟.

والأمر الذى ينبغى تأكيده هو أنه ليست هناك مؤامرة. إن الأمر ببساطة يكمن فى الطريقة التى يعمل بها النظام، والتى تحقق «النفاذ» و«المصداقية» فى هيكل أكاديمى يتوق دومًا إلى أن يمنح صانعى السياسة من الدوافع الأخلاقية بأكثر مما يتوق إليه صانعو السياسة أنفسهم. وفي أقسام الدراسات السياسية تتمثل مهمة الواقعيين الليبراليين فى ضمان أن الإمبريالية الغربية يتم تفسيرها على أنها إدارة الأزمة. وبدون الإقرار إطلاقًا بإرهاب الدولة الغربية فإن التواطؤ من جانب هؤلاء الأكاديميين يكون أمرًا مؤكدًا. والإقرار بهذه الحقيقة البسيطة يعد خروجًا على الأكاديمية، ويكون الصمت هو الخيار الأفضل.

وعقب ١١ سبتمبر عاد الصمت مرة أخرى ليشكل المسألة الأساسية. فمن يجرؤ على التساؤل حول ذلك الاعتقاد الذى تم صكه حديثًا، والذى يقول بأن المهاجمين للبرجين التوأمين ليسوا سوى «فوضويين» يضمرون الكراهية لـ«التمدن» و«الحضارة»؟ وقبل

كل شىء من يجرؤ على القول بأن «الحرب ضد الإرهاب» تنطوى على الخداع: إن القائمين بهذه الحرب هم أنفسهم إرهابيون على مدى أكبر، وأن تصرفاتهم سوف تؤدى فى أقل القليل إلى وقوع المزيد من المجازر وسقوط المزيد من الشهداء؟.

وبين هؤلاء الأشخاص ذوى المشاعر الليبرالية يبدو من المفهوم أن يوجد ذلك الخلط حول الدوافع الإمبريالية، فى الوقت الذى تقوم فيه الولايات المتحدة بالهجوم على عملائها وحلفائها السابقين من الذين خرجوا عن طوعها، معلنة بأن كلا منهم هو هتلر جديد. ولكن «هذا الخليط من التعذر على الفهم فى مواجهة ماهو ناصع الوضوح، والإشارات الغامضة للتعمية على الحقيقة، إنما يعد فى الوقت الراهن ترفًا لايمكن للحضارة الحقيقية أن تتحمل تبعاته «هذا مايقوله دافيد إدواردز قبل أن يؤكد: «أن الأخطار الماثلة هى فى غاية الإلحاح».

يقول لى دنيس هاليداى: «إن من المحتمل أن نرى ظهور هؤلاء الذين قد يرون عن يقين أن صدام حسين مفرط فى الاعتدال، وأنه قد تجاوز المدى فى انسياقه للاستماع إلى الغرب. وهذا هو ماحدث فعلا بالنسبة للفلسطينيين. وهذا ماتولده حالة اليأس لدى هؤلاء الذين يموت أطفالهم بالآلاف فى كل شهر، والذين يتم قصفهم كل يوم تقريبًا بواسطة الطائرات الأمريكية والبريطانية».

فمن سيمكنه القول، على نحو مافعل هاليداى، بأن وظيفة الأمم المتحدة قد تضاءلت لكى تصبح مجرد القيام بإدارة مستعمرات؟ ومن سيتمكن من إزاحة رقعة الشطرنج جانبًا ليوضح بأن الإرهاب

لن يقدر له أن يتراجع مالم يتم رفع ذلك القدر الهائل من المعاناة والظلم وعدم الشعور بالأمن عن كاهل الشعوب؟.

فالأمر كما عبر عنه مارتن لوثر كنج: «لقد جاء الوقت الذى يصبح فيه الصمت خيانة. وذلك هو الوقت الذى نعيشه الآن».

المؤلف

- جون بيجلر John Pilger

- استرالي، يعيش في لندن، ويعمل صحيفًا في «الجارديان»، ومعدًا ومنفذًا للأفلام السياسية الوثائقية، ويعد من أبرز النشطاء في مجالات الدفاع عن حقوق الإنسان ومناهضة العولمة.

- فاز مرتين بأعلي جائزة للصحافة البريطانية، احدها جائزة أفضل صحفيي العام، عن أعماله علي امتداد العالم، وخاصة كمراسل حربي.

- وفاز عن أفلامه الوثائقية بجائزة «صحفيون بلا حدود» الفرنسية، وبجائزة الأكاديمية الأمريكية للتليفزيون، وبجائزة ريتشارد ديمبلي التي تمنحها الأكاديمية البريطانية لفنون السينما والتليفزيون، لجهوده في إنتاج الأفلام الكاشفة عن الحقائق.

المترجم

- السيد إسماعيل داود

- تخرج في قسم الصحافة بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٦٠.

- عمل كمحررًا ومترجمًا بصحف مؤسسة دار التعاون بالقاهرة، وعمل خبيرًا للعلاقات العامة ومساعدًا لمديرها بوزارة الشئون الاجتماعية. كما كتب بانتظام ولعدة سنوات في مجلة «أسرتي» التي تصدر في الكويت، وفي العديد من المجالات الأخري.

- انتدب لعدة سنوات للعمل كمحررًا سياسيًا في الأمانة العامة للثقافة والإعلام باللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي.

- أمضي الجانب الأكبر من حياته العملية في دولة الإمارات العربية المتحدة، حيث عمل مديرًا لتحرير صحيفتي «الوحدة» و«الفجر» اليوميتين لعدة سنوات، كما عمل خبيرًا في العلاقات العامة ومساعدًا لمديرها في وزارة الخارجية، ورئيسًا لتحرير مجلة «الشرطة» الصادرة عنها.

المحتويات

منافذ بيع مكتبة الأسرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

ت : سويتش ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

٥ ش الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

مكتبة ١٥ مايو

خلف مبنى جهاز مدينة ١٥ مايو - حلوان

ت : سويتش ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة ساقية
عبد المنعم الصاوى

الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو من أبو الفدا

ت : ٢٧٣٦٦١٧٨ - ٢٧٣٦٨٨٨١

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

الجيزة - بجوار كلية الإعلام بالحرم الجامعى

ت : ٢٥٧٢٩٥٨٤

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - الجيزة - محطة المساحة

ت : ٢٧٣٦٦١٧٨ - ٢٧٣٦٨٨٨١

مكتبة أكاديمية الفنون

مبنى أكاديمة الفنون ش الهرم

ش جمال الدين الأفغانى

من ش محطة المساحة - الجيزة

ت : سويتش ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

الإسماعيلية : التمليك - المرحلة

الخامسة - عمارة ٦ مدخل (أ)

ت : ٠٦٤/٣٢٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

الإسماعيلية: مبنى الملحق الإدارى -

بكلية الزراعة - الجامعة الجديدة

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بورسعيد: بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٢

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٠

مكتبة المنيا

١٦ ش خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الأداب - جامعة المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٦٥٦

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - طنطا عمارة سينما امير

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان المحطة - المحلة

عمارة الضرائب سابقًا

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة

٥ ش الثورة - المنصورة

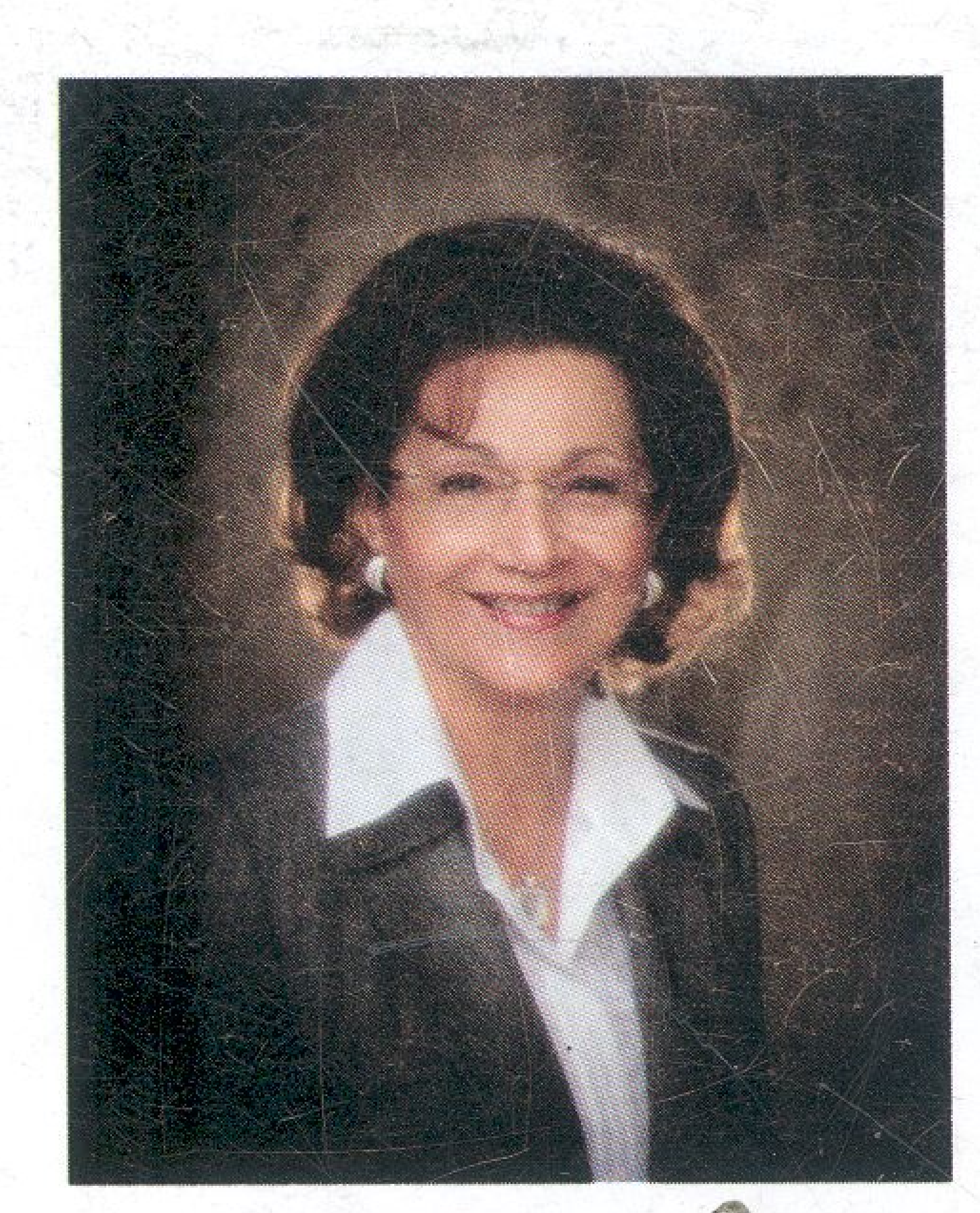
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية «جامعة منوف»

ت : ٠٤٨/٦٦١٣٣٤

دار مصر المحروسة
طبعة خاصة بمكتبة الأسرة ٢٠٠٨



ينعم الإنسان بشعور الألفة بينه وبين المجتمع الذي يحياه
ويحيا فيه، حين يفتح أفقاً أمام الحاضر والمستقبل، باستيعابه
العلوم، وإدراكه المجهول، وحين يقرأ نفسه، ويقرأ الآخرين،
فكل قراءة تجدد المعرفة تحررنا من العجز أمام المشكلات،
وتمنحنا طاقة الإمكان على تحسين الحياة، بأن نوظف معارفنا
لكل ما هو نافع ومفيد، فالمعرفة أهم وأغنى وأقوى ما يمكن
أن نمتلكه في الحياة، ففي ظلها يزدهر عقل الإنسان، ووعيه
المتجدد الحضور، فتتعدد لديه الإبداعات والإنجازات،
وينتج الموارد والثروة، ويصنع القوة، وتتسع أمامه كل
المجالات. إن من يحسن القراءة يحسن ممارسة الحياة.
لذا، كانت وستظل دعوتي أن نقرأ للحاضر.. أن نقرأ
للمستقبل.. أن نقرأ للحياة

سوزان مبارك



ISBN# 9789774205117





٢ جنيه

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة الأسرة ٢٠٠٨